

معارج الإبداع

ما لم ينشر من الكتابات الأولى للشهيد الأديب

غسان كنفاني

ما بين 1951 – 1960

تحرير: عدنان كنفاني



بين يدي الكتاب

مقدمة:

عندما أصدرت كتابي الأول (غسان كنفاني صفحات كانت مطويّة) تلبستني حالة من الرهبة، أن أكتب عن غسّان شيئاً مختلفاً ويحمل خصوصية الأسرة والمعايشة أمر رأيت فيه نوعاً من المخاطرة المشوبة بالرهبة، وقد قصدت أن أكتب عن غسان الطفل والفتى، عن تلك العلاقات الحميمة بين أخوين شقيقين في أسرة واحدة، تقاسما الثدي والفراش ورحلة اللجوء المرّ، وكانت رهبتي تتمثّل في أمر أعتقد أنه ينسحب على نظرتنا إلى رموزنا بشكل عام، فنحن سواء عن قصد أو غير قصد نضعهم في مراتب القداسة، ونرفعهم عن سلوكيات البشر، وهم في الحقيقة من نسيج البشر، لهم نزواتهم، ولهم حركتهم كما كل كائن بشري في هذه الحياة، وأعتقد أنه من المفيد أن يتلمس القارئ بعض مفاصل في مراحل مسيرة حياة الرمز، وقد تنفتح أمام رؤاه آفاقاً جديدة تفسّر كيف وصل هذا الإنسان العادي إلى مرتبة الرمز. وبعد أن وصلت إلى هذا الفهم وهذه الحقيقة التي أعتبرها إيجابية، لأن غسان ومهما كانت درجة انتمائي لشخصه وفكره، ومهما كنت منحازاً فهو«رحمه الله» لم يعد ملكاً لأسرته، بل أصبح شخصية عامّة، ورمزاً أدبياً، ومناضلاً صلباً حتى آخر لحظة في حياته، حاكى هموم الناس في أصقاع الشتات، وعبر عن صمودهم وأمنياتهم وتمسكهم بثوابتهم الوطنية والقومية، واستطاع أن يحتل موقعاً متقدماً بين أدباء عصره من خلال نتاجه الفكري الإبداعي والسياسي على حد سواء، ولو أنه في أدبياته لم ينضبط بالتقويمات السياسية التي ينتمي إليها، بل كان ممثلاً لضمير الشعب بامتياز، واستطاع أن يدخل إلى العمق الإنساني للقضية، وأن ينتشر إلى العالمية بعد أن ترجمت الكثير من كتاباته إلى كثير من اللغات الحيّة.

الآن تتلبسني رهبة أكبر وأنا في جهدي لتقديم غسان من خلال كتاباته الأولى التي لم تنشر، وهي بدايات تفجّر الطاقة الإبداعية عند غسان. وأسجل بداياتها المعقولة في العام 1951 علما أن الشهيد غسان من مواليد 1936 ما يعني أنه كان في الخامسة عشر من عمره..

وقفت طويلاً أمام أسئلة محيّرة:

هل من حقي أن أنشر كتابات غسان الأولى بما فيها من بساطة وعفوية ومباشرة وشعارات.؟

هل يمكن أن يتأثر موقع غسان المتقدم عندما نطّلع على بعض بداياته الأدبية.؟

ثم هل من حقي أن أنبش هذه المتروكات التي تجاهلها غسان نفسه ولم يعتبرها بالمستوى القابل للنشر.؟

وأمام هذه الأسئلة كان لا بد أن أضع أجوبة تقنعني أولاً، وتقنع الآخرين المتلقين.

ما دام غسّان خرج من«الأنا» الأسرية الضيّقة، وأصبح شخصية عامّة ورمزاً حيّاً ومنارة يهتدي بنورها الجيل بعد الجيل، أليس من حق الناس أن يطّلعوا على البدايات الأولى لأديب كبير وصل إلى ما وصل إليه غسان.؟

إن نشر ما كتبه غسان في بداياته قد يكون دليلاً للناشئة، ونستطيع من خلال الإطلاع على البدايات أن نتلمّس مسيرة غسان الأدبية وفعل التطوّر الذي هيأه ليحتل الموقع المتقدم.

ثم أعتقد أن الإطلاع الواعي على بدايات غسان قد يؤسس لفهم جديد لإبداع غسان، وقد يفتح أقنية جديدة لدارسي أدب غسان.

وقد يكون في نشر هذه الأدبيات معلومة ومتابعة لتطوّر غسان تصل إلى كل مجتهد ليسلك طريق الدراسة والقراءة والكتابة بجهد ليحقق مرحلة نضوج تؤهّله ليتبوأ المكان اللائق في هرم الإبداع.

وبعد أن وضعت هذه المعايير، قررت أن أدخل هذه التجربة.

وعندما أطلق على هذه المخطوطات«بدايات» فأنا أعني الأمور التالية:

لقد ولد غسان في العام **1936**، واستشهد في العام **1972**، ما يعني أنه عاش **36** عاماً لو قسمناها إلى مراحل لوجدنا أن الـ **12** سنة الأولى توزّعت بين الطفولة والمدارس الأولى ورحلة اللجوء.

أما الـ **12** سنة التالية فهي مرحلة الدراسة وبناء الشخصية والتأسيس للعمل.

تبقى الـ **12** سنة الأخيرة التي شهدت تفجّر الطاقة الإبداعية عند غسان، وهذا التراث الضخم الذي تركه زاخراً بالقصص والروايات والدراسات والمسرحيات والعمل الصحفي اليومي إلى جانب انتمائه الأيدلوجي لحركة القوميين العرب ثم إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

حاولت في كتابي الأول (غسان كنفاني صفحات كانت مطويّة) أن أخوض في الـ **12** سنة الأولى من عمره، مرحلة الطفولة والصبا، وها أنا ذا أحاول أن أقدّم للأعمال التي بدأ بها غسان بناء نضوجه، وهي بين العام **1951**، والعام **1961**، أكثرها في دمشق«سورية» حيث بيت الأسرة، والقليل في أوائل عمله وإقامته في الكويت.

ولا أدعي الفضل في ذلك، فكل الفضل لوالدي المحامي محمد فايز كنفاني رحمه الله، الذي كان دقيقا وحريصاً على أرشفة كل قصاصة تخصّ أي واحد من أبنائه.

هي مجموعة من القصص والمقالات والحواريات والتمثيليات والدراسات والمحاولات الشعرية التي لم تنشر، وبعض ما نشر في الصحف في تلك الفترة السابقة جداً، وللأمانة أجد من الواجب أن أوضّح بعض الأمور:

القصص:

هناك قصص كتبها غسان في مطالع الخمسينات من القرن الفائت لم تنشر أبداً.

وهناك قصص أخرى نشرت في صحف قديمة بالفترة نفسها تقريباً لا توجد في أعماله الكاملة المنشورة، وإن وجدت الفكرة مثلاً فهي ما اشتغل عليه غسان حتى وصل إلى قناعة نشرها.

وأما القصص الأخرى فهي منشورة في أعماله الكاملة ولكنني أنشرها هنا ثانية من أصل كتابتها أولا، وقد نلاحظ بعض التغييرات والتحسينات التي أجراها غسان عليها. وقد رأينا أن نضع صورا توثيقية من هذه الكتابات وهي بخط يد غسان.

المقالات والدراسات:

لا أعتقد أن المقالات والدراسات التي أنقلها للنشر في هذا الكتاب قد نشرت سابقاً، ولتحقيق الشفافية سأحاول أن أضع مقتطفات مصوّرة من تلك المخطوطات وهي بخط يد الشهيد غسان أيضاً.

الحواريات والتمثيليات:

بعض تلك الحواريات والتمثيليات أذيع من محطة إذاعة دمشق«برنامج الجندي» في تلك الفترة السابقة لكنها لم تنشر ورقياً، والبعض الآخر لم ينشر.

الشعر:

هي محاولات قليلة، لم يتابع غسان كتابة الشعر، لكنني أنشرها فقط للإحاطة بالتوجهات الأدبية الإبداعية عند غسان.

الرسوم:

أكثر اللوحات المنقولة في هذا الكتاب رسمها غسان وهي معروفة تقريباً.

هذه هي الخطوط العريضة للكتاب، وكلي أمل أن أكون على مستوى المسؤولية الأدبية، وأن أوفي شقيقي الأديب الشهيد المناضل غسان كنفاني بعض حقّه عليّ.

والله من وراء القصد

عدنان كنفاني

قصص غير منشورة كتبها غسان

بين العام 1951 –1958

(مجموعة من **9** قصص كتبها غسان في بحر العامين **1951** و**1952** ورتبها في كرّاس لم ينشر بطبيعة الحال، وهي أول مجموعة أطلق عليها غسان«مجموعة» ومن المؤسف أن عنوانها والإهداء مفقودان، إلا أن المجموعة لم تجد حظها للنشر وبقيت طيّ الكتمان..كتبَ في تقديمه للمجموعة« ..ع»):

قارئي العزيز..

كان أول إنتاج أخرج به لدنيا الطباعة هو كتابي هذا الذي بين يديك، والذي يتوقف عليك وعلى تشجيعك نجاحه أو فشله.

في الحقيقة كان لأحد أصدقائي الفضل في طبع هذا الكتيب فهو أشار علي أن أطبعه وقد كنت أبعد ما أكون عن هذه الفكرة، وحتى لم أكن لأفكر بها بتاتاً، فاستمعت لصوت صديقي، وبقليل من الشجاعة والتشجيع أسلمت كتابي للطابع والناشر ليخرجه للقراء وينشره بينهم فيطلع الجميع على هذا الإنتاج المتواضع، ويتشجع الكتاب الناشؤون، ويخطون ولو خطوة واحدة في حقل هذا النشاط الأدبي، فيخرجون للعالم زبدة أقلامهم، وإنتاج أفكارهم.

ولقد عالجت في كتيبي هذا«القصة».. وكتبت منها تسع، كان أكثرها«ولا أقول جميعها» من النوع المحزن، أو بالأحرى من النوع التراجيدي إن صح التعبير، انتزعتها من الواقع انتزاعاً، ودمجتها بالفكاهة الخفيفة المناسبة كي يتمتع بقراءتها القارئ، ويشعر شعوراً تاماً أنني إنما أتكلم الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، ولا أقول أنني عالجت هذا النوع المحزن معالجة صادقة، بل أقول إنني حاولت أن أكتب الواقع، وأن أكون أبعد شيء عن ذكر التفاصيل الباكية التي ربما لا يلذ لها القارئ ولا يستسيغها..

قارئي العزيز..

ها هو ذا كتابي أمامك، اقرأه وتمعن بقراءته، ثم احكم عليه.. وأنا لحكمك مصغ.

والله ولي التوفيق

غسان كنفاني

(لكن هذه المجموعة لم تجد طريقها للنشر«ع»)

دعاء

اللهم ارزقنا القوة حتى نقبل بنفوس مطمئنة كلّ ما لا يمكن تغييره، وارزقنا الـشجاعة حتى نجرؤ على تغيير كل ما يمكن تغييره ويجب أن يغيّر، وارزقنا الحكمة حتى نميّز بينهما!

(هارت)

(1)

البطل الصغير

«إبان فيضان نهر بردى في دمشق في أوائل عام **1951** حدثت هذه الأقصوصة الصغيرة».

كنا نقف في أماكن مرتفعة نشاهد المياه وهي تنساب مسرعة من شارع إلى شارع وقد بلغ ارتفاعها في بعض الأماكن حوالي الستين سنتيمتراً. لقد كان فيضاناً رهيباً.. وكأن الطبيعة أرادت أن ترينا أنها لا زالت ولا تزال أقوى مسيطر على هذا العالم المتحضر..!

وهناك حيث كنت أقف أشاهد الرجال والصبيان يحاولون قطع هذا النهر الهائج من جهة إلى أخرى.. كان بقربي صبيّان لم يبلغا العاشرة بعد يصيحان ببعضهما ويتضاربان ويتقاذفان الشتائم، الحديثة منها والقديمة.. حتى إذا وقفنا بينهما انفصلا وفي أعماقهما غيظ محتدم.. وعدنا نحن لمراقبة المياه وازديادها المطرد.

وأخيراً مللت الوقوف وهممت بالإياب، ولكنني توقفت إذ رأيت أحد هذين الغلامين يستعد للنزول في هذا الخضم المتلاطم ليصل إلى الناحية الأخرى، فدفعني حب الاستطلاع لأن أقف لأرى ماذا ستكون نتيجة سعيه، ولم ألبث في مكاني بضع لحظات حتى رأيت المسكين الصغير ينزلق ويقع في الماء ثم يتدحرج كما تتدحرج الكرة إثر ضربة من ضربات لاعب محترف. وكان يظهر لنا بين الفينة والأخرى رأسه الصغير ونراه يحاول الصياح والاستنجاد ولكنه لا يلبث أن يختفي ويعود إلى سابق تدحرجه واندفاعه مع المياه. ولم يجرؤ أحد على التقدم لإنقاذه فقد كانت المياه أقوى من أن يعترضها إنسان.

ووقف الجمهور المحتشد ينظر إلى الغلام وإلى رجال المطافئ في محاولتهم الجبارة، وقد احتبست أنفاس الجميع في مشاهدة هذا الصراع بين الموت والحياة. وفجأة تناهى إلى أسماعنا صوت ارتطام جسم بالماء ونظرتُ ونظر الجميع إلى هذا المنقذ الجريء..

يا الله..!

إنه الولد الآخر الذي كان يقف بقربي، صديقه القديم وغريمه منذ لحظات، لقد نسي في هذه اللحظة الحاسمة ما كان بينهما منذ برهة، واندفع إلى أحضان المياه جاهلاً السباحة غير عابئ بالخطر المحدق به، ولم تلبث المياه أن طرحته أرضاً وابتدأت تدحرجه وتدحرجه ومع هذا كان ما يزال بانتظار تقدمة مساعدة لصديقه، فكان يرفع رأسه بين الفينة والفينة لا ليصيح طالباً نجدةً، بل ليرى الغريق وليرى إلى أين يسير، وبعد جهد جهيد استطاع اللحاق به ودفَعه إلى الناحية الأخرى الأقل عمقاً!

لقد كان يدفعه وهو أشد حاجة إلى الدفع منه، ولكن إرادته القوية وعزيمته الجبارة مهدتا طريق المساعدة أمامه، ومن ثم تدخل رجال المطافئ وبعض المتفرجين واستطاعوا إنقاذ الغلامين وإسعافهما الإسعاف اللازم.

وبينما كان المطر ينهمر مدراراً كان النهر ينسحب رويداً رويداً..

لقد علم من جولته الجبارة هذه أن هنالك شهامة عربية مازالت مغروسة في النفوس.

1952

(2)

ست رصاصات

واتجهت أنظارنا جميعاً إلى وجه الملازم البرونزي وهو يقول:

ـ«لدي مهمة شاقة.. فهل من متطوعين؟»،

ولم يكن بحاجة لأن يسمع الجواب بل انفتل مسرعاً وقال:

ـ«أريد اثنين.. اثنين فقط».

ولكن الأيدي المرفوعة لم تنخفض فكلهم يريد التطوع لهذه المهمة. واقترب الملازم من الصفوف وأخذ يستعرض وجوه رجالنا الأشداء وجهاً وجهاً. ولفت نظره وجه صديقي ناجي بآيات العزم البادية على صفحته، والابتسامة المتفائلة المرسومة على شفتيه فأشار له بيده أن يقف جانباً. ثم أشار لي أن أتبعه.

ولما انفرد بنا قال وهو ينقل بصره من وجهي إلى وجه ناجي وبالعكس:

ـ«إنها مهمة شاقة أيها الشابان. ولكني عهدت إخلاصكما فأوكلتها إليكما».

وأخرج خارطة من جيب سترته وأشار إلى أحد جوانبها وقال:

ـ«دونكما خزان المياه هذا فإذا ما وصلتماه فازرعا حوله من الديناميت ما شئتما ثم عودا فإذا رجعتما فقد قمتما بواجبكما على أتم وجه.. أما في حال استشهادكما فتكونا قد حظيتما برحمة الرحمن وجنانه. وستحميكم في ذهابكم رشاشات فيالقنا إذا تنبه العدو لكما».

وبعد أن صافحنا بحرارة ابتعد ليوجه أوامره إلى بقية الجنود.

كان كل شيء هادئاً ساكناً يبعث الرهبة في القلوب، وكنا نزحف قُدماً نحو الخزان.. أما رجالنا الأشداء الممدون على الأرض فلم يكن ليظهر منهم شيئاً، اللهم إلاَّ خوذاتهم الخضراء.

وما كدنا نسير قليلاً حتى شعرنا أن هناك من يتبعنا، ثم سمعنا صوت أحد الجنود يهمس:

ـ ناجي، أحمد اسمعا..

ولما اقترب منا شاهدنا في عينيه بريقاً مخيفاً، رأيناه منذ لحظات في عينيّ الملازم.. كان بريق العزم والإصرار!.. وقال لنا قبل أن نحرك شفاهنا:

ـ لقد وصل إلى الملازم أن العدو علم بخطتنا وهو «أي العدوّ» يحرس الخزان حراسة قوية فاذهبا إن أمكنكما الوصول بسلام، أما إذا لا فارجعا.. هذه هي أوامر الملازم..

رفعت رأسي واتجه نظري إلى الخزان، فرأيت عدداً من المصفحات والدبابات، وزحفت خلف زميلي عائداً إلى المعسكر فالذهاب إلى الخزان في هذا الوقت ضرباً من الجنون. ولكن ناجي أبى أن يتبعني وبقي متجهاً ببصره إلى الخزان.

ـ أسرع يا ناجي قبل أن تدهمنا فرق العدو.. أسرع.

ـ لا.. إن باستطاعتي الوصول فلم لا أذهب؟ لقد أمرني الملازم بالذهاب.

ـ تستطيع أن تصل..؟ ألا ترى العدو.! هيا اتبعني.

وأمسكت يده القوية بيدي وجذبته نحوي، ولكنه سحبها بقوة وصاح:

ـ كلا.. أريد أن أنسف الخزان، إن هذه مهمة في عاتقي.

ـ ولكن الملازم قال أن نرجع إذا لم...

وقاطعني صوت رشاش عربيد من ناحية العدو، ولما سكت قال ناجي:

ـ سأذهب.. سأموت.. ولكنني سأنسف الخزان.

ـ يا صديقي سنلغمه بعد ساعة ولكن الآن لا نستطيع.. هيا أسرع.

ـ ولكن الملازم أمرني...

وابتعد عني متوجهاً نحو الخزان، فصحت به وقد خرجت عن طوري:

ـ ناجي، ناجي أنا أكبر منكَ آمرك أن تعود، أتوسل إليك.. أرجوك.

وعاد ناجي وابتدأنا نزحف نحو معسكرنا.. وما كدنا نسير قليلاً حتى رأينا منقذنا يركز رشاشه على الأديم ثم اندفعت منه رصاصات عدة تحمل بين جنباتها موتاً زؤاماً، وزغردت بنادق وحداتنا ورشاشاتها تحصد العدو حصد المنجل للقمح.

وانفتحت ثغرة من الطوق الذي بناه اليهود حولنا وعدونا من فوق الجثث لننضم إلى وحدتنا.

وتنبهنا بعد فوات الأوان إلى أن ناجي لم يصل إلى المعسكر!..

أواه أيكون قُتل ونحن لا نشعر.؟ أم أنه.. يا الله.. لا أستطيع التفكير.. ناجي ذلك الشاب الشجاع، صديقي الوحيد وعزائي في الحياة يقتل.! كلا.. كلا...

ولم أنتبه لنفسي إلاَّ وأنا أعدو في تلك البطاح باحثاً عن ناجي.. وما كدت أسير قليلاً حتى سمعت صوت انفجار يصم الآذان والتفت إلى حيث سمعت الصوت.. إنه هناك حيث أشار عليّ الملازم أن أزرع أصابع الديناميت مع صديقي ناجي! وتقدمت فيالقنا مع بزوغ الشمس نحو الخزان المحطم والمستعمرة المشتتة..

وهناك بين حطام الخزان وحجارته المتناثرة عثرنا على جسم ناجي ممدداً على الأرض وقد رقدت بقربه إحدى يديه ممزقة شر ممزق. ونقل إلى المستشفى حيث استخرجت ست رصاصات غادرة كانت مستقرة في جسمه الصلب.

وزرته بالمستشفى حيث كان على أبواب الأبدية ولما رآني تمتم هامساً وعيناه ترمقان خلسة ست رصاصات على المنضدة...

ـ شد ما كنت خائفاً أن أموت قبل أن أراك يا أحمد..

ثم سكت واستجمع بقايا قوة كامنة في نفسه وعاد يقول:

ـ لقد تحطم الخزان.. أليس كذلك؟ لقد أخبرني الملازم بذلك قبل أن تأتي. لقد ارتاح ضميري قبل أن أموت.

فصحت وقد جالت دمعة في مقلتي:

ـ«لا تقل ذلك يا ناجي سوف تعيش.. ولكن خبرني كيف استطعت الوصول إلى الخزان».

فتمتم وعلى فمه ابتسامة الفوز:

ـ إن قوة الإرادة يا أحمد لتقوى على المدافع الغادرة.. لقد صممت وأنجزت ولا زالت كلمة الملازم ترن في أذني.. (إذا استشهدت فقد حظيت بجنّة الرحمن ورحمته..)

ثم أغمض عينيه وتقلصت عضلات وجهه بشدة وكبت ألمه بنبل ولم ألاحظ قسمات وجهه وهو يستطرد حديثه لأن دموعي حجبته عن ناظري!..

ـ لقد انتهزت فرصة إطلاقكم الرصاص على العدو وانسحبت وركضت نحو الخزان لألبي نداء الواجب.. لقد أصابتني ست رصاصات غادرة في ظهري ولكنها لم تعق تقدمي فقد وضعت نصب عيني «نسف الخزان»، وتابعت طريقي ـ ولا أدري كيف ـ حتى وصلت إلى بغيتي، ولكنني لم أستطع الابتعاد فقد تلاشت قوتي مع دمائي التي نزفت، ورأيت قوات العدو تقترب مني.. ونظرت بعين خيالي، جهودي الجبارة تتحطم على صخرة اليأس المريرة، فآثرت الموت بعد أداء مهمتي عن الأسر، أو القتل بيد الجبناء.. فأشعلت الفتيل وأنا قرب الديناميت ولم أعد أصح..

فقلت مؤنباً:

ـ ولكن لِمَ لم ترجع معي حينذاك يا ناجي، فنذهب بعد مدة وجيزة ويكون كل منا عوناً للآخر.!

ـ كلا يا أحمد، فالعدو علم بغيتنا وسيشدد الحراسة على الخزان فلن نستطيع الوصول إليه أبداً.. أما وقد قضيت مهمتي فأنا مرتاح الضمير مطمئن النفس!.

واشتدت عليه نوبة الألم فأغمض عينيه وتلوى على فراشه ثم انقلب وصاح بي وقد رآني أنشج بالبكاء:

ـ لا تبك يا أحمد، وصيتي إليك ألا تبك فأنا شهيد!

ـ لا، لا، يا ناجي أوصني بشيء آخر، قل لي أن أفرغ هذا المسدس في رأسي ولا تقل لي ألاّ أبك عليك فلا أستطيع.

وهنا انفتل مسرعاً وصاح:

ـ ولكنك جندي ذو عزيمة و...

ولم يمهله ملاك الموت لإتمام آخر جملة بل اختطفه، وتركني وحدي في غرفة صماء وراء سرير محطم عليه جسد محطم!..

ومـات نـاجي.. ولكنـه لم يمـت إلا بعـد أن تـرك لي في أعماقـي درسـاً لـن أنـساه في التضحية والإخلاص!

وخطّ الملازم ببقايا قلمٍ عتيق على شاهدٍ من خشب فوق قبره المتواضع:

(هنا يرقد باطمئنان الجندي الذي لبى نداء الوطن وقدم حياته، قرباناً للواجب).

أما أنا فلم أجد ما أكتبه..

بل قل كانت الكلمات أقلّ شيء أستطيع به التعبير عن عـواطفي المتدفقـة.. ولم أعثـر في تلك البطاح التي اتخذ ناجي حفنة منها مثواه الأخير على باقة ورد، أضعها على قبره..

ولكنني وضعت عليه صورة خزان... وست رصاصات!.

1951

(3)

قسوة القدر

ظن أن شقاءه هجره!..

ولكنه سرعان ما عاد إليه بحلة جديدة!

شُعل تنطفئ، وورود تذبل، وآمال تتحطم.. فتسيل تحت أقـدام القـدر، ذليلـة كـسيرة، تشبعها نظراته المتشفية الساخرة..!

ثم يضحك القدر... فتهتز القلوب في الصدور وترقص على نغمات النفس الطـروب!.. ولكنه سرعان ما يعود فيعبس وتسير الآمال في ركاب الفناء على دقّات الآلام والآهات...

❖ ❖ ❖

أصبت في ربيع شبابي بمرضٍ في عينيّ فحجب عنهما ملاذ الدنيا ومتاعها وعشت وحيداً في ظلامي أشكو للأيام ظلام القدر وجور الزمان.

كانت حياتي سلسلة متصلة من الحلقات من مأساة معتمة.. أتخبط فيها خبط عشواء.. لا أرى موضع قدمي ولا ضوء أملي.. وانفرطت مـن سلـسلة حيـاتي ثلاثـة حلقـات.. وأنـا في ظلامي.. محروم من لذة الحياة ومتاعها.. أسير نحو السعادة فلا أجدها.. وأرجع للماضي فأراه أظلم من حياتي الحاضرة القاتمة... حتى مضت ثلاث سنوات.. ثم!...

ثم ضحك القدر..

فقد ولّى مرض عيني عنهما وتركني أنعم بلذة العيش وجمال الطبيعـة.. وانقـشعت عـن عيني تلك السحابة الكثيفة وبدد ظلماتها نور الحياة!..

ولكن ذكريات الماضي الأليم.. كانت قد نقشت عـلى صـفحة قلبـي النـابض بحـروفٍ سوداء بارزة تركت في حياتي ثغرة لا تسد ونافذة لا تغلق.. فأنا قد كرهت الليل، لأن ظلامـه

يذكرني بآلامي، وكرهت السواد.. لأن لونه يعيد إلى ذهني ماضيه، كرهت العصيّ.. لأنها تذكرني بدبيب خطواتي التائهة في دنيا ظلامي، تسبقني عصاي الناعمة فتشق بصلابة طريقها المستقيم! وكرهت.. كرهت أن أرى العميان في حياتهم المظلمة القاتمة، بل كرهت حياتهم، كرهت وجودهم.. فهم يذكرونني بماضي أيامي وآلام حياتي!..

ربما قال قائل إن تلك العوامل التي تعتلج في عميق فؤادي من ناحية العميان.. هي شفقة محضة.. ولكنني متأكد، ومتأكد تماماً أنها كراهية، كراهية عميقة لا أدري كنهها ولا منبعها!.

وفتح من صرح القدر بابٌ نفذت به إلى دنيا سعادتي ـ كما خيل إليّ ـ فلقد كان جمالها من هذا النوع الإغريقي الساحر... برشاقة دليلة، بجمال فينوس، ودلال كليوباترا..

كانت مثالاً حياً نابضاً للجمال الصارخ في أبدع صورة..

تخطر في ثوبها الأبيض الناصع كفراشة بيضاء تنتقل من وردة إلى أخرى ومن أيكة إلى أيكة.. يتوسط وجهها الأبيض المشربّ بالحمرة أنف دقيق وتحته شفتان قرمزيتان متعطشتان تنفرجان عن أسنانٍ كأنها عقد لؤلؤٍ مرصوف... أما شعرها الذهبي.. إنه شذور متموجة، كان ترك على طبيعته الساحرة ينثنى على كتفيها الرشيقين كما تنثنى الأمواج على الرمال وقد حجبت نور الشمس المحرق عن عينيها نظارة سوداء تزيدها فتنة.

لا أطيل الكلام!..

فقد اخترق سهم كيوبيد فؤادي المغلق.. وتكسر في أعماقه السحيقة.. تاركاً حطامه الصلب يدمي جوانبه الحمراء! وتبعتها وقتاً ليس قصيراً.. وعرفت بيتها الأرستقراطي العتيد وسحبت أذيالي عائداً لبيتي.. بعد أن دخلت مع زميلتها التي كانت معها وهما تمسكان بأيدي بعضهما بدلال حبيب.

ونهضت فجر اليوم التالي وقد تمخض طول سهري في ليلة الأمس عن حلٍ ملائم لهذه الحالة الأليمة..

فأنا لا زلت في مطلع العقد الرابع من عمري.. وأمامي المستقبل حافل مزدهر، وعائلتي من العائلات المعروفة في هذه البلد. فِلِمَ لا أتقدم خاطباً هذه الغادة واضعاً سعادتي في كفة الحظ وشقائي على كفة أيضاً!..

كان حبي جنونياً!. فأنا ممن يقدسون الجمال ويجلوه وممن يدركون ويحسون مبلغ ريشة الفنان الأعظم... وإذ ما أحببت غرقت في لجة حبي حتى أذني.. فقلبي إذا أحبّ أخلص وإن صادق وفى!.

ورضي الوالدان.. وطلبا مراجعة ابنتهما على أن يعطياني الإجابة القاطعة في بحر شهر...

ومضت الأيام بطيئة متثاقلة، تنتزع خطواتها من أرض التاريخ انتزاعاً بطيئاً، قاتلاً، مملاً.. تترك خلفها وعلى صفحة التاريخ قطعاً من قلبي وبقعاً من دمي، لتظل رمزاً لحب طاهر ووفاء كامل..

مضت الأيام، وتركت خلفها ومكاني إنساناً آخر، له قلبي الكبير داخل جسم نحيل.. هصرته الأشواق فأحالته إلى هيكلٍ عظمي تتأرجح عليه بقايا قطعٍ من جلدٍ مهلهلٍ أصفر، رهيب!

ومضى الشهر...

وطرقت الباب الموعود بطرقه مدة شهرٍ مضى.. وقلبي يدق دقاً عالياً متواصلاً.. تماماً كضرباتي على هذا الباب الكبير..

أجل كانت ضربات مضطربة مترددة!.

ـ لقد وافقت ابنتي ليلى يا أحمد أفندي، لكن...

ـ لا داعي للتأويلات يا حسن بك، هات يدك، ها..

ـ لكن يا أحمد، هناك بعض الأمور يجب أن تعرفها قبل الزواج.

ـ سأعرفها بعد الخطوبة!. هات يدك يا أبي.

ـ أحمد.. هناك أمر مهم يجب أن تعرفه!

ـ ما هو يا أبي؟.

وهنا أدار لي ظهره، ثم انفتل بعد لحظة.. ليسدد طعنته النجلاء في صميم سعادتي..

ـ يجب أن تعرف يا بني أنها.. أواه! إنها عمياء!.. عمياء! عمياء.....!

ـ عمياء!.

الله ما أقسى القدر وما أمرّ الحياة!.

1952

شذرات

أعظم مفلس في الدنيا هو الرجل الذي فقد حماسته، فلو فقد كل شيء سوى الحماسة لاستطاع أن يسلك طريق النجاح ثانية.

أرنولد

لم يكن موكولاً إلينا أن لا تكون لنا غرائز وشهوات، ولكننا نملك على وجه التحقيق زمام هذه الشهوات والغرائز، وفي طاقتنا أمر كبحها والتحكم بها.

روسو

سيان عندي أن أهدم جسوري أم لا أهدمها من ورائي وذلك لأني لا أتقهقر أبداً..

(....)

تزوج يا بني! تزوج! فإذا ظفرت بزوج فاضلة فأنت رجل سعيد. وإذا كانت غير فاضلة صرت فيلسوفاً، وهذا نعمة لكل رجل!

سقراط

(4)

مأساة.. ودموع!

وقف متكئاً على الحاجز، يسرح بنظراته الحالمة على صفحة الماء وهي تتراقص على ضـوء القمر تصحبها موسيقا من حفيف الأشجار الباسقة على طرفي النهر.. وزقزقة الطيور العائدة لأوكارها بعد كدّ طول نهار.

كان شاباً في حوالي الرابعة والعشرين من عمره.. يحمل في تجويف صدره العـريض قلبـاً صلباً قاسياً كأنه قدَّ من صخرةٍ صماء لا حياة فيها ولا روح.. تتمتع عائلته بمركـزٍ مـالي ممتـاز فهو لا يبالي بل لا ينظر للمستقبل بتاتاً.. ولماذا ينظر ما دام الذهب ورنينه يملأ جيوبه وأذنيه؟.

وازدحمت الخواطر في رأسه. تتضارب على جوانبه القاسية فتتحطم وتـستحيل إلى قطـعٍ صغيرة تستقل كل منها في تكوين فكرة خاطفة، ثم تندفع إلى الداخل تتزاحم وتتـضارب مـن جديد في جوانب رأسه المكدود!..

وأحس كأن جمجمته تكاد تتفجر بحملهـا الثقيـل، فـانتزع خطواتـه مـن مكانـه وسـار متمهلاً على حافة الخضم يملأ رئتيه من هواء الليل الصافي، ويـشبع عينيـه مـن تلـك الأنـوار المحتضرة هاجعة تحت ظلمة الليل المبهم.. والقمر في كبد السماء يحاول جاهداً تبديد غياهـب الظلمات بنوره الفضي اللامع!..

كان هذا الشاب«موفق» قد احتك احتكاكاً مباشراً رغم غناه الفاحش بصخرة المجتمع، وفهم الإنسان وعواطفه وميوله وأهدافه، فانطلق ينقده في جميع المجتمعات وأكثر الأوساط.. حتى إذا رأى أن آذان القوم قد سدت دون كلامه.. مضى في هذه الأمسية وحيداً لحافة الخـضم يفكر وينتقد بهدوء لا يعترضه معترض ولا ينقده ناقد!.

عجباً للإنسان! ذلك الطامع أبداً، يتمنى لو أن يكون مال قارون بين قبضتيه يتصرف فيه كيفما شاء لا يحاسبه أحد ولا يمنعه شخص. وماذا يهمه لو مات بقية البشر جوعـاً وتـشرداً..

لقد أعماه المال وزرعت أولى قطعه الذهبي بذور الأنانية في قلبه حيث كبرت وترعرعت في ظل ثروته ورنين ذهبه!

لماذا يجابه الإنسان الحياة بهذا المال وهذا الاستعداد؟! ماذا تستحق الحياة الدنيا؟.

بل قل ما هي الدنيا: إنها الانحطاط إلى درك الفساد، إنها الأنانية وإيثار الذات!.

الحياة لا تستحق أن يحمل الشخص لأجلها هموم العالمين على ظهره، بل لا تستحق أن يعبس فتمتد أنامل الأيام إلى صفحة وجهه تداعب بقسوة أطراف بشرته تطويها على الآلام طياً..

ما لذة الحياة إذا لم يكافح الإنسان لأجلها ويناضل فالحياة سلم على الشخص أن يصعده درجة درجة فإذا ما قذفته المقادير درجة أو اثنتين إلى أسفل مال إلى الوراء ينظر أين يضع قدميه في قاع السلم.. ولا يفكر بتاتاً أن يعود فيدوس على القدر الساخر يشق طريقه في خضم الحياة جاهداً مجاهداً..



وهنا انتابه النعاس، فاتكأ مرة أخرى على الحاجز الحجري وما لبث النوم أن داعب بأنامله الرقيقة أطراف أجفانه... فاستسلم له تاركاً قياده في قبضة يديه يعبث به كيفما شاء!..

ولم يلبث أن صحا مذعوراً على صوت ارتطام جسم بالماء وبللت القطرات المتناثرة وجهه ويديه.. وأحس بالبرودة تتسلل عبر ثيابه وتهيمن على أطرافه فتتقلص تحت تأثيره مقشعرة مرتعشة.. وحملق خلال طيات الظلام ليرى الأمواج تسير سيرها الطبيعي تكتم في أعماقها الخبر الرهيب!.

ودق قلبه كما تدق نواقيس الكنيسة.. وحدثه ضميره أن في الأمر شيئاً وخاصة عندما رأى فقاقيع الهواء تخرج من الأعماق وتتفجر على صفحة الخضم زرافات ووحدانا...

ولأول مرة تسربت الرحمة من خلال صدره العريض ودقت أبواب فؤاده..

وعاد قلبه يدق من جديد، وألهبت سياط ضميره صفحة قلبه بشتى أنواع التأنيب... أناني! جبان! قاسي! منحط! فتمتم باندفاع وهو يخلع سترته:

ـ لا! لا! ليست هذي صفاتي... إنها صفات غيري! وصارع الأمواج، على أنغام دقات قلبه وغاص للأعماق على آثار سياط ضميره! واستطاع أن يمسك بالغريق وعاد به إلى صفحة المياه يصارع الخضم الجبار الفاغر شدقه أبداً من جديد! ودفعه حب الحياة إلى الأمام، وقذفته أمواج الشهامة إلى شاطئ الحياة فارتمى على أديمه منهوك القوى خائر الجسم محطم الأوصال، وتسرب ضوء القمر من خلال السحاب الأدكن، ورمى بأشعته متهالكة على الوجه الذي كان سيصبح عما قليل في طيّ النسيان وبين جوانح الموت!

كانت فتاة في ريعان ربيعها وإن كان وجهها المصفر فيه مسحة من الجمال فقد تسربت إليه أنامل الزمن تخط خطوطها على صفحته!

وكانت نتيجة الجهود الجبارة التي بذلها لإيقاظها مثمرة، فقد أفاقت قليلاً ثم نامت من جديد حيث صحت على ضوء شمس الصباح نشيطة، يافعة، سليمة...

ثم مضت، ومن بين الدموع تروي قصتها الأليمة.

إنها كعشرات الألوف أمثالها من المهاجرات الفلسطينيات العرب الذين قنعوا بالحياة وحدها وخلفوا وراءهم ملاذها ومتاعها؛ سقط أخوها في ساحة الشرف بعد أن تحلى بأوسمة زينت صدره إلى الأبد! كيف لا؟ وقد أصيب برصاصات غادرة كمنت في ثنايا أضلاعه!. وماتت أمها حزناً على وحيدها، ووضعت قياد ابنتيها وأبيهما الضرير بين أنامل القدر المتحجرة!..

ثم استهزأ القدر من البشر!. وسطر على صفحة التاريخ مأساة الهجرة الفلسطينية بأحرفٍ من نار، ومداد من دماء الشهداء الأبرار... وخرجت هي مع من خرجوا من ديارهم، قافلة طويلة حافلة بالمآسي والمواجع التي تذوب لها المهج..!

ولم تتحمل شقيقتها الصغرى تعب السفر وذل الهرب فأسلمت الروح على الطريق، فكفنت بالدموع والآهات وتابع الركب الحزين سيره الصامت!

ثم استطردت وهي تنشج:

«لم يكن هناك مناص من أن أعيل والدي الضرير بأية طريقة شريفة.. خدمت!، غسلت!، نقلت الحجارة على كتفي!.. فقط.. لأعصر من بؤسي وشقائي بضع دريهمات أغني بها والدي من ذل السؤال.

ثم أغلقت الأبواب جميعها في وجهي.. نبذني المجمع ورمتني الحياة!. فعشت على هامشها، لا أحيد عن طريق الشرف قيد أنملة»..

وسرحت نظراتها نحو الأفق وتمتمت:

ـ أجل، لم أحد عن طريق الشرف أبداً، رغم آلامي وشقاء دامس!. أمس فقط مات والدي ففقدت بفقده ركناً ركيناً كنت أعتمد عليه أيام يأسي من الحياة! ولم أجد تكاليف دفنه ولم تجد علي بها أيدي أحد، بعد أن طرقت الأبواب جميعاً!

وهو حتى هذه اللحظة مسجى وسط غرفتنا الحقيرة طعماً هيناً للذباب والجرذان!..

وأنا!.. أنا سأعيش وحيدة لا معين لي وسط هذه الحياة؟ بالله عليك كيف يعيش الحمل بين الذئاب الضارية لا!، لا! لماذا أنقذتني يا سيدي فالموت راحة لي! راحة أبدية!..».

فقال موفق مواسياً وقد امتلأت عينه بالعبرات:

ـ لا داعي لكل هذا الحزن يا آنسة.. عليك أن تبني ما انهدم؛ ماذا تستحق منا الحياة.. هي لا تستحق أن يعبس الشخص فتمتد أنامل الزمن تعبث في طيات وجهه!. الحياة سلم على الشخص أن يصعده درجة درجة فإذا وقع عليه أن يعود فيصعد! الإنسان...

فقاطعته وهي تلوح بيدها:

ـ وإذا ما وقع الإنسان عن هذا السلم مرة واثنتين ماذا يعمل؟!

فأجابها وقد شعر بحرج موقفه:

ـ عليه أن يصعد للمرة الرابعة والخامسة فالشخص القوي هو الذي لا ييأس بل لا يدع اليأس يدقّ بيديه السوداوين أبواب قلبه..

ومدّ يده إلى جيب سترته المبللة وأخرج بطاقته الشخصية وخطّ عليها بضع كلمات وناولها إياها وهو يقول:

ـ غداً الجمعة وبعد غد تذهبين للمتجر الفلاني لبيع الأقمشة ستتوظفين هناك براتب شهري جيد.. فلا تنسي يوم السبت!.

ونظر إليها وهو يتحول ليذهب.. فكانت شفتاها تتحركان فلم يسمع ما قالت بل قال لها مشجعاً:

ـ هيفاء!. يوم السبت!

وقبل أن يسير لاحظ كأنها تريد أن تقول شيئاً ثم تراجعت فحاول معرفة هذا الذي كانت ستقوله ولكنه عندما فشل ذهب لسيارته وتركها على حافة الخضم..

وفي يوم السبت ذهب للمتجر وسأل مديره عما إذا أتت هيفاء فلما أجابه بالنفي، جَلَسَ على أول كرسي صادفه لتصفح جريدة صباحيه..

وبينما هو يلتهم محتوياتها بعينيه وقف عند الخبر التالي وقرأه مذهولاً:

« (وجدت جثة الفتاة (هيفاء...) على شاطئ النهر، وقد تبين بعد فحصها من قبل الطبيب الشرعي أنها ماتت جوعاً وإعياءً، وأنها بقيت في مكانها هذا لا تقوى على القيام أمداً طويلاً وقد شوهد في يدها بطاقة باسم (موفق..) والبحث جارٍ لمعرفة الحقيقة منه)».

❖ ❖ ❖

وعرف موفق الآن.. والآن فقط، أنها كانت تريد أن تطلب نقوداً منه، فأبت عليها عزتها وكبرياؤها أن تفعل أو أنها خجلت أن تطلب.. فقضت ضحية نفسها العالية.. وكبرياؤها العظيم!..

1952

شواهد.. وقبور

كتب على شاهد قبر الرسام رفائيل:

«كانت الطبيعة تخشى وهو حيّ أن يفوقها.. فلما مات خشيت من بعده أن تموت»

❖ ❖ ❖

وكتب لورد بارون على شاهد قبر كلبه:

»قرب هذه البقعة ترقد رفات من كانت صفاته جمالاً بغير غرور.. وقوة بغير صلف، وشجاعة بغير شراسة وجميع فضائل الإنسان بدون نقائصه«..

المختار

❖ ❖ ❖

وأوصى شكسبير أن يكتب على قبره..

«قف يا صاح! نشدتك الله.

ألا تزيح عني التراب.

بارك الله في رجل يصون هذه الحجارة

ولعنة الله على من يزحزح رفاتي!».

الجندي

(5)

حبٌ ووفاءً

(الغد بعيد!.. والماضي أليم... فكيف تعيش؟!)

«لويزا» فتاة في العقد الثاني من عمرها، ورغم صغر سنها فهي تكـنّ في نفـسها الجريحـة ذكريات مرّة! وآلام حقه.. فهي مذ كانت في العاشرة قضى أبواهـا في مـرض عـضال اجتـاح القرية.. وتركاها في يد القدر.. والقدر قاس!.

وكانت لويزا على صغر سنها، تتمتع بذكاء وقّاد، وشعور مرهفٍ حساس فلـم تـشأ أن تعيش حياة العبيد الأرقّاء، وشقت عصا الطاعة على أبويها الجديدين«عمدة القرية وحرمـه»، وخرجت عن دائرة نفوذهما! حتى إذا ما بلغت السابعة عشر كان أبواها الجديدان قد ضاقا بها ذرعاً، وملاّ فلسفتها الواقعية في شرح أحقيتها في هذه الحياة، وشعرت هي بذلك ولهذا لم تجزع أو تتأثر عندما أتاها العجوز وهو يقول متصنعاً الحب والوقار:

ـ« لاشك أنك تعلمين يا لويزا.. أن الحياة تتطلب منا، نحن أبناؤها مجهوداً جباراً لنـشق فيها طريقنا، وكما تعلمين أيضاً فأنا قد أصبحت...»

ولم تدعه لويزا يتم كلامه بل قالت وهي تنهض بهدوء:

ـ«سأخرج يا عماه من بيتك وأقسم لك غير حانثة إنني لن أعـود، وأعـرف كيـف أشـق لنفسي طريقاً في جبال هذه الحياة، كما لا أستطيع أن أعبر عن عميق شكري، فأنـا مدينـة لـك بكل شيء».

وفي الحقيقة لم يكن عند لويزا للتعبير عن هـذا الـشكر إلا تلـك الـدموع الـصافية التـي سالت من مقلتيها متدحرجة على صفحة وجهها البض!.

وهكذا خرجت لويزا من بيت والدها الثاني خالية الوفاض، واحتكت بصخرة الأيام الصلبة وواجهتها بعزمها الصادق وإرادتها القوية..

كم باتت الليالي تتضور جوعاً على أسطح المنازل وفي منعرجات الأزقة.. وكم حاولت أن تمد يدها الصفراء المرتعشة إلى المارة تستجديهم الحسنة ولكنها كانت تعود، بل قل يعود إليها كبرياؤها الكليم وعزتها المجروحة، فتأبى عليها الانحطاط إلى درك هذه الحياة في مثل هذه السرعة.

وأخيراً.. وكأنما رقّ القدر للمسكينة ففتح لها أصغر أبوابه لتنفذ منه إلى الحياة الصاخبة، ولتمسك وربما لأول مرة بقطع النقود الفضية اللامعة في حرصٍ واعتناء! فقد استطاعت أن تعمل كمساعدة ممرضة في مستشفى حكومي في العاصمة، وأمنت قبل كل شيء بيتها وطعامها!

ولكن قلبها.. قلبها ذلك الصرح العتيد الذي أغلقت أبوابه قسوة القدر وجبروته! أيبقى مغلقاً إلى الأبد؟.. كلا! إن مفاتيحه اللامعة بابتسامة ذلك الطالب الجامعي الشاب وهو يسير في أنحاء المستشفى للدروس التطبيقية!

ولقد لاحظها«جورج» وهو اسم الشاب وهي تتمايل في ثوبها الأبيض الناصع، كملاك هبط من الجوزاء.. فأعجبته بساطتها وقوة شخصيتها وفتنتها في أوج سحرها.. فاحتال أن يكلمها حتى تم له ذلك.. وفي الواقع، لم تكن هي أقل منه سروراً بهذه المكالمة التافهة!.

وكثر تقابلهما بمحض الصدفة وفي كل مرة لا تستطيع أن تصارحه بمحتويات فؤادها!

وأخيراً، وقبل سفره إلى أوربا لإتمام علومه وقف يودعها متأثراً.. وغلبت عليها عواطفها، فضربت بملحوظات المستشفى عرض الحائط وصاحت وهي تخفي وجهها الدامع بيديها الصغيرتين:

ـ إني أحبك يا جورج، أحبك! اغفر لي جرأتي!

وتأثر جورج من حديثها وعقلت الدهشة لسانه.. حتى إذا ما استجمع أطراف شجاعته اندفع يقول:

ـ وأنا أحبك يا لويزا لقد كنت مصمماً أن أتزوجك عند عودتي، صدقيني!

وبهتت هي.. فصاحت وهي تشرق دمعة صافية انحدرت من مقلتها:

ـ اقسم لي يا جورج أنك ستفعل ذلك.. اقسم لي فسأصدقك..

ـ أقسم لك يا لويزا بالصليب والمسيح والعذراء وكل شيء، ولم تحتمل المسكينة أكثر من ذلك.. فسقطت متهالكة على صدر جورج العريض.. وانتهز هذا الفرصة فطبع على جبينها الناصع قبلة صادقة أودعها كل ما في قلبه المتيّم من حب عميق وعواطف فياضة... ولم يرفع رأسه إلاَّ على صوت رئيسة الممرضات:

ـ حسناً! حسناً! لم أكن أحسبك يا جورج هكذا.. ولا أنت يا لويزا! ألم تقرأ نصوص الشروط في المستشفى.. أما أنت يا جورج فهيا أسرع إلى الطائرة فهي بانتظارك وأنت يا لويزا المتظاهرة بالبراءة اسبقيني للمستشفى فسأتبعك لتصفية الحساب!

وكانت تعلم لويزا أن الحساب هو طردها.. وتدري أيضاً أنها ستعود وتصبح عما قريب، بنت الشارع وفتاة الأزقة!

وكرت الأيام بطيئة متثاقلة على لويزا في انتظار جورج! مضت سنتان ولويزا تعيش، ولا تسل كيف، تعيش لتحيي في قلبها الآمال المبعثرة بعودة جورج!

ولكن إلى متى هذا.؟ ألا يلين القدر مرة أخرى؟ أم أنه فتح لها ثغرة لتنفذ إلى حياة الشقاء والتعاسة؟.. صحيح، لقد كانت المراسلة بينهما قائمة، ولكن لا صحة للقول (المراسلة نصف المشاهدة) بل كانت كلماته الرنانة تحيي حبها الدفين وأشواقها المستعرة!

وأبت الأيام إلا أن تسد تلك الثغرة التي ينفذ منها ما يحيي آمال لويزا، فقد انقطعت المراسلات فجأة.. بل قل لم تعد تجد بين يديها قرشاً واحداً أجرة البريد بعدما أنفقت كل ما ادخرته من نقود.. كما انقطعت رسائل جورج لها.. فقد حسب (لانقطاع تحاريرها) أنها تركته لطول غيابه!.

واندثر الخيط الضعيف الذي يصلها بالحياة!... فقد حسبت التعيسة لفتيات أوربا الجميلات حساباً.. أيتركهم جورج، وينظر إليها، هي تلك الناحلة الفقيرة البائسة؟

كلا!.. كان أحرى بها أن تودع حياتها من زمن.. فلِمَ تعيش هي؟ ألمشاهدة بقية المأساة، في حلقاتها الرهيبة؟.

فهي تحيا للغد، والغد بعيد! وتتذكر الماضي.. والماضي أليم! كانت هي نفسها، تعجب من خطواتها المتزنة الجريئة وهي تتقدم نحو الموت، أليس فيها راحتها الأبدية؟ ونظرت إلى مياه الخضم العميقة الغور تتراقص على أشعة القمر، كأنها (زفة) لعروس جديدة تزف إلى أعماقه الرهيبة!

وفتحت لويزا ذراعيها لاستقبال المياه العذبة لنفسها، وهمت أن تلقي بجسدها الرقيق إلى الخضم الجبار، عندما جالت في أنحاء رأسها المكدود فكرة جديدة! فلقد عاشت في الحياة تعيسة منبوذة، فما أدراها أن تحيا نفس حياتها الأولى في الآخرة؟ كلا! ففي حوزتها الآن بضعة دريهمات جادت عليها بها يد محسنٍ فقير، فلم تكن لتسد رمقها.. فلماذا لا تقدمها لفقير من فقراء هذه المدينة، علها تكون حجراً في تدعيم صرح سعادته، وتكون من جهة ثانية قد أحسنت قبل نهايتها الأليمة!

واتجهت بخطوات سريعة نحو أحد الأزقة التي تعرفها جيداً، وتعرف فيها فتاة لها قصتها وآلامها.. وهنا! هنا فقط تدخّل القدر ومهد طريقاً آخر للفتاة ما كادت تسير به قليلاً حتى صاحت وهي تقع مغمى عليها على صدرٍ عريض:

ـ جورج.. جورج.. لقد عدت أخيراً..

وكانت مفاجأة لجورج الذي تلقاها وهو يصيح:

ـ لويزا..

لقد عاد من أوربا في آخر دقيقة من حياة لويزا.. ليشقا سوية وفي سعادة غامرة البقية الباقية من حياتهما متكاتفين زوجين سعيدين موفقين!

لقد أبت رحمة القدر! إلا أن تدس نفسها في حياة لويزا وتظهر لها العطف بعد أن أظهرت لها الجفاء أمداً طويلاً!

1952

(6)

الشيطانة العجوز!

قرعت باب الزوجية.. لكنها لم تره ينفتح!

كنا نجتمع أمسية كل يوم في بيت أحدنا.. نفرق أشتات الوقت بأحاديث عميقة، وضحكات جوفاء يشترك فيها الجميع، حتى إذا انتصف الليل عدنا لبيوتنا آسفين مرددين..«ما أقصر الليل».

وفي يوم الجمعة، وكان الاجتماع في بيتنا، أراد جدي المسن أن يشترك في الحديث، فاتفقت وإياه أنه إذا تكلم ورأيت أن حديثه عقيم لا يلذ منه، قمت بحركة ما فيتنبه ويعود لموضوع جديد..

وجلس جدي وقدماه عند الموقد ونحن نشكل حوله نصف دائرة، ننتظر شفتيه المتشققتين تنفرجا عن حديث، أو قصة، أو فكاهة أو أي شيء!، فقط يحرك شفتيه! ثم مدّ جدي يديه الخشنتين كأنهما قطع من خشب عتيق، وأركز رسغه المتهدل على حافة الموقد وثنى ركبته تحته وتنحنح... ثم انفرجت شفتاه فكان صوته الخفيض ينبعث من فم الماضي يردد الذكريات!

قال:

ـ كنت شاباً في حوالي العشرين، أحسب أن جسمي الصلب يستطيع أن يقوم مقام إحدى هذه التلال المبعثرة حول القرية، وانظر إلى رسغي فأحسب أنني سأوقف فيه ركب الدهر فلا أدع يد الشيخوخة البيضاء تعبث في مفرقي! عندما فاتحتني زوجة أبي بوجوب الزواج.. وبقيت في إقناعي بين مدٍ وجزر حتى اقتنعت، ووعدتني وعداً قاطعاً أنها ستذهب وستخطب لي بنت«أبو سليمان» شيخ القرية وسيدها الأول!

وكان أبو سليمان هذا، شيخاً وقوراً له سلطان وهيبة، تزين وجهه الممتلئ لحية فضية ناصعة هي مجهود أيام وثمرة سنين! وكانت نظراته النفاذة تكفي لأن يسيطر بها على أي موقف، وابتسامته العريضة كفيلة بحل أكبر مشكلة..

ووافق أبو سليمان، بعد أن قام بالتحريات اللازمة، وأتت زوجة أبي وهي تسحب أذيال ملاءتها السوداء الطويلة وقالت وهي تلهث:

ـ لقد وافق.. لقد وافق.. ثم أردفت شبه هامسة: لقد خطبت لك الصغرى الباقية.. خديجة!.

وسهرت ليلتئذٍ حتى منتصف الليل، وزوجة أبي في وصف خديجة.. فلباسها المزركش البديع، ضفائر شعرها الحالك، عيناها الكبيرتان السوداوان، خطواتها المتزنة.. أنفها الأحمر الدقيق، قوامها الممشوق.. ابتسامتها الخلابة.. أسنانها اللؤلؤية، يداها العاجيتان.. ساقاها...»

وهنا شق الفضاء صوت عطاسي، وتنبه جدي أنه قد عاد بخياله إلى الشباب وشط كثيراً! فأردف وهو يثني ركبته الثانية تحته ويتخلل لحيته بأصابعه الطويلة الصلبة: «والخلاصة!: إنني اشتقت لرؤيتها.. والأذن تعشق قبل العين أحياناً»! وكان محرماً علينا في عصرنا أن يرى الخطيب خطيبته قبل يوم الزواج، وليس كهذا العصر الماجن، يمل الخطيب خطيبته قبل أن يأتي يوم الزواج، فينتشر الفساد، فساد أخلاق بين الشباب مما يسبب.....!»

وارتفع مرة أخرى صوت عطاسي، وانتبه جدي فنظر إلي نظرة شذر لقطعي عليه أفكاره الفلسفية العتيقة ولكنه عاد مرة أخرى يدير دفة الحديث:

ـ «وكنت أقف على حافة الطريق أنتظر مرورها، ولكنها كانت وأمها، تلك الشيطانة العجوز تعلمان، ولا أدري كيف، بوجودي فيغيرا طريقهما وأبقى أبذر بذور الانتظار في أرض الشارع عبثاً لا تنبت!

وكنت كل يوم، أرسم خطة لرؤية الحبيب المجهول، وكانت كل خطة أرسمها تفشل كأن القدر يقف في وجهي لا يريدني أن أغير خططه! وكان في قلبي تصميم هو أني لن أتزوج إلاَّ بعد أن أرى خديجة، وأمتحن ذكاءها وقابليتها للحياة معي.. ولكنني لم أستطع!

وعينوا ـ أبواها وزوجة أبي المرحوم ـ يوم الزواج دون علمي، وأنبأتني زوجة أبي والبشر يكاد ينسكب عن صفحة وجهها أن الزواج بعد ثلاثة أيام! فلم يسعني إلا أن أصارحها بأنني لا يمكن ولا تفكر أن أتزوج قبل أن أرى العروس، فلا تطمع!.

ودست العجوز أنفها المحطم بين صوفها الذي تعمل به ومضت تفكر في خطة صائبة تحقق مطمعي، حتى إذا كان صباح اليوم التالي، نهضت وقد عقدت العزم على خطة اعتقدت أنها صائبة وأطلعتني عليها فوافقت وبدأنا نخرجها سوية إلى حيّز الوجود!

كان ملخص الخطة أن أذهب وإياها إلى دار عمي أبو سليمان وهم يعلمون أنني في المدينة أبتاع بعض الحاجات الخاصة بالعرس! وبما أن أبا سليمان بعمله وزوجته الشيطان العجوز لا تبرح سريرها، ولا يوجد في البيت أحد، اللهم إلا خديجة فإنها من المؤكد ستفتح الباب عندما تسمع صوت زوجة أبي فأكون أنا قد رأيتها، فأولي هارباً قبل أن يراني أو يسمع بالنبأ «أبو سليمان»!

ولبست من «قنابيزي» أحسنها وتبعت زوجة أبي وهي تسير كأنها تتدحرج، وقلبي يدق دقات الطبول، حتى وصلنا للبيت وقطعنا حديقته الواسعة وصعدنا السبع درجات وقلبي يدقّ دقاً عالياً متواصلاً، حتى خلته سيطل من فمي لأن صدري لم يعد يسعه! وطرقت زوجة عمي الباب بثبات ومن ثم انطلق صوتها الدقيق تعلن به عن حضورها!

وانفتح الباب، وخيل إلي أن صدري قد شقّ ومن ثمَّ أطل رأس صغير!

كان رأس الشيطانة العجوز!..

وفي لمحة خاطفة كانت خطتنا كلها قد فهمتها امرأة عمي «أبو سليمان» فأشارت لي بيدها أن أدخل، فدخلت وقدماي لا تقويان على حملي، حتى إذا رأيت أقرب كرسي حتى ارتميت عليه متهالكاً، وتواتر أنفاسي المطرد مع ضربات قلبي الجزع شغلاني عن ملاحظة «أبو سليمان» بطوله وعرضه يقف أمامي كالطود الشامخ يرميني بشرر أنظاره!

ورفعت ناظري الكليلين ببطء حتى إذا ما رأيت أبو سليمان بنظراته النفاذة عدت أخفض بصري إلى الأرض، وقد تندى جبيني بحبيبات صغيرة من عرقٍ بارد! وارتفع صوت أبو سليمان يدوي في أنحاء الغرفة الفارغة:

ـ لقد أسأت صب الفكرة يا أحمد! لقد نسيت أن اليوم الجمعة وأنا أبقى فيه بالبيت لا أبرحه!.. ثم أردف بصوتٍ خفيض:

ـ مسكين!..

واعتذرت، ثم اعتذرت، وتزاحمت كلمات اللا مؤاخذة على شفتي تتدافع تدافعاً.. وبينت للعم الوقور، أن طيش الشباب هو الذي دفعني لأعمل ما عملت، ولابدّ للإنسان أن يخطئ.. و.. و.. حتى عذرني وذهبت لبيتنا ألعن الشيطان شر لعنة..

وأتى يوم الزواج!.. شيء واحد تغير، واحد فقط هو أنه لم يقام الاحتفال بالزواج لأن خديجة ماتت!.. أجل ماتت!».

ورفع جدي عينيه عن الموقد لنرى فيهما دمعتين حارتين ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة مريرة وقال:

ـ«لقد رأيتها قبل أن تموت بثلاث ساعات.. وماتت وعيني ترمقانها في ألمٍ صامت.. لقد سمح لي أبوها أن أراها لأنها مريضة.. وكانت رغم صفرتها كملاك هبط على قلبي من السماء واحتله فأصبحت حياتي بين أنامله فلما ماتت.. ماتت معها عواطفي وعشت بغير قلب!.. ومن العجيب جداً.. أن أخواتها الثلاث الأكبر منها قد توفاهن الله قبل موعد زواجهن بأسبوع وأقلّ.. حتى ظننا أن خديجة قد نجت من أنامل الموت وأظافره البشعة.. فكان أن لحقها وهي تدقّ باب الزوجية.. وانتزعها قبل أن يفتح لها الباب أو حتى أن تودع أبويها العجوزين».

وسكت الجميع احتراماً لعواطف العجوز... ولا أدري إن سمعت حقاً بعض زملائي ينشج، ودقت الساعة اثنا عشرة دقة فنهضنا آسفين مرددين..«ما أقصر الليل»!..

1952

(7)

حنان يترعرع

شر البلية... ما يضحك!

ـ إنها مصابة بالحمى الصفراء! ألا تسمع! الحمى الصفراء، الصفراء!

فأجابه أخوه الأصغر وهو ينظر إليه ببلاهة:

ـ وما معنى الحمى الصفراء.. أيعني هذا أنها ستموت.. لا! لا! سوف لن تموت!

وتقابلت أنظارهما، ثم انفجرا سوية في بكاءٍ مرير...

❖ ❖ ❖

أحدهما«كامل» وهو الأصغر، عمره لا يتجاوز السادسة، شعره الأغبر الغزير يتدلى على وجهه فيزيده قذارة، أما أخيه سعيد، فله من العمر سبع سنوات وأكثر قليلاً، كان أحسن حظاً من أخيه كامل فهو قد شاهد أبيه قبل أن يموت وتمتعت شفتاه بلفظة«بابا»، وتذوق عطفه وحنانه.. عكس كامل الذي مات أبوه قبل أن يراه أو أن تتمتع ذبذبات طبلة أذنه بصوت الحنان ينبعث من بين شفتيه!

وكانا يقفان على باب غرفة أمهما المريضة وصوت الطبيب يدوي في الداخل...

ـ اسمعي.. لا أستطيع أن أتمم العلاج قبل أن تدفعي لي بقية حسابي، أريد نقودا لإتمام علاجك.. ستموتين إن لم تستعملي الدواء الذي سأصفه لك..

وتناهى إلى سمعهما صوت أمهما ضعيفاً متقطعاً:

ـ لا أستطيع أن أدفع.. لا يوجد معي نقود! اتركني أموت.. اتركني!..

وألصق كامل أذنه الصغيرة على خشب الباب ليسمع جيداً، بينما أدار سعيد وجهه للناحية المعاكسة كي لا يرى أخوه دموعه المنهمرة فيبكي هو الآخر..

ـ سأموت جوعاً إن شفيت.. سيموت أطفالي.. اقتلهم واقتلني.. اقتلهم...

وسمعا صوت خطوات الطبيب يتجه للباب ثم سمعاه يتمتم:

ـ لقد ابتدأت تهذي!.. مسكينة..

وأسرع الطفلان بالابتعاد عن الباب قبل أن يلاحظهما الطيب.. حتى إذا خرج الأخير مسرعاً.. ركض سعيد وراءه متعثراً وأوقفه قبل أن يصل الباب الخارجي وقال له وهو يبكي:

ـ عد يا سيدي في الغد لترى أمي.. سوف تعود! أليس كذلك؟!

ـ كلا يا سعيد سوف لن أعود!..

وبحركة لا شعورية تمسك سعيد بأذيال الطبيب وقال مندفعاً وهو ينشج:

ـ أرجوك يا سيدي.. لئلا تموت.. نحن نحبها.. سأعطيك نقود.. سأعطيك..

ـ حسناً.. سآتي فإن لم أجد النقود سأذهب..

وتركه سعيد وانفتل ليعود ولكنه اصطدم بأخيه كامل الذي كان يسترق السمع:

ـ يا لعين!.. ألم أقل ألاّ تتداخل في شئوني؟

فأجابه كامل وهو يغض ببصره:

ـ ولكنها أمي كما هي أمك.. أليس كذلك؟..

وتابع وهو ينظر إليه باهتمام:

ـ قل لي.. كيف ستعطيه النقود؟!

وعقد سعيد يديه النحيلتين خلف ظهره، وطأطأ رأسه وسار الهوينا تماماً كأي رجلِ أعمال، ثم قال باندفاع:

ـ كامل.. اقطع ورقة من دفترك وأعطينها مع قلمك!

ـ كلا.. سيضربني الأستاذ إن فعلت.. اقطع ورقة من دفترك أنت!

ـ سوف لن يضربك الأستاذ!.. لأننا سوف لن نذهب للمدرسة بعد الآن!

وأسرع كامل جذلاً إلى دفتره العتيق الممزق ومزق من صحفاته المهشمة قطعة ناولها لأخيه وهو يقول:

ـ لقد أضعت قلمي.. استعمل قلمك!

ـ يا كسلان.. سوف تبقى بغير قلم.. إلى أن يعطيك أحد زملائك قطعة من قلمه!.

ومدّ يده إلى جيبه وأخرج قطعة صغيرة من بقايا قلمٍ قديم وابتدأ يكتب بخطه الملتويّ حتى إذا انتهى طوى الورقة وناولها لأخيه كامل وقال له:

ـ أسرع للطريق وأعطيها لأول مار يصادفك ثم عد إلي بها سيعطيك.. لا تشتري شيئاً!..

واندفع أخيه كالسهم المارق إلى الطريق حافياً مكشوف الرأس بينما تجول سعيد بغرفة أمه المريضة يلبي طلباتها:

ـ أحضر لي كأس الشاي.. وقل لأخيك كامل أن يشعل الوابور! وارتفع صوت كامل يدوي:

ـ يا كامل.. أشعل الوابور..

وانطلق هو ليحضر كأس الشاي.. وليشعل ـ في الوقت نفسه ـ الوابور.. كان لا يريد أن تعرف أمه أنه أرسل أخاه ليسأل المارة حسنة لئلا تكسر خيزرانتها الطويلة على ظهره!

وقابل كامل في طريقه رجلا وقورا يضع على قمة أنفه الدقيقة نظارة قديمة، ويحمل تحت إبطه محفظة، فناوله كامل الورقة.. ووقف ينظر بتحدي. وقال الرجل الوقور:

ـ أوه، أين تجلس أمك الآن.؟

ـ إنها في البيت، إنها مريضة جداً سمعتهم يقولون مصابة بالحمى الحمراء.. لا أدري ما هذا!

ـ أوصلني لبيتكم فأنا طبيب..

فقال كامل وهو يعترض طريقه:

ـ لا يا سيدي.. لا يوجد معنا نقود، سأجمع نقود وأعطيها لطبيبنا وليس لك!

ـ قلت أوصلني لبيتكم.

وسار كامل أمام الطبيب مطأطئ الرأس، حتى إذا وصل إلى البيت قال لأخيه سعيد وهو يبكي:

ـ لم يعطني شيئاً، لقد أتى معي قسراً.

وتمتم سعيد وهو ينظر للطبيب:

ـ لا يوجد معنا نقود يا سيدي.. انتظر حتى نجمع لك!

ـ لا أريد نقود.. سأضعها بالمستشفى

وقفز كامل عن الأرض ووقف كالأرنب الفرح أمام الطبيب وصاح بصوته الدقيق:

ـ يعني هذا أنها سوف لن تموت؟..

ـ نعم.. سوف لن تموت، سوف تعيش وتربيك وتعلمك كيف تغسل وجهك!.

وقف سعيد يدافع عن أخيه

ـ إنه يغسل صباحاً.. ولكنه يبكي كثيراً فيتسخ وجهه!.

ـ يبكي..؟ ولماذا

فأجاب سعيد وهو يطأطئ رأسه:

ـ إما جوعاً.. أو على أمه المريضة..

ـ حسناً حسناً.. لا يجب أن تبكي سننقلها للمستشفى

وأوصلت الأم للمستشفى وبقي الطفلان بالبيت..

وقال كامل وهو يدسّ نفسه بالفراش..

ـ سنأكل الحيطان والأبواب غداً..

ـ نم ولا تتكلم كثيراً..

واندسا سوية تحت الغطاء، يبكيان بصمت.

ومضى الاثنان صبيحة اليوم التالي يحملان بين يديهما، كيسان كبيران ويضمان بين جدران رأسيهما الصغيران خطة محكمة..

ودخلا المستشفى تخالهما كيسين فقط يسيران لوحدهما.. وقابلا أمهما وكان بينهما عناق طويل.. انتهزه سعيد وقال لها هامساً وهو يناولها الكيسين الكبيرين:

ـ لا تفتحيهما.. إن فيهما ورق ورمل.. وأحضرناهما فقط لنري المرضى والأطباء أن هناك من ينتبهوا لك ويرعوكِ!

وانتهزت الأم فرصة همس كامل في أذن سعيد وأخفت وجهها تجفف دموعها:

ـ ألا ترى؟ إن السرير الذي بقربها فارغ، فليتنا ننام فيه إنهم هنا يأكلون شيئاً آخر غير الخبز اليابس والعدس الأسود!

ـ هسّ.. لا تفكر أفكاراً سخيفة!

ثم التفت لأمه يجيبها على سؤالها:

ـ كيف نمتم الليلة في البيت؟

ـ لقد تركنا جميع الأنوار شاعلة حتى الصباح!

ـ حسناً.. وماذا تعشيتم؟..

واندفع كامل يعرب عن شعوره بألمٍ وسخط وتهكم:

ـ خروف بالرز واللحم والصنوبر والجوز واللوز و.....

لم يتم كلامه بل سرح بخياله إلى هذا الطعام اللذيذ الذي يتمنى أن يراه ولو بالأحلام.. وأردف سعيد:

ـ لقد تعشينا الخبز المعتاد!.. كان لذيذاً!

وودعوا أمهما وخرجا يسيران كأنهما كتلتان صغيرتان تتدحرجان.. وفي نزولهما عن السلم شاهد كامل رجلاً يحمل بين ذراعيه كيساً مملوءاً بالحلويات.. كان ولا شك سيقدمه لأحد المرضى.. وتمتم كامل:

ـ لعنة الله عليه.. ليته يصاب بالحمّى الصفراء فنأكل حلوياته!

ثم أردف: ليته يقع فتتبعثر الحلويات على الأرض.. ثمّ...

ومصمص شفتيه تلمظاً كأنه يأكل حقاً قطعا من هذه الحلوى اللذيذة! وخطرت على باله فكرة سريعة مضى ينفذها! انطلق يركض بسرعة حتى إذا اقترب من الرجل صاحب

الحلوى اختطف إحداها من الكيس دون أن يراه أحدا وانطلق يركض مكملاً طريقه إلى سرير أمه ليعطيها إياها!..

كان يريدها له.. فلما وقعت بين يديه.. بخل بها على نفسه وآثر بها أمه المريضة عنه هو!.

واندفع كامل كالصاروخ على الدرج ليعطي قطعة الحلوى لأمه، ولكنه لم يصل للأعلى إلاّ لينام في السرير الذي تمنى أن ينام فيه قبل هنيهة.. فقد وقع عن السلمّ، وشج رأسه!..

وعاد سعيد لعند أمه مرة أخرى وشاهد أخيه كامل ينام في السرير لوحده.. نظيف الوجه بادي السعادة بعد أن أدّى ما عليه من الصياح ألماً.. واحتجاجاً لأنهم أناموه لوحده عند الأطفال حتى خضعوا له وأناموه قرب أمه!

ـ بالله! كيف سأنام الليلة وحدي في البيت.. بل ماذا سأتعشى قبل أن أنام، وكيف سأستطيع أن أفارق أخي وأمي هذه المدة الطويلة.؟ إن هذا لفظيع، ليتني مثل أخي!

كل هذا كان يتضارب في رأسه الصغير، حتى كوّن مشروعاً بدأ بتنفيذه فوراً!.

اندفع نحو الحائط الحجري.. وضرب فيه رأسه الصغير فشجّ من وسطه.. ونام قرب أخيه يضحكان في ألم..



ومضى شهر..

وخرج ثلاثتهم سوية من المستشفى.. بعد أن شفيوا جميعاً.. ليشقوا لنفسهم.. وبنفس نشاطهم القديم.. طريقاً آخر في جبال الحياة الوعرة!..

وكامل الآن شابٌ في العشرين وأخوه سعيد في الحادية والعشرين.. أما أمهما فقد غيبها التراب مذ زمنٍ بعيد وتركتهم يشقوا لوحدهم طريقهم في الحياة بعد أن زودت كل منهما بمعولٍ لا يصدأ ولا ينبو.. فلقد زودتهما بالأمل.. وعلمتهما كيف لا ييأسان، مهما اعترض طريقهما من صعاب..

وكامل يدرس الطب.. ويأمل أن يفتح عيادة كبيرة في منتصف البلـدة في المـستقبل، وأن يداوي فيها الفقراء مجاناً!..

أما سعيد فقد ترك مدرسته بعد أن أنهى الدراسة الثانوية.. وهو الآن موظـف حكـومي براتبٍ لا بأس به.. يصرف منه على نفسه وأخيـه القـسم الأكـبر، ويـدخّر البـاقي للمـستقبل المجهول.



لقد جمعني وكامل مجلس أنس.. ومضى يقص لي فيـه قـصته الأليمـة.. ودموعـه تنهمـر مدراراً!.. وأوردتها هنا.. على ذمة الراوي!..

1952

(8)

المدية المسمومة

عندما بدأ يعتقد أنه أصبح رجلاً!

كان أن:

ـ«لو لم يكن لأبي سعيد» غير كرشه لكفاه فخراً!

وانفجر الجميع يقهقهون ويضحكون ثم سكتوا يترقبون نكتة جديدة!

كانوا جماعة لابد من اجتماعها يومياً في هذا المقهى البسيط يتبادلون فيما بينهم نكات لاذعة كان أكثرهم لها هدفاً«أبو سعيد» صاحب الكرش الكبير!

وأبو سعيد هذا، يخفي غير ما يظهر، فوجهه المحتقن لا يمكن أن تراه إلاَّ مبتسماً تنفرج شفتاه الكبيرتان عن أسنان كأنها خناجر مسنونة، وترتفع وجنتاه الممتلئتان حتى تحجبان نصف عينيه، ويتهدل حاجباه الكثيفان فتظهر عيناه كأنهما سراج محتضر في النزع الأخير! وفي الواقع كانت عيشة أبي سعيد في بيته عيشة قاتمة ومؤلمة، فزوجتاه دوماً في قتالٍ مستمر، وأولاده العشرة في شجارٍ دائم، حتى إذا وصل أبو سعيد من عمله ليستريح في عقر داره منهوك القوى محطم الأوصال، أسرعت إليه زوجتاه تبثانه شكواهما، وتحلفانه«بشواربه» من منهما المظلوم والظالم، كل هذا في صياح يصم الآذان لا تسكتان إلاَّ لتلتقطا أنفاسهما ثم تتابعا صياحهما سوية!..

وكان أبو سعيد يبقى في مكانه لا يتحرك وعلى شفتيه الضخمتين ابتسامة بلهاء، حتى إذا كلّ المتقاتلون: الزوجتان، والأولاد... ووقفوا في صفٍ واحد وصدورهم تعلو وتهبط للمجهود الذي بذلوه ينحني أبو سعيد ليخلع حذاءه المزدوج وهو يقول:

ـ أعيدوا، أعيدوا لم أفهم..

ويخيم السكون هنيهة تتفجر بعده الضرتان والأولاد العشرة في صياح... ويتحول المعسكران المتخاصمان إلى معسكر واحد يصب جام غضبه على أبي سعيد المسكين. ولربما

أصابته ضربة من حذاء أو لطمة من يدٍ جريئة، فيتحرك أبو سعيد من مكانه التقليدي ببطء ويهم بالقيام، ولكن الأولاد والزوجتين قد فرّوا، واختبئوا في غرفهم كالفئران في الأوكار!.

هذا ملخص حياة أبو سعيد اليومية، نفس الأسطوانة تعاد كل يوم.. ونفس اللحن يدقه له زوجتاه وأولاده فترقص نفسه على جمر الغضب.. لا يستطيع أن يفعل شيئاً!.

وابتلع الزمن من العالم سنوات عدة ووقف ينتظر، كان ينتظر بنفس القلق الذي كان ينتظر فيه أفراد الجماعة«أبو سعيد»!

وطال انتظارهم ولكن أبا سعيد لم يأتِ، حتى ولم يطلّ كرشه المنتفخ من زاوية الشارع كما كان يطل كل ليلة!

وفي اليوم الثاني وكان أفراد الجماعة يجلسون في مكانهم المعتاد والصمت الكئيب يخيم على المكان، عندما...

عندما أطل كرش أبو سعيد!.

شيء واحد كان قد تغير!.. واحد فقط.. هو أن ابتسامة أبي سعيد التقليدية لم تكن مرتسمة على شفتيه بل كان حاجباه الكثان.. عقدات وعقدات!.

وقال أحدهم مندفعاً:

ـ ما بك يا أبا سعيد.. هل خسرت تجارتك؟

ـ لا، لا، لا أبداً فقط لقد طلقت إحدى زوجتي وهي الآن في بيت أبيها مع أربعة من أولادها.. ثم أردف بسرور.. لقد تركت لي واحداً..«حسن».

وصاح أحدهم من نهاية الحلقة!

ـ وهل كنت ترضعه طيلة يوم الأمس يا أبو سعيد..؟

وانفجر الجميع يضحكون.. بما فيهم«أبو سعيد»!

وعاد أبو سعيد لبيته في منتصف الليل وكان البيت هادئاً ساكناً على غير عادته فالجميع نيام.. والأسطوانة الخالدة قد تحطمت على عتبة المحكمة الشرعية، ولكنه عندما اقترب من ابنه

من زوجته الطالقة«حسن» شاهد على وجهه المتغضن المصفر جروح دامية.. هي الآثار الباقية من معركة حامية!

وجنّ جنون أبي سعيد.. ومضى كالثور الهائج الحبيس.. فهو لاشك يحب ابنه حسن حباً جنونياً.. لا يستطيع أن يفارقه طويلاً، وإن فارقه لا يجلس دون أن يذكر اسمه.. ويثني عليه كان يحبه أكثر من أبنائه جميعاً حتى وأكثر من زوجتيه!

وانتظر أبو سعيد حتى الصباح! حتى إذا أفاق الجميع مضى يسألهم وهو يصيح، عمن ضرب حسن وسبب له هذه الجروح الدامية في وجهه الجميل؟ وسكت الجميع! وسكت حسن بعد أن حدجته زوجة أبيه بنظرة فيها ألف معنى!



لنترك الآن أبا سعيد.. ولنأتي إلى حسن! فهو في حوالي الثانية عشر، جميل لولا هزاله وخفيف الظل لولا عبوسه، له في كل يوم من زوجة أبيه عصا صلبة لا تتركها من يدها إلاَّ بعد أن تتكسر على جنبه وتستحيل إلى قطع!..

كانت لا تحبه ولا تستطيع أن تراه، لأن أبا سعيد يحبه ولا يحب أولادها بتاتاً!

وحسن لا يستطيع أن يتكلم لأبيه عما تعمله زوجته معه أو عن حياته التعسة فهو يخاف، ويخاف كثيراً!..

كان الاضطهاد الذي يلاقيه حسن في حياته قد فتح في نفسه الكسيرة شعوراً بأن ليس كل من في هذا العالم يحيا حياته الأليمة! فلِمَ يعيش هو كذلك؟، أكان هو إنساناً غير هؤلاء الذين يراهم في السوق والشارع!؟

وتجرأ في أحد الأيام.. فبعد أن ضربته زوجة أبيه مضى إلى أحد أبنائها وضربه ضرباً مبرحاً، ولم يتركه إلاَّ مغمى عليه!. وابتدأ بهذه الحادثة يكوّن شخصيته في البيت، ويبني عليها اعتقاده الراسخ بوجوده وأحقيته بأن يعيش!.. ويعيش كرجل!.

واحتبست عواطف زوجة الأب الناقمة في صدرها! فهي لا تستطيع أن تضربه،«لحسن» لئلاّ يضرب أحد أبنائها، إلى أن كان في ليلة من ليالي الصيف حين دسّ أبـو سـعيد مفتاحـه في قفل الباب وولج منه ودخل لغرفته وعلى بابها وقف مذهولاً!

كان في منتصف الغرفة، وكمركز لدائرة كبيرة من الدم الأحمر القاتم«حـسن» يـستلقي عـلى ظهره وفي صدره بل وفي قلبه بالذات غاصت مدية طويلة، لم يظهر منها إلاَّ مقبضها العاجي!.

ولم يدرِ أبو سعيد كم وقف واجماً في مكانه ولكنه على أي حال لم يـصح إلاَّ عـلى صـوت زوجته«خالة حسن»:

ـ لقد قتل نفسه! كان شقياً، لقد أراحني من عذابي المطرد!

وأحسّ أبو سعيد أن جمجمته تكاد تنفجر ومرجل غضبه يكاد ينسكب! بينما استطردت هي بصوت كفحيح الأفعى:

ـ لا تهتم يا أبا سعيد، هيا ادفنه في الحديقة فأولادي الخمسة ينوبون منابه!.. و..

وقاطعها«أبو سعيد» وهو يقول ودموعه تنحدر على وجنتيه:

ـ أتحسبين أني غبيّ لهذا الحد.. أتحسبين أني لا أعرف أنك أنـت قتلتيـه.. أتحـسبين أني لا أعرف مديتك المسمومة هذه.. سنرى! فالأيام طويلة والانتقام قريب، والله يمهل ولا يهمل!

اقترب من التليفون ليخابر الشرطة، ولكنه أحجم.. فأولاده الأطفال الخمسة سيعيشون محرومين من حنان الأم، ولا يستطيع وهو أبوهم، وهم فلذات كبـده وقطـع منـه أن يـتركهم يتامى لا معين لهم ولا راشد!. كان يود أن يقتلها ويقتلهم ولكن ترفع عن أن يكـون مجرمـاً.. ويقتل بيده!

كل ما فعله أن لبّى نداء ضميره! وهاجر بعيداً، بعيداً يبكي ابنه الذي وهبه قلبه واعتـبره الشطر الآخر من حياته هو ويتناسى آلامه وآماله بجرعات من خمر.. كانت تغني حياته رويداً رويداً وتبخرها قطرة قطرة!

كان يعيش بعيداً عن الأصدقاء وعن الأقارب.. لا يؤانسه في وحدته القاتلة إلاَّ تلك المدية المسمومة التي انتزعها من صدر ابنه المغدور.. والتي كانت تبعث في نفسه الجريحة ذكريات وذكريات!.. وطالما حاول أن ينهي وبالمدية نفسها حياته، ولكنه كان يعود فيؤكد لنفسه أنه أشجع مما تظن، وأن كل ما في العالم من آلام ومآسي.. إن أثرت عليه فهي لن تكون بدرجة تدفعه معها للتخلص من حياته على أبشع صورة، وأجبن وجه!..

وعمّر أبو سعيد في وحدته هذه قليلاً.. ثم مات تاركاً وصيته التي يوصي بها أن يدفن إلى جانب ابنه حسن وفي قبرٍ واحد، وأن توضع بينهما المدية المسمومة بحيث تلتصق بالجسمين مباشرة!..

شيء واحد أثار دهشة الجميع.. هو أنه باليوم نفسه الذي قضى فيه أبو سعيد.. كانت زوجته القاتلة قد قتلها أحد إخوان حسن من أبويه.. وبمدية مسمومة أيضاً.. ذات مقبضٍ عاجي بديع!..

1952

(9)

السارق (1)

ظنوا أن في جيبه ثلاثين ألف جنيه وفي الواقع كان في جيبه: مأساة

ـ إنها رائعة!

ـ إنها تحفة!

واكتفى أحدهم بمصمصة شفتيه والنظر إليها بصمت! وطواها صاحبها في صندوقها الذهبي الأحمر، ودسها في جيبه مزهواً.. يختال كالديك الرومي!

إنها جوهرة نادرة كبيرة زهراء، تملأ الأكف والعين على السواء، ينعكس عليها ضوء الفانوس فتتكسر أشعته على مضلعاتها الكثيرة وتستحيل إلى ألوان قوس قزح مرصوفة في نظام بديع! انتهز صاحبها وهو قائد في فرق المشاة هذه المأدبة الفخمة التي أقامها في بيته ودعا إليها بعض أصدقائه ونفر من أفراد فرقته، فأراهم إياها مزهواً جذلاً..

وكانت الخمر قد ملأت رؤوسهم فانطلقت من حناجرهم المرتوية قهقهات عالية مجلجلة هزّت غرفتهم الواسعة هزاً..

وصاح أحدهم من طرف المنضدة:

ـ من أين لك هذه الجوهرة يا مروان؟

فاجاب القائد بخيلاء:

ـ لقد ورثتها عن أبي الذي ورثها عن جدي وكان هذا الأخير قد وهبته إياها إحدى الأميرات مكافأة له على أعماله التي قام بها في سبيل وطنه!.

ـ كم تطلب لها ثمناً؟

1- اخترت الفكرة عن الفرنسية.. وسكبتها في قالبٍ آخر.

ـ لا أود بيعها، إن قيمتها الأثرية عندي هي أثمن من قيمتها المادية، يكفي أنها كانت لإحدى الأميرات!

ـ هِرَاء! خذ ثمنها عشرون ألف جنيه!

ـ عشرون ألفاً! لا شك أنك مجنون أو أن الخمر قد لعبت برأسك.

ـ بثلاثين ألفاً!

ـ هذه الجوهرة الأثرية النادرة، تود شرائها بثلاثين ألفاً انظر روعتها، انظر..

وسكت القائد مروان...

فقد فتح صندوقه الذهبي الأحمر، ولم يجد به جوهرته التي يعتز بها.. بل كان الصندوق ينعي إليه بدموع حمراء.. سرقة جريئة!

ونقل القائد المسروق عينيه على وجوه ضيوفه الواجمة.. كنسر يوشك أن ينقص على فريسته الضعيفة فقد كانت عيناه كأنهما جمرتان ملتهبتان وشفتاه الرقيقتان تهتزان اهتزازاً سريعاً! ثم تكلم فكان صوته كأنه حراب مسنونة تعمل في صدور ضيوفه:

ـ من كانت الجوهرة معه، أو نسيَ فوضعها في جيبه بغمرة سكره فليرجعها للمنضدة قبل أن نقوم بالتفتيش..

ولكن أحداً لم يجب وردت الجدران الصمّ صدى كلماته!

ومضى القائد في عزم يفتش الجميع، حتى إذا ما وصل لجنديه عدنان.. أبى الأخير في عزة وكبرياء أن تمتد إليه يد القائد بحالٍ من الأحوال..

ـ هيا، اقلب جيوبك يا عدنان!

ـ لا أريد يا سيدي!

ـ ماذا؟! لا تريد! ما قولك لو فتشتك بالعنف؟

ـ لا تستطيع يا سيدي، إن لضيوفك كرامة أيضاً، ككرامتك تماماً!

وسكت القائد غيظاً، ومضى لغيره يفتشهم، وعدنان في وقفته العسكرية، هامته مرتفعة، وصدره ناهض، ويديه على جنبيه في صلابة.

وانتهى التفتيش..

ولكن القائد لم يجد جوهرته، والجميع يظنون أن عدنان هو السارق وما كان امتناعه من التفتيش إلاَّ لأن الجوهرة في جيبه!

ومضى زمن ليس بالقصير قبل أن يدعو القائد مروان جنديه عدنان وأن يقول له:

ـ لقد وجدنا الجوهرة الحمراء يا عدنان بين طيات السجادة الكبيرة! فهل أنت أسقطها من جيبك لما حرج موقفك؟

ـ كلا!

ـ إذن لماذا امتنعت عن التفتيش؟

وسكت عدنان، بينما عاد مروان يقول:

ـ أخبرني بالحقيقة ولا تخف!

فأجابه عدنان وهو يحاول جاهداً أن يمسك دموعه ولا يدعها تنحدر:

ـ تذكرت أولادي الجياع وأنا على المائدة.. وكان الطعام كثيراً فاختطفت من الصحن حفنة رز وضعتها في جيبي لأطعم منها أطفالي..

ولم يستطع أن يكمل فقد انفجر في بكاءٍ مرير!..

1952

الفهرس

الشجرة المباركة

باسقة في الأرض وفرعها في السماء، تقف شامخة تتحدى جبروت الطبيعـة، ولا يـسليها سوى حفيف وريقات جافة مثقوبة في أعلاها، راسخة، هناك، كما في قلبه على الدوام، مـشيرة بأغصانها اليابسة الجافة نحو الجنوب، لكل ذرة فيها ما يقابلها في نفسه، دوامات صـغيرة مـن الحنين تجتاح اجتياحاً قاسياً كل خلية في جسده..

وهو يتكئ عليها الآن، ويحس أنها تعطيه الذكرى التي طلبها.. فهو يذكر بسهولة ويسر وإمعان شديد كيف حمل أباه الشيخ غداة يوم قائظ إلى هنـا.. وكيـف اتكـأ أبـوه عـلى سـاقها الجاف الكبير..

وكيف نظر إليه من بـين جفنيـه الهـابطين بـبطء وثقـل.. لقـد وجـده ملقـى في الأرض المحروقة، جريحاً قرب سلاحه الفارغ.. معان كثيرة كانت تصبها عيناه الهرمتان المـشتعلتان في كل عصب من أعصابه وكل وريد في جسده:

يا بني.. يا بني.. لا تعتقد أنني أتألم.. كلا.. لو شعرت بروعة الجروح التي تمزق هذا الجـسد، لو شعرت.. إنها تشدك شداً رفيقاً إلى أعلى.. إلى الأعلى.. فلا تشعر بثقلك على الأرض..

يا بني.. لقد جرحت في سبيل وطني، أو وطنك، سيان.. والوطن يا بني ليس بيتاً ظليلاً تركناه على كتف الوادي، ولا حقـلاً وارفـاً خلفنـاه في مـرج ابـن عـامر وحـسب، إنـه هـذه الأحاسيس الصغيرة الكبيرة.. الهادئة الصاخبة التي تأكل شراييني وشرايينك، إنه هـذا الـذي لن أستطيع أن أجعلك تفهمه ما لم تحسه.. يا بني.. يا بني..

انظر هنا.. إلى هذه الخيوط الدقيقة من الدم وكيف تتجمع عند أسفل جـذع الـشجرة.. أرأيتها.. إنك لن تستطيع أن تصفها أبداً.. لا تستطيع أن تطابق بينها وبين اللفظ الجامد..

لا.. لا.. إنها ليست حمراء، لزجة، غزيرة، وحسب، إنها شيء آخـر.. شيء ثقيـل تحـسه

إحساساً جامحاً.. شيء تشعر به.. شيء يتآكل، هكذا نحسب الوطن.. يا بنـي، هكـذا نحـسه إحساساً ثقيلاً حبيباً رائعاً له لون وطعم ورائحة.. يا بني.!

ويذكر هو كيف مال رأس أبيه على جذع الشجرة.. وكيف توقف النزيف.

والشجرة. لا زالت هنا.. ماثلة بإصرار كأنها لتشهد على شيء ما.. وهو واقف إلى جانبها كأنه ابنها.. وهي.. هي كما كانت يوم خرج ومات أبوه، شامخة في عزة، مشيرة بأغصانها الجافة اليابسة إلى الجنوب..

في هذه الشجرة لا زال يعيش أبوه..

ومن دمه سقى عزتها..

وإلى الجنوب لا زال يشير..

إلى حيث رسم بدمه الخط الأول عبر الحدود.

1957/7/1

رسالة من حسن

الطريق طويل شاق، ولكنه فضل أن يمشيه على قدميه كعادته كلما أحب أن يفكر، ويفكر بصوت مسموع إن استلزم الأمر..

كان في مسيره يستشعر سعادة طاغية، فالطريق الممتد بين مخيم اليرموك، حيث يسكن، وجنوب دمشق، طريق لطيف إلى حد كبير، محفوف بالأشجار في جزء منه، ويعبق برائحة الأرض الطيبة، وهو إلى هذا أيضاً، طريق طويل. كان الطقس بارداً، ولكنه لم يكن يشعر تلك البرودة بصورة ملحة، فلقد لف عنقه«بالحطة» البيضاء المتسخة، واضعاً زاد يومه تحت إبطه، زارعاً كفيه في جيبي سترته الزرقاء الملوثة بالشحم، رافعاً كتفيه إلى منتصف رأسه، ناظراً أمامه بعينين مفتوحتين جيداً، مستشعراً تلك السعادة الطاغية المبهمة...

لقد استطاعت رأسه هذه، المغروسة بين كتفيه القويين، أن تذلل المشكلة الأولى التي قرر أن يبحثها، وهو لا زال في أول الطريق، بعد، وقد يكون هذا هو سبب تلك السعادة التي يحسها بغموض.. لقد كان أول شيء فكر فيه ليلة أمس هو جواب لهذا السؤال: من أين يمكن أن يستحصل على أجرة السيارة الكبيرة التي ستأخذه إلى الكويت؟

السيارة الطويلة اللماعة التي رآها كثيراً تدور قرب نهر بردى، ومن ثم تغيب في زحمة الضباب المسفوح على عنق دمشق الشمالي، نعم... من أين.؟

ولكنه الآن طرح هذا السؤال جانباً... فلقد وجد له جواباً مقنعاً: إنه سيذهب للكويت كي يعمل، وكثير من الناس سيكونون على استعداد مطلق لأن يعرضوا عليه بعض السلف كدفعات ترد فيما بعد.. إن الناس يحترمون أولئك الذين يكون بمقدورهم أن يجلبوا النقود من مكان ما، بطريقة مشروعة...

وأكثر من ذلك... فلقد شهد، مرة، الأمر بأم عينيه.. كان ذلك عندما قرر ابن عمه حسن أن يذهب للكويت، لقد استطاع، بأقل من لمح البصر، أن يؤمن أجرة طائرة، لا أجرة

سيارة فحسب، ولقد ذهب حسن يومها للكويت، ثم بدأت رسائله ترد محملة بالجنيهات الإسترلينية التي كانت تتحول إلى خبز وفواكه، وفساتين رشيقة لأخت حسن، زوجته القادمة، المخطوبة له من صغره بالفاتحة وبالصلاة على سيد المرسلين...

ثم ما لبث حسن أن أرسل للمخيم يطلب أمه وأخته لعنده.. وسافرتا إلى الكويت، كان هذا دليلاً جديداً على أن أحوال حسن في تحسن دائم...

لقد كتب لحسن مجموعة كبيرة من الرسائل طالباً منه أن يجد له عملاً ما في تلك البلاد، فهو يعمل ميكانيكياً متواضعاً، في كراج متواضع، ولكن هذا لا يهم مطلقاً... إنه يستطيع أن يبذل مزيداً من الجهد كي يصير أحسن منه الآن، ولقد كانت أجوبة حسن من الكويت محملة بأمل جميل.. لقد كتب له حسن في آخر رسالة منه إنه سيرسل له إجازة المرور في الرسالة القادمة، وإنه، أي حسن، سيسعى لأن يدخله في المصلحة التي يعمل فيها، فهم بحاجة لعمال أقوياء، مثله هو.

ولكنه لم يقل لأحد ما كتب له حسن، إنه من هواة الكتمان، وإنه لا شك، سيعبد تلك اللحظة التي سيقول فيها لأمه«احزمي لي متاعي.. سأسافر إلى الكويت!» لا شك أن الدهشة ستعقد لسانها، ولسان أخته، خطيبة حسن، ولسان أخيه الصغير، ولكنهم لن يلبثوا هكذا إلا دقيقة، ثم سينطلون في الثرثرة... وستنطلق أمه بالدعاء... ها! وسيأخذ معه إلى الكويت مجموعة لا بأس بها من الهدايا الصغيرة إلى حسن.. وإلى أخت حسن... هدايا الشام سيكون لها أحسن الأثر، في نفس خديجة!

وسره أكثر أن يفكر بخديجة إنه لن ينسى أبداً يوم تيسر له أن يجلس بقربها في الباص للذهاب إلى المخيم.. حتى إذا تبسط معها بالحديث والضحك، أنتهز الفرصة فقال لها أنه ينوي أن يتزوج، ثم ضحك. وأردف غامزاً بعينه:

ـ«أتزوج بنت عمي».

ورفعت خديجة وجهها إليه، وقالت بهدوء جم، كأنها مستعدة منذ زمن بعيد لكي تواجه موقفاً من هذا الطراز:

ـ قبل أن تفكر بالزواج، فكر بمعطف جديد يستر جسمك.

وأحس، يومها، كأنما سقط به مقعده في حفرة لا قاع لها، وتزاحمت مجموعة من الكلمات السوداء على شفتيه فسكت، ثم نزل في أول محطة، وذهب إلى داره ماشياً، غارقاً في أفكاره الرمادية، ولكن لا بأس، إن خديجة ما زالت صغيرة، غداً، عندما يذهب للكويت، سيحضر لها من الملابس ما تزهو به على لداتها كلهن، وسيلبس معطفاً فاخراً، ساعتها سوف لن تتردد في قبوله زوجاً، هذا أمر لا شك فيه ويومها سيبدو في المخيم ـ إذ يعود ـ إنه أحق شاب بأجمل فتاة، كل رفاقه القدامى سينظرون إليه نظرة إيمان وتسليم، أولئك الرفاق المساكين! إنهم لا يعرفون شيئاً مما يحدث، أمس، عندما مروا ببيته مساء، قالوا له أن رسالة من الكويت باسمه موجودة حيث يتلقى رسائله، عند السمان أبي سعيد في حي الميدان، ثم ساروا إلى بيوتهم دون أن يعرفوا شيئاً، إن الرسالة قد وصلت إذاً.! وفي الرسالة ما فيها، أولئك الرفاق المساكين!.. إنهم لا يعرفون أن خديجة نفسها، حتى خديجة تسكن داخل هذه الرسالة.

مضت الليلة كلها وهو يفكر بالرسالة وبالكويت، لقد وضع برنامجه لكل شيء، أمه سوف تلبس شيئاً جديداً، لا شك، حذاء أسود كالليل، إن أخته، هي الأخرى، سوف تجد السعادة أخيراً، وأخوه الصغير سوف يذهب لمدرسة كبيرة يتعلم فيها ليلاً نهاراً، يتعلم فيها كل ما لم يتعلمه هو، وسيتزوج، سيتزوج خديجة هذه التي شمخت بأنفها يوم كان غير ما هو عليه الآن، سوف تعرف أي إنسان كان في داخل ذلك الثوب الأزرق الملوث بالشحم والزيت، إن المخيم كله سيتحدث عن سعادته في زواجه منها، وسعادتها هي أيضاً وسيذكرها يوماً ما بالكلمات التي قالتها في الباص، سيقول لها أنها كانت طموحة أكثر من اللازم، صغيرة أكثر من اللازم، وسيذكرها أيضاً.

❖❖❖

ـ لك رسالة عندي يا مصطفى.

وصحا من أفكاره، وحاول أن يقول شيئاً ولكنه، لم يستطع، ومد كفاً خشناً إلى أبي سعيد السمان فاستلم الرسالة السميكة، وشد خطواته مبتعداً عن فضول أبي سعيد، متوجهاً إلى زاوية ما، ليفض المظروف بأصابع مرتعشة، وليقرأ خطوطاً معوجة مكتوبة بقلم رصاص عريض الرأس:

«إجازة مرورك مرفقة مع هذه الرسالة، إنني أنتظرك كي تبدأ عملك معي، يجب أن تأتي خلال هذا الأسبوع».

وتلاحقت أنفاسه، ودار دورة حول نفسه وهو يقلب الرسالة بأنامله المرتعشة، مستشعراً رغبة جامحة لأن يقهقه من أعماقه وبكل قواه، لكن عينيه ما لبثتا أن تجمدتا على بقية الرسالة فارتجفت شفتاه السميكتان وهو يقرأ ببحة محمومة:

ـ«زوجّنا خديجة لشاب ممتاز، أدع لبنت عمك التوفيق».

باقة ورد على ضريح الخيام

القطار اللاهث يصعد الطريق الجميل إلى «طهـران».. قـال لنـا مفـتش القطـار قبـل أن نغادر «عبدان» أن علينا أن نحرس أنفسنا، فالطريق طويل، واللصوص ينتهزون فرصة حلول الليل.. كي يمارسوا طريقتهم الخاصة في الحياة.

قررت أن لا أنام.. فثمة كتاب ملون أستطيع أن أقرأه في الليـل، كتـاب ألفـه إنـسان كـان يحس أكثر من اللازم، ويفهم أكثر من اللازم.. مقصورتي في القطار متواضعة.. حـسناء إيرانيـة تجلس في المقعد المقابل، ما زالت تفحصني كي تكتشف فيّ اللص، لم تطمئن لي بعد.. وعجوز قد يكون إباها، سقط في النوم قبل أن يخفق القطار بالرحلة الطويلـة.. وصـديقي يجلـس هادئـاً إلى جانبي يستعرض الطريق.. أحسن ما في هذا الصديق أنه لا يثرثر... وإذا فعل، فلغته عربية.

أفضل طريقة كي أحرس نفسي ومن معي، كما أوصانا المفتش السمين الذي يعرف سبع كلمات عربية فقط، أن لا أنام، لقد أبدى المفتش السمين قلقه عليّ.

أنا نحيل ذو وجه أصفر، قد لا أسـتطيع أن أسـهر، ولكننـي قلـت لـه أننـي أسـتطيع. ولم افهم نكتته الإيرانية التي ضحك لها طويلاً وهو يغمز لي مشيراً إلى الحسناء، بينما أحمر وجـه الأخيرة، وصعدت القاطرة مع والدها العجوز..

قال لي صديقي أن وجه الإيرانية لا يعجبه بتاتاً، وأنها تشبه الدكتور محمد مصدق، الذي لو كان امرأة لما كان بديعاً قط.

وهكذا اعتقد صديقي أنه إذا ما سنح الحديث مع الحسناء، فسيكون سـيد الفرصـة بـلا غريم، بعد أن اطمأن على أنه أقنعني بملاحظته، كنت في الحقيقة لا أرغـب في الكـلام.. كـان الكتاب بديعاً، طباعته أنيقة، وصوره فذة، وكلماته ليـست سـوى غطـاء بئـر سـحيق، إذا مـا تمكنت من رفعه فسوف لن تري القاع البعيد مطلقاً. كان الكتاب يحمل اسم عمر الخيام.

وقيمته بالنسبة لي، هو أنه أشير لي مرة إلى رباعية فيه بالقلم الرصاص وضعتها ليلى.. الفتاة التي أحببتها بعنف أسطوري.

الرباعية تقول:

«آه أيها الحب لو أستطيع أنا وأنت أن نتفق مع القدر..

كي ندمر هذا الطابع الوحيد البائس للعالم..

إلى قطع صغيرة صغيرة..

ثم نعيد بناءه من جديد.. كما تشتهي قلوبنا..»

فتحت على تلك الصفحة دون أن أشعر، فرائحة الطريق الطويل بدت مثيرة. كانت الدائرة المرسومة حول الرباعية بالقلم الرصاص تكاد أن تختفي.. لقد مرت سنوات ثمان على اليوم الذي رسمت فيه هذه الدائرة، ورغم ذلك، فأنا لن أنساها مطلقاً.

لا أريد أن أنام في القاطرة..

لا لأحرس نفسي، بل لأستعيد اللحظات الضبابية لما حدث قبل سبع سنوات.. لقد بدأت العتمة تهبط، وبدا لوهلة أن صوت العجلات المنتظمة، موسيقى غريبة، تدفع بهذا الرأس المرهق، إلى الماضي.

لقد اطمأنت الإيرانية الحسناء، أخيراً، إلى أنني لست لصاً، أو أنني لست لصاً خطيراً على الأقل، فاستسلمت لإغفاءة قلقة، وبقي صديقي يحدق في الطريق المعتم دون أن يكف عن التحديق في الحسن النائم أيضاً.

كانت ليلى تطلب مني ألا أنظر لها عندما تنام، كانت تعتقد أن تقاطيع وجهها تكون صادقة عندما تفقد التحكم بها، وهي لا تريد أن أعرف شعورها الحقيقي تجاهي، تخاف أن أصبح مغروراً.

لم يكن اسمها ليلى.. كنت هكذا أدعوها لأنها كانت تدعوني قيساً.

دارنا في حيفا لم تكن بعيدة عن دارها كثيراً، خلف أول منعطف على يمين دارنا، ليس عليك سوى أن تعد أربعة أبواب على اليمين أيضاً، ثم تصعد بناية بيضاء إلى الطابق الثالث، فستجد بيت ليلى لا محالة، إذا لم تكن هذه البناية قد تهدمت من القصف الإنكليزي على حيفا، فلا شك أن ليلى ما زالت تسكن هناك.

لقد خرجت من حيفا قبل أن تسقط في يد اليهود، ولم أمسك بندقية في حياتي قط، كان الشارع الطويل الذي ينصب فيه شارعنا هو ميداني الوحيد، كنت مشهوراً في ذلك الشارع بأنني أحد علاماته المميزة.. وكان شباب حينا يقولون: «إذا أردت أن ترى خيري، ففتش على أجمل فتاة في الشارع، تجده خلفها!»

قالت لي ليلى بعد أن تعرفت عليّ جيداً:

ـ«أنت شاب مائع يا خيري، ولكنك لست هكذا في حقيقتك، ولهذا أعتقد أنني سأحبك!».

كانت ليلى مناضلة، ولكنني لم أكن أعرف ذلك في أيام تعارفنا، كنت أعرف أنها تخفي علي شيئاً ما، ولكنني لم أكن أعلم أن تلك الفتاة الناعمة، كانت تقوم بعمليات نسف وتدمير يعجز عن تصورها رجل متوسط الشجاعة، ولم تقل لي ذلك مطلقاً إلا بعد الحادث المشؤوم الذي وقع.

في الحقيقة.. إنني لم أكن أعرف من هو عمر الخيام. وهي التي علمتني عنه شيئاً كثيراً، كنت أعجب بصور كتابه أكثر من إعجابي برباعياته التي كنت أعتقد أنها هذيان إنسان مصاب بنزلة صدرية حادة.

قالت لي ليلى ذات مرة: إن جيلنا نحن، عليه أن يدفع ثمن اليقظة، وإن هذا الجيل سوف يكون ضحية من أجل عالم سعيد.. وأشارت بطريقة لبقة إلى أن أبرز مظاهر أزمة الجيل، هو هذا التناقض المخيف بين شاب يلهو كأنه يتفرج على القضية، وفتاة تناضل كأنها هي القضية.

«إن العالم ليس كما نريد»، قالت لي مرة هكذا في يوم ماطر، وتابعت تقول وهي تشير لرباعية الخيام بقلم رصاص عتيق: «ليت باستطاعتنا أن نهيكل العالم كما نريد.. وكما أراد عمر الخيام، لكننا صنعنا عالماً جديداً بلا شك، عالماً جميلاً ليس فيه تناقض!»

الحب العنيف، الذي كانت تسميه دوامه تغوص في مستنقع، هذا الحب العنيف لم يستطع أن ينسيها القضية.. بل كانت تتعذب في سبيل أن تفهمني أن حياتنا ليست شيئاً، وأنها تبلغ ذروة قيمتها لو قُدمت من أجل سعادة آلاف غيرنا..

عندما فهمت أول رباعية من رباعيات الخيام، قلت لليلى إن هذا الرجل إنسان انهزامي.. كنت سعيداً بهذا الاكتشاف، وقلت في ذات نفسي يومها إن ليلى ستكون فخورة بي، ولكنها لم تقم بما يدل على أنها فخورة. قالت لي وهي تشير إلى الكتاب:

ـ الإنسان الذي يحس أكثر من اللازم.. خير من الإنسان الذي لا يحس بالمرة.

هذا الإنسان الذي لا يحس بالمرة، استطعت أن أفهم مؤخراً أنه أنا، ولم أغضب يوم اكتشف ذلك، كانت قصتي مع ليلى قد انتهت يومذاك!

لكن ليلى تغيرت فيما بعد.. إذ أنه في الوقت الذي كان يناضل فيه بعض الشباب، مثل ليلى، ويتفرج «بعض» آخر، مثلي أنا.. كان هنالك بعض أخير يقوم بدور الخائن.

وبواسطة هذا البعض الأخير من الناس، قبض اليهود على ليلى، وهي تحاول نسف مركز لعصابة «شترن» الإرهابية، وعادت بعد تسعة أيام كاملة.. ولم تستطع أن تحفظ حياتها إلا بعد مجموعة صدف لا أحد يدري كيف حدثت.

اللحظة التي قابلتها فيها بعد عودتها من «الهادار» لم تزل راسخة في ذهني.. كنت أتوقع أن أراها تبكي، أو ترتجف، إذ كنت قد سمعت من أفواه كثيرة عن الليالي الفظيعة التي أمضتها في السجن، ولكنني عندما رأيتها، كانت هادئة هدوءاً مخيفاً، كهدوء بركان تطمره أوحال من جمر غريب.

لم يعد في عينيها أي بريق، فقط وجه حزين صامت، وألم عميق مسح غمازتيها الجميلتين وتركز في طرف شفتها السفلى بتحد باسل.

قالت لي بصوت منخفض هادئ:

ـ لقد ضاجعوني طوال تسعة أيام.

لم أستطع أن أقول شيئاً.. بل لقد خيل إلي أنها قالت: «لقد كنت أصلي طوال تسعة أيام!» شعرت أن الكلمة التي يمكن أو أواسيها بها شيء حقير، لا قرار لحقارتها أبداً، وأنني رجل عشت حتى هذه اللحظة كي أكتشف فقط مقدار صغري وتفاهتي..

انتشلت ليلى الموقف بكلمة أخرى:

ـ يحسن بك أن تتركني، أنا امرأة مهترئة.!

كان القطار قد وصل إلى محطة تعين ثلث الطريق، وبدأ يئز أزيزاً مزعجاً كي يقف، صحت الإيرانية الحسناء وبدأت تتزين من جديد.. مازال العجوز نائماً، وصديقي يحدق بالطريق.. لقد مرت من أمامي أشجار صغيرة لم يُعن بها جيداً.. ثم بدا رصيف المحطة مضاءاً بأنوار باهتة ينسحب أمام النافذة.

على الرصيف، لمحت طفلاً في السابعة من عمره تقريباً، كانت ملابسه ممزقة، ولكنها نظيفة، كان يعد القاطرات بإصبعه وهي تمر من أمامه ببطء، كان يعد باللغة العربية.

أشار صديقي إلى الطفل، وأصغينا سوية إلى صوته الدقيق:

ـ ستة.. سبعة.. ثمانية..

هز صديقي رأسه وقال باقتضاب:

ـ عربستان..

وتأسف قليلاً.. ثم هبط من القاطرة يبحث عن طعام.

الطفل الأسمر الجميل الطلعة، كان يبيع أشياء للتسلية ولكنه بدا أنه نسي وظيفته وهو يراقب القطار الطويل، كان يبدو منهكاً، استدعيته إلى نافذتي وسألته:

ـ ماذا تبيع؟

لسعته اللغة العربية..

فانفجرت عيناه عن سعادة صغيرة، وقال يجيب وهو يتسلق النافذة:

ـ وأنا عربي أيضاً..

ـ ماذا يشتغل والدك؟

فأجاب وهو يشير إلى غرفة في مدى البصر..

لم أكن أرغب في الاستمرار بالحديث مع الطفل، رغم أنني شعرت بأنني أحبه مخلصاً.. ولكنني تذكرت ليلى، لقد حدثتني مرة عن عربستان هذه. قالت إن هنالك صغاراً ينتظرون الخلاص.. كيف يمكن لها أن تفهم المشكلة وهي بذاك البعد، وأنا لم أستطع، حتى وأنا مغروز في عيون الطفل البائس.. أن أحس الأزمة.!

بدأ القطار يخفق من جديد.. الطعام الذي أحضره صديقي لي، أكلته الإيرانية، لم أكن أرغب في الأكل، كان الكتاب ما زال مفتوحاً على الرباعية التي يلفها خط يكاد يختفي بالقلم الرصاص..

وقرأت الرباعية من جديد، بصوت عال جعل الإيرانية تتوقف عن المضغ:

«آه أيها الحب.. لو أستطيع أنا وأنت أن نتفق مع القدر على تدمير هذا الطابع البائس الوحيد للعالم..

إلى قطع صغيرة صغيرة..

ثم نعيد بناءه من جديد كما تشتهي قلوبنا..»

لم أكن قط استحق ليلى.. كانت أحسن مني بكثير.. كنت جباناً، أخاف من الموت، ورفضت أن أحمل سلاحاً كي أدافع عن حيفا، كنت في رأس الناقورة عندما قالوا أن حيفا سقطت في يد اليهود، ولا أدري لماذا تذكرت لحظتذاك جملة قالتها لي ليلى قبل أن أغادر حيفا:

ـ إنني لا أستطيع أن أنسى التسعة أيام القاسية، ولكنني أريد أن أستمر في الدفاع عن حيفا.. أنا أعرف أنني قدمت شيئاً أكثر من حياتي، ولكنني أريد أن أقدم حياتي نفسها، ففي

هذا طمأنينة أفضل، باستطاعتك أن تغادر حيفا، أن تهرب من حيفا، ولكنك في يوم سيأتي لا بد لك من أن تصحو.. أن تنتهي هذه الدوامة، وأن تندم..

ليلى الحزينة.. البائسة.. بقيت في حيفا، ورفضت أن تخرج منها.. قالت لجيرانها عندما أتوا ليجروها معهم أنها فقدت كل شيء، ولا تريد أن تفقد ماضيها الجميل في حيفا الجميلة.. تريد أن يبقى لها شيء لا يذهب.

لقد مضى زمن طويل على اليوم الذي خرجت فيه من حيفا، وأشعر اليوم أنني لم أكن أستحق ليلى مطلقاً.. بل لم أكن استحق حيفا نفسها..

لماذا اهتمت هذه الإنسانة النبيلة بإنسان جبان مثلي؟. لماذا تلاحقني هذه الإنسانة الرائعة طوال سبع سنوات؟ لماذا تلح على رأسي كما تلح صفارة القطار قبل أن يدور حول المنعطف؟

صحا العجوز من نومه الطويل. وحدق بعينين ضيقتين كأنهما شقوق أرض جافة بأنحاء القاطرة.. وابتسم في وجهي، ثم هتف بعربية مكسرة وهو يشير إلى الكتاب الملقى على ركبتي:

ـ عمر الخيام؟

هززت برأسي.. وتركته يلتقط الكتاب ويتفرج على صوره.

كان رفاقي يتهمونني دائماً بأنني من عشاق الخيالات.. وعندما قلت لهم وأنا في الكويت إنني أريد أن أذهب لإيران كي أضع باقة ورد على قبر الخيام، ضحكوا جميعهم.. وقال أحدهم:

ـ«إنه يريد أن يعيش تجربة عنيفة يوهم نفسه فيها أنه يحب!»

شعرت بأنني إنسان لا يعيش على أرضه.. إنسان كان يجب أن يبقى طفلاً كما كانت تقول ليلى، وبدا لي في لحظة أن ماضيّ شيء مخجل في الحقيقة.. سبع سنوات اجترّ ذكرى ليلى كأنها إنسانة صنعتها فقط لأذكرها..

لم أعرف قط أنني كنت أخاف من ليلى، إن ليلى تشعرني بالصغار وهي تلاحقني كي تقول لي:

ـ يجب أن تبقى طفلاً.

فتح صديقي نافذة القاطرة، فصقع وجهي هواء بارد، وشعرت في اللحظة نفسها أنني يجب أن أعيش بجدية أكثر، وأن ليلى لا يهمها مطلقاً أن أضع باقة ورد سخيفة على قبر الخيام، كي أوهم نفسي أنني ضحية حب عنيف..

باقة ورد سخيفة.! ماذا أريد من ليلى.. ومن نفسي، عندما أضع على قبر ميت باقة ورد سخيفة؟ لماذا كنت أصر على أنني أنا الذي تغلبت على ليلى؟. لماذا كنت أعتقد أنني أنا الذي صنعت ليلى؟

أعاد العجوز كتاب عمر الخيام شاكراً، وعندما سقط الكتاب على ركبتي، انفتحت صفحاته على الرباعية المحاطة بالخط الباهت لقلم رصاص قديم.

إن ليلى لم تكن قط من صنعي، بل يبدو لي أن ليلى قابلتني فقط كي أشعر كم هو بعيد القاع الطيب في شخصيتي..

إن ليلى ما زالت تلاحقني..

وطوال السبع سنوات، كانت ليلى تجهد في أن تحررني من خيالي السقيم، من باقة الورد السخيفة التي أريد أن أحملها.. كي أضعها على ضريح الخيام..

حواريات وتمثيليات غير منشورة

صحفي وجندي

كانت أشعة الشمس المحرقة، تنصبّ بقوّة على وجهه البرونزي اللامع، وابتسامته المتفائلة تتراقص على شفتيه الورديتين، وتطل من عينيه العميقتي الغور، فتضفي على وجهه المتصبب عرقاً آية من آيات الرجولة والعزم والصلابة.

كانت أولى تجاربي كصحفي في مهمته، فاقتربت منه بخطوات بطيئة، أستعرض بعيني المدهوشتين جسمه الصلب، وبندقيته اللامعة تتلألأ تحت أشعة الشمس، وهامته المنتصبة الشامخة التي خلتها تناطح أجواز الفضاء.

وتلعثمت قليلاً قبل أن أسأله:

ـ كيف تشعر نحو حياتك العسكرية يا صاح.؟

ونظرت إلى أسارير وجهه الباسمة أنتظر الجواب، لكن سحنته بقيت على حالتها.. ولما طال سكوته، لكزته بلطف بطرف قلمي فنظر إلي وصاح بصوته الجهوري:

ـ عفواً.. ماذا.؟ لم أفقه السؤال.!

ـ حسناً. بماذا كنت تفكر في هذه اللحظة.؟

ـ كنت أفكر بالماضي الهارب.. في الآمال والآلام.

ـ يظهر أنك متعلّم.. ما هي شهادتك الأخيرة.؟

ـ هي البكالوريا.. لا تتعجب فكلنا سواء في خدمة الوطن.. الجاهل والمتعلم.

ـ كم سنة لك بالخدمة.؟

ـ الواجب لا يقاس بالوقت.

ـ حسناً.. ما هو شعورك نحو حياتك العسكرية.؟

« وهنا نظر إلي باستغراب.. وقلب شفته السفلى، ثم عاد فملك زمام نفسه، وربما عذرني لأنني لم أتذوّق الحياة العسكرية» وقال:

ـ حياة الملك في قصره..

ـ لكنني لا أرى هذه القصور.!

ـ إنها هذه البطاح الممتدة أمامك يا صاح.. إنها تربة الوطن.

ـ أوه... أين حراسكم.؟

ـ إنها بنادقنا.

ـ حسناً كيف تنظرون إلى الأعداء«الصهاينة».؟

ـ إنهم ضعاف القلوب، قليلو الهمّة..

ـ من أخبرك بذلك.؟

ـ عيناي.!

«ورأيت من الصالح أن أغير مجرى الحديث..» فقلت:

ـ إنك متطوّع على ما أظن.. ما الذي حداك لهذا العمل.؟

ـ نداء الواجب.

ـ هل لك أخوة.؟

رفع رأسه وهو يقول:

ـ هم السابقون ونحن اللاحقون.

ـ ماذا تعني.؟

ـ استشهدوا..

ـ ما هو شعورك نحو استشهادهم.؟

ـ كان حظهم حسنا

ـ أين تعيش أمك.؟

ـ في السماء..

ـ وأبوك.؟

ـ في السماء أيضاً..

ـ هيه.. ماذا يعمل هناك.؟

ـ يرفل في أثواب العز والفخر.. لقد استشهد في الثورة العربية الأولى..

ـ أتعيش وحيدا.؟

ـ كلا.. فأبناء وطني أهلي.

ـ حسناً.. كم عدد أصدقاءك.؟

ـ ثلاثة ملايين يزيدون قليلاً.

ـ هيه.. من هم.؟

ـ سكان سورية..

ورأيت أن ذكائي اختفى أمامه فحاولت طرق باب آخر فقلت:

ـ كم معركة ذات بال دخلت يا صديقي.؟

ـ واحدة.

ـ ماذا كانت نتيجتها.؟

ـ طفلان...! لقد كانت أهم معركة في حياتي هي زواجي..

......

وسحبت أذيالي هارباً من هذا الجندي، الصلب في جسمه وفي معلوماته، وفي الضحك على حملة القلم أمثالي.

وحاولت أن أجد ملتمساً عند غيره من الجنود، وكلنهم كانوا كلهم على نمط واحد، فقد قدّوا من تجارب الأيام وحكمة القدر، تصوّر أنني قابلت جندياً وكان أحد أسئلتي له:

ـ كيف تنامون هنا..؟

فأجاب وهو يخفي ضحكة كادت تنفلت من بين شفتيه:

ـ نغمض أعيننا..!

فقلت وأنا أنتفض خجلاً:

ـ لا أعني ذلك.. إنما كيف نظام النوم عندكم هنا.؟

ومن ثم أجابني:

ـ خمس ساعات، والحرس دوريات..

وعدت إلى دمشق وجيوبي مملوءة بالأحاديث، اخترت أقلها مزاحاً واقتضابا وقدمته لرئيس التحرير..

فيا ليتنا نحن المدنيون أبناء دمشق نفهم ما يترتب علينا من واجبات كما يفهمها جنودنا البواسل..

أما كيف فهموا واجباتهم..؟!

فذلك لا شك تعلّموه وفهموه في مدرسة الجندية..

حيت الرجال رجال..

أذيعت من إذاعة دمشق، برنامج الجندي في 1952/9/20

واحد من النازحين (1)

الراوية: واحدٌ من النازحين

الكورس:(موسيقى: يا هل ترى بعد الليالي)

الراوية: واحدٌ من الذين خرجوا من فلسطين... في قافلة لاهثة من البؤس والتمزق... طاوياً الأرض والسنين ليعيش نازحاً في خيامِ الطين والهم... ينتظر يوم العودة المقدس.. إلى أرض البرتقال..

(موسيقى قوية)

فتاة: اسمُ النازح:

رجل: أحمد عبد الله.

فتاة: بلدته في فلسطين.

رجل: عكا.

فتاة: يسكن الآن.

رجل: في مخيم درعا في الإقليم الشمالي.

(موسيقى قوية)

الراوية: في منتصف ليلة (**12**) أيار/ مايو عام **1948**، صحا أهالي عكا على أصوات عنيفة تأتي من جهة الشرق.. لم يكن الإنسان بحاجة لذكاء كبير كي يعرف أن هجوماً يهودياً ينحدر على عكا من التل الذي ركع عليه نابليون أمام الأسوار الجبارة... كل بيت في المدينة الباسلة كان يعد العدة كي يستقبل الغزاة بما يستحقون من النار والموت...

فلندخل إلى المدينة القديمة.. إنك تحتاج لأن تمر في طرقٍ ضيقة مبلطة مسقوفة، ولكن لا بأس عليك، فبعد قليل ستجدنا نطرق باب الدار التي يسكنها أحمد عبد الله، وستجدنا وجهاً لوجه أمام الرجل الأسمر الطويل وقد بدا من خلف كتفيه العريضين أمّه وأخته.

الأم: ألا يوجد في عكا رجال سواك يا بني؟ لماذا تغادرنا وتتركنا في خوف وجزع.. دع مهمة الدفاع عن عكا لغيرك.

الرجل: بلى... ولكنني أريد أن أسألك سؤالاً آخر.. ألا يوجد في عكا كلها عائلة سوانا؟

الأم: بلى يوجد.. يوجد كثيراً...

الرجل: إذن لماذا لا تهتمين بتلك العوائل كلها؟.. ألم تقدم كل عائلة رجلها في سبيل أن يعيش الصغار، وتعيشين أنت بمعزل عن هذا الرعب، وهذا الدمار وهذا الموت...

الأم: إنني أعرفك وأعرف عنادك. ولكنني سأطلق سهمي الأخير، انظر إلى أختك التي ليس لها سواك، إلا يحزنك أن تصبح وحيدة؟.. ألا تردعك دموعها التي ترى؟ أليس في صدرك...

الرجل: ويحزنني أكثر يا والدتي أن أراها غير فخورة بأخيها، أن تصمت عندما تسأل ماذا قدمت للنصر.

الأم: ألا تطيعني مرة واحدة؟

الرجل: يا والدتي.. إن الطاعة ليست مقياس التربية الوحيد..

الأم: اسمعني مرة أخيرة..

الرجل: أي والدتي، أنك تأخذين وقتي.. بل وقت العائلات الكثيرة التي تعرفينها في عكا والتي لا تعرفينها، فلماذا لا توفرين عنك العناء؟

الراوية: نعم.. لماذا لا توفر عناءها. إن أحداً لا يستطيع أن يقف في وجهه، لقد قرر أن يذهب إلى حيث تلتحم النار بالنار كي يقدم شيئاً للنصر المرتقب، ولن يكفَّ عن اندفاعه أبداً في سبيل أن يحفظ للصغار حياة وادعة لا خوف فيها ولا هزيمة...

وفي الشارع يمارس احمد النضال الحقيقي الرهيب.. أما في البيت...

الأم: يا ليلى، إنني خائفة.. ويخيل إلي أن أحمد لن يرجع. قولي لي ماذا أفعل؟ إنني حائرة..

ليلى: لا حاجة للحيرة قط يا والدتي، كل أم في كل بيت في عكا تقف الموقف الذي تقفين.

الأم: إنني خائفة يا ليلى... خائفة أن يموت تحت قصف النار المرعبة.

ليلى: وأنا خائفة أيضاً، ولكنني خائفة أكثر من أن يعود مهزوماً، سوف لا تعرفين فيه أحمد الذي كنت تعرفينه... سوف يغدو إنساناً آخر يختلف تماماً.!

الراوية: الهزيمة... إنها شيء مرعب، ولكن الرجال هناك، لم يفكروا بها قط.. لقد قاتلوا كما لو أنهم يقيمون عرساً، وتقدموا خطوات ثقيلة ضاغطين على العدو. ودافعينه إلى التل الذي انحدر منه، ولكن هل يكفي أن يتراجع اليهود من عكا كي تنتهي القضية؟

ليلى: لقد سقطت حيفا في يد الأشرار، ويخيل إلي أن الكرمل يبكي بطولة أبنائه دماً كالنار وبالأمس سقطت صفد، وقبل أمس سقطت يافا.. يخيل إلي يا أحمد أن مؤامرة تحاك كي يبتلعوا فلسطين كلها..

الرجل: إنني أخاف مما يحاك في الخفاء، ولكنني سأبقى شاداً كفّي على بندقيتي إلى أن تنتهي آخر رصاصة فيها، وساعتها لن أتحرك من مكاني حتى أفقد حياتي، أليس من العار أن يمروا من فوقنا ونحن إحياء؟..

ليلى: إنني أخشى أن نكون ضحية مؤامرة، مؤامرة كبيرة قذرة تنهي فلسطين... مؤامرة...

الراوية: نعم.. لقد كانت مؤامرة.. اشترك فيها الخونة.. وكنت أنت يا ليلى وكلنا ضحايا لتلك المؤامرة المجنونة، ولم تنفع دموعك كي تشفي جراح أحمد وهو محمول في قافلة طويلة لاهثة، تصعّد الطريق إلى لبنان.. إن دموعك يا ليلى لا تصلح شيئاً، لقد كانت مؤامرة، والدم الذي ترينه ينزف من جراحه، هو، أخوك الذي ينام الآن على صدرك، ليس إلا ثمن تلك المؤامرة.. فامسحي دمه، ووفريه في شرايينه كي يرجع به خلف مدفعه إلى أرض البرتقال.

ليلى (باكية): أين سننام الآن.؟ إننا غرباء، أنا لا أعرف أحداً في صيدا، كيف سنمضي الليل يا إلهي؟ إن أحمد جريح ولو كان سليماً لوجد لنا مكاناً ملائماً، يا إلهي أعنّي أتوسل إليك...

الراوية: ستنامين على الرصيف كما نام كل الذين أخرجوا من ديارهم يطوفون الأرض بحثاً عن سلوى، ستجوعين.. ولكن هيهات أن يموت الحنين إلى بيتك.. ضمي جراح أخيك إلى صدرك، واضغطي دمه عسى أن يعود إلى شرايينه. إن معركة كبرى تنتظره...

(موسيقى)

أحمد: لقد مرت سنوات طويلة، وها نحن من جديد نشهد شروق الشمس، أما من نهاية لهذا التشرّد يا أمّاه؟

الأم: تسع سنوات كأنها تسع قرون.. إنني أخاف أن أموت قبل أن أشم أرضي من جديد.. لقد ماتت أختك ليلى قبل ثلاث سنوات، وقال الأطباء إن المرض قتلها، ولكنني أعرف أكثر منهم، لقد قتلها الشوق إلى أرضها، كنت أراها يا بني جالسة

هنا في ظل الخيمة تنظر إلى الشمس وتبكي، وكانت تسألني عنك فأقول أنك تسعى في الأرض طلباً للرزق، ولكنها لم تكن تصدق. كانت تعتقد أنك عدت إلى عكا كي تسقي أشجار الحديقة، وكي تشرف على الدجاجات وتضع الحليب حتى تشرب القطة..

أحمد: أبقيت تذكرني إلى آخر لحظة؟

الأم: كانت تعتقد أنك عدت إلى عكا. وإنك ما زلت ترعى شؤون البيت هناك، ولكنها كانت تتوقع أن ترجع بين الفينة والأخرى كي تعود بنا إلى هناك...

أحمد: إني أخاف أن لا نعود يا أمي...

الراوية: (موسيقى)

بل ستعود أنت والآلاف الذين يعيشون في خيام الطين ينتظرون يوم الثأر المقدس، إن الشهداء كلّهم يريدونك أن تعود، وسينتظرونك هناك، أصغِ.. ألا تسمع في الأفق نداء الشهداء يدعوك أن تعود.؟ هل تميّز أصواتهم.؟ أصغِ إذن.. استمع.. إن للشهداء أصواتاً كما للأحياء، فاسمعها من الأفق البعيد..

ليلى: (بصوت عميق له صدى)

لقد متنا قبل أن نراكم تعودون إلى بيوتكم، فاحملونا معكم إلى هناك، كي نجد الطمأنينة في ظلال البرتقال الطيب.. سترجع يا أحمد.. وسيرجع الآلاف الذين يسكنون الخيام، سنرجع جميعنا يا أحمد.. سنرجع.. سنرجع.. سنرجع..

(فيروز: سنرجع يوما)

(المقطع الأخير)

1958/8/9

واحد من النازحين (2)

عجوز: تريدني أن أحدثك يا سيدي عن خروجي من فلسطين، لا بأس... سأحدثك ولكن كل إنسان يعرف القصة إجلس هنا.. لو أتيت إلى يافا لكنت استقبلتك بشكل حسن، ولكن لا بأس سنعود لها يوماً ما، وسأستقبلك هناك، ماذا تريد مني.؟ هل تريدني أن أحدثك عن خروجي من فلسطين.؟ أنت تعرف فلسطين لا شك تريد أن تعرف من أنا، حسناً جداً اسمي عبد الستار أحمد البكري، كنت أسكن في يافا هل تعرف يافا؟ كان عندي هناك ولد وبنت كنت أسكن في حي المنشية إنه حي جميل.

بل إن يافا كلها جميلة ماذا أذكر لك فيها؟ البحر الهادئ العظيم أم الشوارع المزدحمة أم الهواء النقي.؟ ولكن لماذا الكلام الكثير، لقد ضاعت يافا، ضاعت فلسطين كلها ولا أدري كيف ستكون يافا يوم نعود لها، ربما تكون أجمل من ذي قبل أو أننا سنبنيها أحسن مما كانت، أليس كذلك يا بني؟

أنت تريدني أن أحكي لك حكاية خروجي من يافا إذاً.. آه لو تستطيع أن تحكي لي كيف سنرجع إلى فلسطين، فذلك أفضل، ولكن لا بأس... لقد بدأت القصة في الصباح، سمعت ضجة في مكان ما فنهضت من فراشي، وعلى باب الغرفة رأيت ابنتي زينب.!

زينب: وافقت دول العالم على التقسيم..

العجوز: أي تقسيم؟

زينب: تقسيم فلسطين...

العجوز: هذا ليس حقيقياً.. أنت تعرفين أنهم لا يمكن أن يكونوا جهلاء إلى هذا الحد، هذه بلادنا فلا يمكن أن يعطوها لليهود..

زينب: لقد أعطوها..

العجوز: إذن سنقاتل.. أنت وأنا وأحمد.. أنت تعرفين أننا سنقاتل، فماذا يهم أن يعطوها لليهود أم لا يعطوها..

زينب: ستكون معركة طويلة يا أبي..

العجوز: إن من يخوض معركة لا يخاف من نهايتها..

زينب: يا والدي..

أحمد: لا حاجة لكلام سخيف أكثر،.. سوف نقاتل.. إن القضية لا تحتاج إلى مناقشة..

العجوز: هل تعرف يا سيدي.. لقد كان كلام أحمد على صواب، أنت تعرف كيف يتحمس الشباب للمعارك، هكذا خرج أحمد من البيت يبحث عن وسيلة يقاتل فيها، أنا لا أفهم الكلام المنمق كثيراً.. ولكنني أعرف أن الأرض التي تسلب يجب أن تعود.. هذا شيء بسيط وبديهي فلماذا نناقشه؟...

(موسيقى)

أحمد: إنها أرضي، فكيف تريدينني أن أكف عن الدفاع عنها، أفي وسعك أنت أن تقضي كل يوم تحت علم أزرق يهودي قذر؟ إننا نقاتل كي نحول دون هذا المصير.. فكيف تريديننا أن نكف؟

زينب: يا أحمد... لقد باع أبوك أدوات عمله كي يشتري بندقية..

أحمد: هذا أفضل من أن يبيع كرامته.

زينب: إن أباك سهر الليل يحرس في الحي... يجب أن يستريح..

أحمد: يجب أن يتعب كي يستريح جيداً..

زينب: ولكنه رجل عجوز..

أحمد: يا زينب.. يا زينب.. إنه يقاتل من أجل قضيته، من أجل أرضه التي زرعها

بعرقه وبحبه، والأرض التي حماها بزنديه وعينيه، فهل ستقفين بينه وبين أن يحمي أرضه تلك.؟

العجوز: يا سيدي.. أنت تعلم ماذا تعني الأرض، كان لي قطعة أرض صغيرة.. وكنت أيضاً أصنع شيئاً من الحلوى، بعتها كلها كي أشتري بندقية.. لا تقل لي أنني أحب القتال، كلا.. إلا أنني لا أحب أن أموت رخيصاً، أو أن أعيش ذليلاً. إن الأرض أرضنا، فالدفاع عنها واجب، واجب محتّم.. لهذا حملت البندقية، ووقفت في زاويتي في الشارع..

(موسيقى)

العجوز: إنني رجل عجوز.. أنت ترى ذلك، ولكنني كنت قوياً يوم حدثت تلك الحوادث، ولكن الحوادث التالية حطمت قوتي، فلماذا تطلب مني أن أحكيها لك.؟ إنني لا أستطيع.. إنني أريد أن أعود فقط دون أن أذكر الهزيمة التي مضت، أفهمت ما أقصد.؟ لماذا لا تتركني.. يا زينب.. يا زينب أكملي القصة للسيد.. أكمليها...

زينب: إنني لا أذكر بالتفصيل، ولكن اليوم الأخير أذكره تماماً.. لقد بدأ اليهود هجوماً قذراً بمدافع المورتر، واستمر قصف يافا ثلاثة أيام كاملة، كانت البيوت تتساقط على رؤوس الناس العزل، ولكن أحمد رفض أن يغادر زاويته في الشارع وعبثاً حاولت أن أرد والدي إلى الدار، وكنت أسمع أصواتهم عبر الطريق...

(الكلام منذ الآن مرفقاً بأصوات طلقات نارية)

أحمد: يجب ألا يمروا ولو أصبحت يافا أكواماً من الطين...

العجوز: إنني سأبقى في زاويتي إلى الأبد.

أحمد: لا تهتم بهم يا والدي...

العجوز: لو أبرز أحدهم رأسه من الحجر.. لو أبرز.؟ ولكنهم جبناء يقذفون النساء بالقنابل كي يخاف الرجال، يا للحقارة.. ولكن النساء عندنا لا تخاف، أليس كذلك يا أحمد.. أليس كذلك.؟

أحمد: نعم يا والدي نساؤنا لا يخفن، كل واحدة خلف مدفعها وراء النافذة تنتظر أن يعبر الكلاب الطريق...

زينب: لقد كنا كذلك حتماً، ولكن ماذا تنفع الأسلحة العتيقة.؟ لقد أراد والدي أن يوصلني إلى المراكب كي أغادر يافا، ولكنهم حملوه معهم، وقالوا أنه رجل عجوز يجب أن يغادر الساحة.

وهكذا غادرنا يافا أنا ووالدي تاركين أحمد في شوارع النار، ماذا حدث له.؟ لا ندري. ولكننا نعرف أنه قام بواجبه كاملاً، وأنهم لم يستطيعوا عبور الشارع قبل أن يموت. لقد حدثونا عنه وكيف وجدوه ممزقاً فوق بندقية فارغة، ولكنني لا أصدق أنه مات.! إنه حيّ، إنني أسمع صوته بوضوح شديد عبر الأفق.. أسمعه بكل وضوح، قل عني مجنونة، قل عني ما تشاء، ولكنني أسمع صوته في الليل يخاطبني عبر السحب...

صوت أحمد (بصدى): أنا لم أمت يا زينب، إن الشهداء لا يموتون.. إنهم يضيئون الطريق للنازحين كي يعودوا إلى بلادهم. أنا لم أمت يا زينب، أنا ما زلت في يافا حاملاً مدفعي أنتظر عودتهم، أنا ما زلت في فلسطين كلها لعنة سوداء على الغاصبين.. أنا لم أمت يا زينب.. أنا في انتظاركم أن تعودوا.. وأن يعود كل النازحين.

(الله أكبر: المقطع الأخير)

بطلة من بلادي

صورة إذاعية

(صوت باب زنزانة يفتح ببطء)

المحقق: أنت نادية السلطي؟

نادية: نعم.

المحقق: أحمل معي أمراً خاصاً من الملك بإعدامك.. إن واجبي أن أبلغك هذا الأمر.. أنا آسف إذ.....

نادية: لا تتعب نفسك يا سيدي المحقق.

المحقق: لماذا تبدين عدم اهتمامك؟

نادية (ساخرة): لأنه خبر قديم، عرفته منذ زمن طويل.

المحقق (باضطراب): ولكنه صدر اليوم، إنه أمر جديد..

نادية: لقد سبق أن أصدر الملك أمراً بإعدام الشعب كله، هل نسيت ذلك؟ وهذا الأمر الجديد لا يعدو ضرباً ثقيلاً من التكرار الذي لا داعي له، اذهب وقل للملك إن مشنقتي لن تحل له المشكلة، إنه غارق في الدم، لعنة على رأسه هذا الدم.. لعنة سوداء..

❖❖❖

الراوية: ولدت نادية السلطي في القدس عام 1938.. وتدرجت في طفولة جميلة إلى أن أخرجت مع أهلها من فلسطين..

كان خروج نادية ونزوحها المسمار الأول في حياتها، لقد استيقظت على واقع مترنح، اليهود يطردونها، والاستعمار البغيض يلاحق أهلها، والخونة يتآمرون على بلادها، والملوك الصغار يتحكمون في مصائر الأبطال.

فتاة ذكية.. في صدرها تضطرب أحاسيس بطولية، إنها ترفض أن تعيش على هامش المعركة ولابد أن تخوض غمارها.. لقد كانت هادئة، ولكنه هدوء بركان يوشك أن يمزق الفضاء.

وفي الجامعة في بيروت، كانت نادية السلطي تمارس حياة رائعة.. يوم حاولوا دفع لبنـان لمشروع «أيزنهاور» كانت تقف في حشد من الزملاء تصرخ:

نادية (بصوت عال): هذه بلادنا نحن، نملؤها كما نريد، ونلقي عنها مـن نريـد، ولا نـرضى مطلقاً أن يتحكم فيها أمريكي مجنون يتهمنا بالفراغ، إن حياتنا لنا وعلينا أن نملأها كما نرغب..

فماذا ننتظر هنا.! لماذا لا نقول هذا الكلام لكل إنسان؟

الراوية: عبثاً كان كل السعي الذي بـذل لإيقـاف انـدفاعها، كانـت تريـد أن تنـزل إلى الشارع كي يفهم المائعون أن نساء بلادها يعيشون القضية ذاتها.. لا في هامشها..

نادية: يجب أن تنتهي صورة المرأة الشرقية في أذهانكم أيها الرجـال، إن المـرأة في بـلادي تفهم دورها تماماً، ويجب أن تتركوا لها فرصتها.. يجب أن تفسحوا أمامها مجالاً لكي تقدم شيئاً في ساحة البذل.

الراوية: يشهد الله والناس يا نادية أنك لم تتمنعي قـط عـن تقـديم كـل مـا في وسـعك، وقمت بـأكثر ممـا في طاقتـك.. هـل تـذكرين الخطـوات الطويلـة في الليـل الثقيـل تـوزعين المنشورات في الشوارع الداكنة؟ هل تذكرين الطرق الموحشة عبر الحدود المزيفة وأنت تقومين بنقل الأخبار والحقائق؟ هل تذكرين المظاهرات الدامية.؟ هل تـذكرين الجـراح التـي لم تعـنِ بالنسبة لك سوى مزيداً من الشرف؟ هل تذكرين...؟

❖❖❖

الراوية: وتمضي الأيام، وتزداد الجذوة اشتعالاً في صدر البطلة.. وفي عام **1957** تتعرف نادية بالشاب «الفلسطيني» اسطفان، وتتم خطوبتها..

جذوتان من اللهب ترتبطان نهائياً بجيل الفداء، بالثوريين الذين فهموا الحياة على أنها عطاء..

إن الحرية التي نبحث عنها ما زالت بحاجة إلى ضحايا، إن نادية السلطي كانت تعتقـد، وما زالت، أنها ضحية لمطلب نبيل.

❖❖❖

المحقق: اسمعي يا نادية.. أنا المحقق وسأقف معك موقفاً جديداً، لماذا لا تكتبين للملك استرحاماً كي يخفف عنك حكم الإعدام.؟

نادية: إن ملكاً يحكم بموت الشعب لا يهمه أن تموت امرأة.

المحقق: ولكنه قد يعفو عنك.

نادية: لا أريد أن أسلك هذا الدرب الرخيص.

المحقق: لقد قال خطيبك الشاب إنك لم تقومي بشيء فلماذا لا توافقين على كلامه؟

نادية: لا أريد أن أموت وأنا أحمل خطيئة الكذب.

المحقق: اسمعي يا نادية.. يجب أن لا تموتي، قولي أنك لم تفعلي شيئاً وأنا أضمن لك النجاة.. أنكري الاتهام، أنكري الجريمة..

نادية (بغضب): إنه شرف وليس جريمة.

المحقق: اسمعي يا نادية.. إن عنادك لا يجدي شيئاً، قولي لي ماذا تريدين وأنا على استعداد لتنفيذ أي مطلب.

نادية: أتفعل حقاً.؟

المحقق: إنني لا أعرف، ولكنني أعتقد أنني سأحاول.

نادية: أريد منك أن تحضر لي صليبي الصغير؛ إنه يهبني شيئاً من السلوى...

المحقق: وماذا أيضاً.؟

نادية: صورة لعبد الناصر..

المحقق (بقلق): لا.. لا لا أستطيع أن أحضر لك صورة لعبد الناصر.. لا أستطيع.

نادية: هذا شيء مؤسف فعلاً، ولكن لا تتألم.. لا بأس.

المحقق: أتواسينني، أنت التي ستعدمين بعد أيام..!

نادية: ليس المخيف أن نعدم، المخيف أن تستيقظ ضمائرنا.

المحقق: أرجوك يا نادية لماذا لا تتنصلين وتدعي لخطيبك أمر تحمل التهمة.؟

نادية: أنت رجل صغير يا سيدي المحقق.. رجل صغير. أنت تعرف كم أنا فخورة بخطيبي، وكم أنا فخورة بطريقته في العمل، وأنت لا تعرف أيضاً ماذا تعني المشنقة بالنسبة لنا.

❖ ❖ ❖

الراوية: قليلاً من الخجل أيها المحقق.. قليلاً من الخجل. ألا تشعر بالصغار أمام هذه العملاقة؟

أي حبل في بلادي كلها يجرؤ أن يلتف حول عنقها.؟ أي عود يستطيع أن يحمل جسدها دون أن يتهاوى.؟ أي أرض تستطيع أن تضمها دون أن تتفتت.؟ أي إنسان يستطيع أن يضع عينيه في عينيها دون أن يذوب خجلاً من نفسه.؟

❖ ❖ ❖

اسطفان: يا نادية.. قولي لهم أنني أنا الذي فعلت.

نادية: لماذا أيها العزيز.. هل ينتهي النضال إذا انتهيت أنا.؟ إنني مقتنعة أنني قمت بواجبي، فلماذا لا تحاولون أنتم أن تقتنعوا.؟

اسطفان: إنني أريد أن أنقذك يا نادية.

نادية: وأنا أريد أن تتابع الطريق الذي بدأنا.

اسطفان: يا نادية..

نادية: أنا فخورة بك أيها العزيز. لقد علمتني أشياء كبيرة، سأكون فخورة بك أكثر لو تركتني أواجه المصير الذي قبلته لنفسي.

اسطفان: اسمعي يا نادية.. كنت أعرف أنك لن تقبلي خطتنا، ولكنني أريد أن أقول لك أننا نحن الأربعة على ما يرام، إن أحكام الإعدام لا تخيفنا، أليس كذلك يا نادية؟

نادية: نعم يا عزيزي.. نعم.

اسطفان: إنك لا تخافين من الموت.. هل تخافين.؟

نادية: أنا لا أخاف إلا من حياة ذليلة.

اسطفان: لو لم يقبضوا علينا لتزوجنا في نهاية هذا الشهر.

نادية: كنت أعد العدة لهذا الزواج يا اسطفان.. أنت تعلم كم هو جميل الثوب الأبيض الذي صنعته لليلة الزفاف، كان ثوباً جميلاً.. لم يكن يعجبك ذيله الطويل، ولكنني لم أكن أعلق على انتقاداتك. إنك لم تستطع قط أن تفهم فساتين النساء، لقد قمت بشراء حاجيات أخرى جميلة، كنت أريد أن أفاجئك بها، ولقد وضعت أيضاً برنامجاً لحفلة الزفاف، كان رأيي أن تكون حفلة بسيطة، ندعو لها الأصدقاء. يا للأقدار!. ثلاثة من الأصدقاء الذين قررت أن أدعوهم ينامون معك الآن في الزنزانة.

اسطفان: لدي إحساس يا نادية أننا سنتزوج كما وضعت برنامجك، إلا أنني قلق عليك، لقد عذبوك كثيراً يا نادية، كثيراً.. يا للبطولة، أكنت تتألمين يا نادية.؟

نادية: كثيراً يا عزيزي كثيراً، كانت ضرباتهم وحشية، لقد كنت تقول عني إنني رقيقة، إذن أنت تعلم كم كنت أتألم، ولكنني كنت أجد شيئاً من الشماتة في خيبتهم، لم يستطيعوا أن يأخذوا مني كلمة.

اسطفان: إنك قديسة يا نادية. قديسة..

❖ ❖ ❖

الراوية: المحكمة المزيفة شيء وضيع بلا شك، القضاة يجلسون في المنصة كأنهم يمثلون مسرحية مجها الناس، والنائب العام يقف كشريك الشيطان، متعطشاً للدم.. وفي قفص الاتهام يقف خمسة من الشباب المناضل بينهم نادية السلطي..

من هو السجين؟ يخيل للجميع أن الشباب الخمسة يحاكمون القضاة، لو ترى كيف تقف في وجه الجلادين، ورفاقها من حولها يبتسمون بصمت، إنها تلبس فستاناً من القماش الأبيض مخططاً بخطوط سوداء، وتضع على شعرها غطاء رزيناً، وعلى كتفيها معطفاً خفيفاً من الصوف.

إنها تبتسم في وجه النائب العام.!

❖ ❖ ❖

النائب العام: النيابة تتهم هذه الفتاة بالجريمة، كل أعمالها كانت محاولات توشك أن تنجح لقلب نظام صاحب الجلالة الملك.. لقد اشتركت مع رفاقها الأربعة بنسف مجلس الإعمار.. وقامت لوحدها بنسف المجلس الثقافي البريطاني.. لقد وجدنا في حقيبتها أربعة أصابع تفجير خطرة يا سادتي القضاة، إن الجريمة التي ارتكبتها المتهمة....

نادية (مقاطعة بصوت عال): ليست جريمة، بل تصحيحاً لوضع خاطئ..

القاضي: لا تقاطعي مطالعة النائب العام.

نادية: وأنتم.. ألم تقاطعوا الطريق المستقيم الذي كان يسلكه شعب كامل.؟

النائب العام: النيابة تطالب إسكات المتهمة.

نادية: كي تتم المهزلة إلى نهايتها..

النائب العام: يا سادتي القضاة، إن الجريمة التي ارتكبتها المتهمة هي اعتداء صارخ على صاحب الجلالة، هذه الشفاه التي ترونها لا يغرنكم جمالها، إنها شيطان يختبئ في ثوب امرأة، إن حقيبة يدها كانت محشوة بالمتفجرات..

القاضي: هل تنكر المتهمة الجريمة.؟

نادية: إنني أرفض أن أحاكم في محكمة تضع مسبقاً قرار إعدامي.

القاضي: هل كنت تحاولين الوصول إلى قتل الملك.؟

نادية: لقد أمر أمرة بقتل الشعب كله.

القاضي: إنك عنيدة.

نادية: إن السعي للحرية بطولة..

القاضي: هل اشترك خطيبك معك.؟

نادية: كلنا غير راضين عن سلوك حكومتكم..

القاضي: هل تعتقدين أنك شجاعة إذ تتكلمين هكذا.؟

نادية: إن الشجاعة دائماً في صف الحقيقة..

القاضي: أنت غير راضية إذاً على سياسة حكومة صاحب الجلالة..

نادية: الشعب كله غير راض عنها..

القاضي: لقد طالب النائب العام بإعدامك..

نادية: خيانة جديدة متوقعة..

القاضي: إن الملك نفسه يرغب في إعدامك..

نادية: إن الملك والنائب العام والجلاد شيء واحد..

القاضي: إنك تسرعين الخطى نحو الموت..

نادية: هذا أفضل من أن أقف، مثلك في ظل الملك المجنون..

القاضي: أنت وقحة..

نادية: أنا أغبط القاضي على اكتشافه الخطير..

القاضي: سوف تموتين أيتها العنيدة، وسوف أراك تتعلقين حبل المشنقة.. لن ينفعك العناد، ولا سرعة الخاطر، ولا الجمال، ولا الشباب..

نادية: أرجو من القاضي ألا يحاول إخافتي.

القاضي: حسناً جداً، سوف ينتهي صوتك الآن.. قرار المحكمة:

(بصوت عال) حكمت المحكمة العسكرية المشكلة لمحاكمة العصاة حكماً وجاهياً في قضية نسف المجلس البريطاني الأعلى ونسف مجلس الأعمار بما يلي:

أولاً:

الراوية (مقاطعاً): تريث أيها الجلاد الغبي، إن شعبي كله يقف بينك وبين نادية السلطي ويجرها نحو الخلود، والعالم كله يرفض أن ترتكب الجريمة الرهيبة..

ليشلّ لسانك المجرم وليتجمد في حلقك كالحجر.. إن نادية السلطي لن تموت، لن يجرؤ حبل في بلادي أن يلتف حول عنقها، ولن يتصالب عودان من بلادي كي يحملاها.

بأي حق يتحكم هذا الملك القزم بالعمالقة الذين خلقتهم أمتنا العظيمة.؟ إن نادية السلطي لا تخاف، ولقد قالت مرة:

نادية: بل إن شعبنا كله لا يخاف، والمشنقة بالنسبة له هي اللحظة التي تسبق الفجر. إن كل رجل، وكل امرأة وكل طفل في وطننا العظيم على استعداد مطلق لأن يهب أمته كل شيء..

عندما يدخل واحدنا معركة الأمّة يضع في حسابه كل النتائج، ولكنه يضع أولاً تصميمه في أن ينتصر الشعب..

الشعب العظيم الذي لابد أن يعيش رغم كل الأقزام.

25/ 8/ 1958

تمثيلية في فصل واحد..

أبطالها:

نسيبة بنت كعب الأنصارية

صلاح الدين الأيوبي

عبد القادر الحسيني

رجاء أبو عماشة

جول جمال

العربي بن المهيدي

(الطريق الصاعد اللاهث استنزف قوانا كلها، ورغم ذلك فإننا كنا نطمح أن نصل إلى قمة الكثيب..

لا بأس أن نجهد أنفسنا قليلاً، لم نكن ندري بالضبط لماذا صعدنا كل تلك المسافة، أو أننا لم نعد نذكر الآن شيئاً.. وفجأة وصلنا إلى القمة، وانفتح منظر خالد أمام أبصارنا، الماء والشجر والعشب النديّ والورد ينتثر في كل اتجاه.. أين نحن.؟ أين كنا.؟ لم نكن نعرف شيئاً..!

ولكننا شهدنا حوض الماء، وشهدنا حوله وجوهاً نعرفها جيداً، لم تكن أشباحاً، بل أجساداً من لحم ودم، وكاد هول المفاجأة أن يسقطنا إلى قعر الهوّة السحيقة، ولكن الأصوات كانت قد بدأت تصلنا قوية.. تنبض بالحياة.)

صلاح الدين (مؤكداً كلامه بإصبعه): مازلت على رأيي، وسأكرره كي أزيده تأكيداً.. إن صعودك يا عبد القادر الحسيني إلى القسطل، وأنت متيقن من الهزيمة أمر ليس من البطولة في شيء، كان من الأفضل أن تتريث.. إن الشجاعة هي المحك الأساسي للرجولة، هذا صحيح، ولكن هذه الشجاعة إذا لم تكن مدعومة بالحكمة فإنها تصبح هباء منثوراً.

عبد القادر (معاتباً، ثم متحمساً): يا صلاح الدين.. أنت لم تذق الهزيمـة، لـذلك كنـت تعتقد أن البطولة هي فقط أن تنتصر، بينما أجد أنا أنه إذا فرض عليـك أن تختـار بـين هزيمـة مهينة وبين موت مشرف، فلا مناص من أن تختار الموت، ولقد كان موقفي يوم القسطل يحـتم علي أن أسلك السبيل الذي سلكت.. (متأملـاً) إن مـن سـخرية الأقـدار أن تـصل المأسـاة في فلسطين إلى الحد الذي وصلت إليه، ولكن ماذا يمكن أن يكون موقفك أنت عندما تطلب من أخيك العربي بارودا، فيعطيك صناديقاً من الملح غير النظيـف.؟ لقـد اخـترت المـوت لأننـي وجدت نفسي عاجزاً عن صنع أي شيء في غمرة التعقيد الذي كانت تتخبط فيه المشكلة.

نسيبة: رويدك.. إن للأموات حكمة ليست للبشر، وبهـذه الحكمـة تتحـدث أنـت عـن الموت، إلا أنني أعرف أن البشر يعتبرون مؤمنين إن الموت شيء مرعب...

عبد القادر: هذا صحيح.. لكنني أؤمن أن الحياة الفارغة الذليلة، أشد رعباً، ولدي أمثلة على ذلك، أنت مثلاً، يا نسيبة، عندما دخلت المعركة بولدين وذراعين وخرجت بولـد واحـد وذراع واحدة.. كيف كنت تشعرين.؟ أما كنت تفضلين أن تري فلذة كبدك ميتاً عن أن تريـه مهزوماً ذليلاً.؟

نسيبة (بألم): هذا صحيح... ولكننـي عنـدما دخلـت المعركـة، كنـت مؤمنـة بالنـصر، واعتقدت، وما زلت أعتقد، أن ولدي وذراعي كانا جزءاً من ثمن ذلك النصر، وهكـذا تـرى أنني لم أكن في الموقف الذي كنت فيه.. لم تكن هناك فكرة أية هزيمة..

(يدخل جول جمال فيسمع آخر كلام نسيبة)

جول (واقفاً): أنا أرى رأياً آخر، إن الإنسان عندما تدعوه المعركة ليقدم نفسه، لا يفكـر أبداً بالهزيمة، يبقى في رأسه نداء المعركة فقط وهو يندفع فيها كالطوفان، كل همه أن يـصل.. وعمل رائع أن يصل، ولكن عدم الوصول لا يعني بطولة أقل.

صلاح الدين (متوجهاً نحو نسيبة): من هذا الشاب الذي يـتكلم بطلاقـة.؟ إننـي لم أره من قبل..

نسيبة: من سورية اسمه جول جمال ولقد استشهد في مصر.. وعندما طفا دمه على سطح المتوسط، كانت البارجة الملعونة تغوص في اليم..

صلاح الدين: بطل جديد.. إنها تربة طيبة تعطي كثيراً، بل إنها لم تكف أبداً عن تقديم الضحايا كي تتم رسالة الحياة الخيّرة.. لماذا لا تقدم لنا صاحبك يا جول.؟ يخيل إلي من سمرته أنه التهب في حرارة شمس الجبل.. من هو؟

جول (يتقدم خطوة ماسكاً العربي من يده): إنه شهيد آخر من الجزائر.. العربي بن المهيدي إن دمه لم يجف بعد على صخور الأوراس.

صلاح الدين (مبتسماً): ما زالت الثورات في بلادي تهدينا بطلاً إثر بطل..

نسيبة (مشيرة بيدها إلى دغل قريب): وبطلة أثر بطلة.. (تنظر إلى صلاح الدين) انظر عبر تلك الأشجار، أترى الشابة القادمة تجاهنا.؟ إنها رجاء أبو عماشة.. صرعها الغدر في الأردن.

صلاح الدين (هازاً رأسه): يخيل إلي أن هذا النائم العملاق قد استيقظ أخيراً.. حينما كنت على الأرض لم أكن أحسب أن الأموات يتابعون أخبار بلادهم باهتمام، ولو كنت أعرف ذلك لكنت إذن ضاعفت جهدي، لقد مرت قرون عديدة، ويبدو لي الآن أن العملاق النائم قد بدأ يفتح عينيه..

جول: نعم.. إن«صلاحاً» جديداً على الأرض يندفع بنفس القدرة التي كنت تندفع بها أنت يوم حطين.. في صوته نفس ما في صوتك من رنين عميق كأنه يتكلم من صدر معدني، وليس غريباً أن يكون صدره ذاك رقيقاً خيّراً، أنه أسمر منك قليلاً، ولكنه يقاربك في الطول وفي تناسق البنية.. إني ما أنفك اعتقد أن عبد الناصر إنما يسير بنفس العزم الذي كنت تسير فيه أنت...

صلاح الدين: بل بعزم أشد... أيامنا يا بني لم يكن هنالك مجال لغير كثير من الشجاعة، وشيء من الحكمة، أما اليوم فالقائد بحاجة لأكثر من الشجاعة، ولأكثر من الحكمة... إنه بحاجة لشيء ما... شيء يشبه الحب، يشبه الابتسامة.. شيء لا أستطيع أن أسميه (يلتفت إلى

عبد القادر) سمه يا عبد القادر لقد سمعت مرة أنك خريج جامعة عالية، فعلّ اللفظ يطاوعك أكثر مني...

عبد القادر: هل ذلك الشيء الذي تقصده هو الإيمان بالإنسان الخير، وبقدرته على أن يكون سعيداً متى اكتشف في نفسه ذلك.؟

صلاح (مبتسماً): رغم أنني لا أوافقك على الكلمات المعقدة، إلا أنني أعتقد أن هذا شيء قريب مما كنت أقصد..

العربي (إلى عبد القادر): لا باس عليك يا عبد القادر، لقد استعملت المدفع في حياتك أكثر مما استعملت القلم والكلمة، وهاأنت هنا تجرب قدرتك على التفلسف.. كم أشتهي لو أرسل الله لنا فيلسوفاً من هواة التعقيد كي أرى ماذا يمكن أن يكون موقف صلاح الدين منه..

عبد القادر: إن الفلاسفة المعقدين يرسلهم الله إلى مكان آخر!

نسيبة: أيامنا، أيام الخير، لم يكن هناك فلسفة، كان هنالك إيمان، وهو شيء أشد دفعاً للإنسان من الفلسفة..

العربي: هذا صحيح! الإيمان أشد دفعاً للإنسان من الفلسفة، ولكن الفلسفة أكثر شغلاً للفراغ من الإيمان، وعالمنا اليوم يشكو من الفراغ كثيراً..

صلاح الدين: عن أي شيء كنا نتكلم.. ها.. عن عبد الناصر.. إنني ما زالت أعتقد أن القائد الذي يعيش الآن يحتاج لأكثر من الشجاعة والحكمة، يحتاج للحب.. هذا صحيح، وأسهل، نعم، الحب.. صحيح إننا نحن كنا نحتاج للحب أيضاً، ولكن حاجتنا إليه لم تكن تأتي بالدرجة الأولى جنباً إلى جنب مع الشجاعة..

عبد القادر: كنت حديث عهد بهذا المكان عندما دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين، تأكدت يومها من الهزيمة لكنني كنت أنظر لبعض الجنود بشيء كثير من الأمل.. كان عبد الناصر واحداً من أولئك.. وها هو ذا يحقق الرجاء، لو سبق عبد الناصر ميعاده بعشر سنوات

لما كنت مت أنا.. ولما كان شرد مليون عربي.. ولكن من يدري، قد يكون ذلك كله حدث من أجل أن ينبت عبد الناصر صلباً من بين أنقاض الهزائم والآلام... ومن يدري.؟

رجاء (إلى العربي): عندما كنت على الأرض كنت أتابع باهتمام شـديد أخبـار الجزائـر، وكنت على يقين أن تلكم الثورة هي وجه مشرف آخر في تاريخنا الحـديث. وهـا قـد سـنحت الفرصة الآن لأعرف أكثر.. فحدثنا يا العربي عن الثورة... لقد كنـا نعتقـد ونحـن في الأردن أنكم المثال الحقيقي للبطولة.

العربي: كيف ابدأ لكم.. لا.. لا ضرورة لذلك.. ليس أسهل من تلخيص الثـورة، شـعب يريـد أن يمارس حياته.. ولقد وجد طريقاً مناسباً كي يفعل... (موجهاً الكلام لصلاح الدين)......

(تتمة التمثيلية مفقود«...ع»)

مجموعة مقالات ودراسات

ومحاضرات غير منشورة

يا والدي!

القضية التي تشاجرت معك لأجلها، صباح أمس، ليست قضيتي أنا، أو قضيتك أنت فحسب، بل هي قضيتنا كلينا، بل قضية كل هذه الجماهير التي تراها، وتلتقي بها، وتحبها، وتكرهها، وتفهمها، وتمجها، والقضية هذه ـ إن أردت الحقيقة ـ ليست قضية بقدر ما هي «عناد»، وستغفر لي استعمالي هذه الكلمة القاسية لأنني لم أجد أية كلمة سواها تصف الموقف بإخلاص دون أن تؤذي واحداً منا.

إنني أفهم وجهة نظرك تماماً، بل وسأشرحها لك كي تتأكد من فهمي لها:

أنت لا تريدني أن أحشر نفسي في المشاكل التي قد يتعارض فيها رأيي مع آراء أصحاب الرؤوس الكبيرة.. وأنت لمتني، وتلومني، وقلت أنك ستلومني لأنني أهتف في المظاهرات وأتحمس للمسير مع جماهيرنا، ووصفت هذا العمل بأنه «تحدي مراهق وجهالة، وتبرير لسوء الخلق»، وأنت تطلب مني أن أكون كما كنت أنت في شبابك وكهولتك: مستقيماً، واعياً لقيمتك، غير متهور في تصرفاتك..

الفرق بين وجهة نظري ووجهة نظرك هو فرق زمني في مجمله، فأنت لا زلت تنظر إلى الأشياء كما كنت تنظر إليها قبل أربعين سنة كاملة، وتراها قاتمة مؤلمة توحي بالهزيمة.

فإذا ذكرت أمامك كلمة الجيش: تصورت قطيعاً من الشباب البائس يساق أمام الخيول لكي يقاتل على حدود أرمينيا، وفي الصرب، وليدفع حملة غازية عن حدود تركيا.!

وإذا قالوا ولي الأمر: تصورت «باشا» سميناً يقرع بسوطه طرف حذائه الطويل الأسود، ويتلقى أوامره من الباب العالي وينفذها بقسوة السجن وقوة القيد.!

وإذا قالوا حكومة: تصورت يداً وحشية تأخذ ولا تعطي وتطلب وتطلب في سبيل سعادة أناس لا تعرفهم، وتسمع عنهم سمعاً ضبابياً..

أما أنا، فأرى الأمور كما هي، وأريدها كما ينبغي أن تكون فعندما أتصور الجيش أتصور شباباً طيباً يحمي حدودنا ويحرر كرامتنا، ويجاهد في سبيل قيمتي وقيمتك.

وإذا تصورت وليّ الأمر، رأيته صورة بارزة لإرادة هذه الجماهير التي أرادت له أن يكون حيث هو، مقيداً بالمسؤولية وبالشعور الأصيل.

وإذا قالوا حكومة: تصورت مجموعة من الحقوق والواجبات وكلاً متماسكاً متوازناً من الأخذ والعطاء..

وإذا تخيلتهم مجموعين، رأيت جبروت الشعب الذي حقق هذا، والذي يريد أن يعيش حياته بالثمن الذي اشتراها به عزيزاً كريماً معطاء.

فاسمح لي أن أقول إن القضية إذاً هي قضيتي، بقدر ما هي قضيتك، بقدر ما هي قضية كل الجماهير في هذا الوطن..

وإنني لن أغفر لنفسي تقاعسي لأنني ابنك أنت..

واسمح لي أن أهيكل أهدافي، ومفاهيمي، في قوالب يومية تؤكد قدسية العمل في سبيل هذه الجماهير في هذا الوطن..

هل تسمح؟

- - -

غسان 1957/8/5

مؤلف . . وكتاب

اللغة في عرف المفكرين كائن حيّ، يخضع لكافة شروط النمو والتطـور والتكامـل، وأحيانـاً الموت.. وحياة لغة ما أو موتها تتعلق أولاً بإمكانياتها على التلاؤم مع الوسط بـالنمو والاسـتمرار، وبالتتبع المتواصل لانتصارات المخبر، وانتصارات الفلسفة، وانتصارات العلوم المختلفة.

واللغة«من حيث هي رابط وجداني بين أفراد أمة واحدة غالباً، ومن حيث هي عطاء بين قوميات متعايشة ومتعاونة» هي شيء إنساني يخضع، بل يجب أن يخضع إلى أن يتطور ويتكيف ويتكامل ويمتد ويضمر من بعض جهاته، ويتعاظم من بعضها الآخر دون أن يفقـد روحيتـه الخاصة، وشخصيته المتميزة.

واللغة أيضاً هي الجانب الروحي من الحضارة، والذي يدل على تلك الحـضارة وخـصبها أو جدبها.. هي كذلك لأنها ترافق الجريان الدائم، للتاريخ وتتساند مع التيـار الـصاعد عـبر الـصراع البشري، أو الهابط وسط الضياع، وتعكس من خلالها الشق الوجداني لتاريخ أمة من الأمم.

وبعض اللغات يموت، وبعضها يتفسخ، وبعضها يتجمد تحت غزارة الطلب، وبعضها يعيش وينضج، ويلبي مطالب الحياة جميعها، وبعضها يعيش طافياً على الـسطح بـلا جـذور، ففي أي نوع من هذه الأنواع تندرج لغتنا العربية..؟

المعروف أن العربية عاشت تلبي مطالب الحياة المختلفة وتعضد عالم المخبر، وفيلـسوف الصومعة، وتؤدي لهما كل ما يطمحون إليه، ثم انكمشت على نفسها تحت وطأة الضغط الذي رزح تحته المجتمع العربي في كافة نواحيـه الاجتماعيـة والاقتـصادية والثقافيـة طـوال عـصور الانحطاط الثقيلة.. وكان من الممكن للعربية أن تذوب في أمواج اللغات الآتيـة مـع غـزوات المغول، وفارس، والصليبيين، وأن تتهاوى تحت ضغط الهزائم التـي كـان يقـع فيهـا المجتمـع العربي يومذاك، ولكن عوامل كثـيرة سـاعدت عـلى حفظهـا، أهمهـا القـرآن بطبيعـة الحـال،

والشعور الديني الصوفي الذي كان يفرض نفسه على الغازين، ويفرض بالتالي احترام لغة هذا الدين.. ثم تنافس اللغات الدخيلة نفسها.

ولكن انكماش العربية وتجمدها وأحجامها عن التفتح للعالم عن ضغط تلك الظروف الخاصة في العصور الوسطى، واستمرار هذا الانكماش وهذا التجمد طوال قرون طويلة، وإن حفظ للعربية هيكلها اللفظي العام، وأبجديتها، وروح تاريخها الزاخر، إلا أنه فتح فيها ثغرات واسعة، متباعدة.. بعضها جانبي وبعضها أساسي، ولكنها تشترك جميعها في أنها وقفت دون اللغة ودون المستوى المطلوب منها في هذا العصر.

ومع اليقظة الجديدة للمجتمع العربي الجديد.. تقف قضية اللغة في الصف الأول مع القضايا التي تستلزم حلاً صحيحاً سريعاً، وتختلف عن تلك القضايا بأنها مشكلة ذات وجهين خطيرين أساسيين.

1) اللهجات العامية وتباعدها المستمر عن الفصحى.

2) الفصحى، وعدم مقدرتها على متابعة التطورات العالمية من علمية وفلسفية ولغوية وإلى آخر ما هنالك..

ومن أجل المساهمة في حل هاتين المشكلتين، ومشاكل أخرى جانبية وثانوية، كتب الحصري: (آراء وأحاديث في اللغة والأدب).

إن ساطع الحصري كاتب يحترم القارئ قدم له«عذاب لحظات، وذبح شرايين» ونتائج بحث طويل مستفيض، والشيء الأهم في القضيتين للحصري أسلوب مميز خاص، سهل، وممتنع وعميق في نفس الوقت، فهو يفتش طويلاً عن الكلمة الملائمة للتعبير ولكن تفتيشه هذا يتجه دائماً نحو إيجاد الكلمة الأسهل، والأسرع على الفهم، لا الكلمة«السمجة، المشوشة، المعجونة بغرور التفلسف» كما يفعل بعض«فلاسفتنا» الشباب.. فالحصري إذن يحترم القارئ، ويحترم الكلمة، ويدفع هذا القارئ لأن يتمنى أن يعيش كل أدباؤنا وفلاسفتنا العمر الذي عاشه الحصري كي يعطوا للناس شيئاً يستحق القراءة.. وذلك التواضع وذلك العمق..

القضية التي تهمنا تبدأ من (ص 42)، قضية الفصحى والعامية، ووجود هذه الحالة هو اللجوء إلى حل وسط، كطريقة للوصول إلى الحل الصحيح، وهذا الحل هو استعمال لهجة يستعملها حالياً المثقفون في التخاطب، تبتعد عن انخفاض العامية وتقترب من الفصحى..

ولكن هل هذا الحل أمر سهل وبسيط.؟ أليس بحاجة لدراسة طويلة، واستقصاء لكل ما يلزم للعربية الفصحى، ولكل ما لا يلزم من العامية.؟ ألم تلجأ العامية في مراحل كثيرة من تاريخها إلى أن تستعمل كلمة (مال، حق) في الكويت والعراق، في سوريا (تبع، شيت)، في مصر (بتاع).. الخ.. من أجل توضيح المضاف عن المضاف إليه فنقول (قلم بتاع علي) (دفتر مال سعيد).. الخ.؟

ألم ينتج هذا عن«وجود حاجة يشعر بها الناس في جميع الأقطار العربية، وإن سلكوا لسدها مسالك مختلفة» ص(190) إن العامية ترفد الفصحى أحياناً، فالقضية في حاجة لدرس وتمحيص، ومقارنة العربية باللاتينية والتشجيع الضمني على استقلال اللهجات هو خيانة قومية، لو حكمنا عليها عقائديا.. إن اللاتينية تختلف عن العربية، وتاريخ اللغتين والملابسات التي رافقت تطورهما أمور لا تسمح لنا بمقارنتهما.

وإن استعراض هذا الفرق بالتفصيل (من ص 53 ـ ص 82) يدلل على استحالة هذه المقارنة بحال من الأحوال.

ولكن الأزمة التي تجتازها العربية الفصحى، في عالم القرن العشرين، هي أزمة من نوع معقد فالمفكرون يعتقدون أن اللغة العربية لا تتوفر فيها القابلية لتكوين مصطلحات علمية يحتاج إليها الجيل الحاضر.. ويرى اللغويون أن العربية هي أغنى لغات العالم، والقضية تتأزم ما بين الإفراط والتفريط.. فالعربية غنية، هذا صحيح، ولكن كنوزها لا تعمل في الأسواق ولا تجري بين الناس.«فالغنى في اللغة لا يقاس بعدد الكلمات المسطّرة في القواميس، ولا بكثرة المترادفات المطمورة فيها، فإن القواميس لم تكن مجمعاً للكلمات الحية فقط، بل هي مدفن للكلمات الميتة أيضاً، فمثل الذين يتفاخرون بكثرة الكلمات المسطرة بالقواميس بدون أن

يلاحظوا حيوية تلك الكلمات وفائدتها ـ كمثل من يتفاخر بسعة بلدة، دون أن يميز بين مساكنها وقبورها..» ص **117**.

إن الغنى المتكلم عنه إذن مجرد خرافة منفوخة، فاللغة الآن بحاجة«للاهتمام التنظيمي» كي تساير لغات العالم في المصطلحات الضرورية لممارسة الكتابة والتعبير بوضوح ودقة، إن على دولة ما ـ والجمهورية هي الوسط الطبيعي لتبني مثل هذه القضية القومية ـ مهمة الاتفاق على الاصطلاحات العلمية..

وفي الطريق إلى مثل هذا الاتفاق يقترح الحصري أن نكون بمستوى جرأة أجدادنا الذين أوجدوا«البسملة، والحوقلة» وأن نلجأ إلى«النحت» بغية الاختصار وضبط المعنى المطلوب لقد قال بعض المفكرين العرب. لا إرادي، ولا شعوري.. لماذا لا نتابع:«لا أخلاقي. لا اجتماعي لا جناحي. لا حياتي... الخ» لماذا لا نبتدع:«غبمدرسي» من (غب) بمعنى (بعد) و(مدرسي) لنتفق على اصطلاح صار موضع استعمال كثير؟ ولماذا لا نقول أيضاً: (غبجليدي) فبتاريخ (قبل التاريخ) فوسوي (فوق السوي) تحشعور (تحت الشعور) السرمنة (السير أثناء المنام)..

إنني لا أريد أن أقدم للقارئ كتاب الحصري كما قرأته، لأنني لن أنجح في توضيحه قدر نصف ما هو موضح.. ومع أن معظم مقالات الكتاب كتبت منذ زمن بعيد، إلا أن الحاجة إلى أخذها بعين الاهتمام ما زالت واردة..

والحاجة إلى عقد مؤتمرات لدرس وجوه الاختلاف والتناقض وإمكانيات التقريب والتشذيب ضرورية.. إن هناك مجموعة قضايا لم يبت فيها بعد، وتحتاج إلى زمن طويل كي تهيأ لها الحلول، والواجب الملقى على هذا الجيل يلح بالدعوة لوضع مثل تلك الحلول... إذ أن الفرصة المتاحة أمامنا للارتفاع بلغتنا إلى مصاف اللغات العالمية يجب ألا نوفرها فقط، بل ولا نؤخرها أو نؤجلها أبداً.

وهنالك أسئلة كثيرة ما زالت تلح، وحلها يتخذ طابعاً فريداً في كتاب الحصري، قواعد اللغة العربية وكيف يجب أن تدرس (ص: **83**) لماذا لا نستعمل بعض الاصطلاحات العربية

الأصيلة (ص: **148**) من أين تشكلت عامية تونس الغربية (ص: **158**) لماذا تختلف أسماء الشهور في البلاد العربية.؟ (ص: **185**) ما هو المعنى الحقيقي لكلمة (جنس).؟ (ص: **194**) بقايا التركية في لغة مصر الرسمية.. استقلال الكلمات في المعاجم الصفراء والتي لا تملك سواها (ص **220**)، كيف نكتب الإعلام الأجنبية (ص **209**).

هذه القضايا من بعض ما نواجه في الارتقاء بلغتنا العربية والنهوض بها لكي ترفد الصعود الدائم لعقول أبنائها وأقلامهم، واللغة التي ساندتهم في كل أيام تاريخهم وفرضت نفسها كلغة علوم وفلسفة خلال حقبة من التاريخ ليست ضعيفة ولا ميتة ولا تحمل بذور فنائها، بل تحتاج إلى اهتمام ودراسة ودعم شديد.

وإن قيمة كتاب الحصري الجديد، تختلف شيئاً ما عن قيمة كتبه القديمة، لقد جهد في تلك الكتب ليقنع الناس بفكرة استنزفت جزءاً كبيراً من حياته، وها هو ذا يراها تتحقق شيئاً فشيئاً بعد أن ذرف على التسعين، ولكن في هذا الكتاب، يمد يده ليمسك بأيدي مفكرينا كي يخوضوا في بحث هذه المواضيع الخطيرة.. إنه يضع العلامات على المشاكل.

ويكشف عن علامات استفهام كبيرة.. وينبه إلى ضرورة تلزم لتوكيد الوحدة القومية، إنه يخطو في هذا السبيل الخطوة الأولى.. والخطوة الأولى كما قالوا في القديم.. هي بداية لرحلة الألف ميل..

1958/4/1

الأفضل لهؤلاء أن يسكتوا..

نعم.. الأفضل لهؤلاء الحكام أن يسكتوا.

كفى..

كفى خداعاً للشعب.

كلما قام اليهود باعتداء..

كلما تحركوا على الحدود..

كلما ارتكبوا جريمة جديدة..

قمتم، وكأنكم تشعرون أن من واجبكم أن تتحركوا أنتم أيضاً... نقول قمتم.. وأصلحتم هندامكم.. ووقفتم أمام الصحفيين قائلين:

«إن لبنان لن يقف مكتوف الأيدي أمام اليهود.؟»

«إننا لن نسكت بعد اليوم على اعتداءات اليهود.؟»

«إن بلد ......! يعتبر خطوط الهدنة خطاً واحداً!»

أليس الأفضل أن تقفوا مكتوفي الأيدي.!

أو على الأقل مكتوفي «اللسان»..

أليس الأفضل أن تسكتوا..

على من تكذبون.؟

لنكن صريحين.. ألا تضحكون من أنفسكم في الخفاء على هذه المسرحية؟

ثمان سنوات مضت على النكبة..

وعشرات مضت على التمهيد للنكبة..

وأنتم.. لا زلتم كما أنتم!

تلحقون التصريح بالآخر والحديث،«الخطير»، بشرحه.. والبيان الحازم بأخيه..

على من تدجلون؟

ثم.. ما معنى قول أحدكم:

«إننا نناشد الدول العربية أن تقف صفاً واحداً في وجه اعتداءات اليهود..»

من يمنع«أخينا» هذا من الوقوف صفاً واحداً.. من.؟

لماذا لا يبدأ بنفسه؟

لو كان لديكم بقية من حياء.. ولا نقول شجاعة!

لو كان لديكم ذرة من احترام النفس.. ذرة واحدة..

لو كانت لديكم.. لانسحبتم، أو على الأقل سكتم..

كفى خداعاً للشعب..

لقد عرفكم جيداً.. وعجم عودكم المهترئ..

عرفكم الشعب وهو في استعداده للمعركة سيحسب حسابكم في صفوفه، أم في مقابلها على الضفة الثانية!

لقد عرفكم الشعب! فكفى خداعاً له..!

1955/12/19

رئيس التحرير يكتب من قلعة الألمنيوم النفاثة

أنا . . . والعنكبوت، وأمامي حزام النجاة!

قبل أن يتيسر لي أن أنفض غبار الرحلة الأولى وجدتني على متن قلعة الألمنيوم النفاثة في الطريق إلى بكين البعيدة مرة أخرى..

من بيروت عبر القاهرة الباكستان الشرقية فكانتون فبكين.. خمسة عشر ساعة طيران على الأقل، في طائرة شديدة الزحام كأنها المواسم، وحين وصلنا إلى بكين كنا قد صرفنا أربعين ساعة دون نوم، ولا شك أنهم حين يحمضون الصور التي التقطوها لنا ونحن على سلم الطائرة، سيرون في وجوهنا العجب العجاب..

ويا روعة الرحلة الماضية!

ذلك إنني بعد أن فككت الحزام اهتديت إلى حذائي ونمت نوماً عميقاً والطائرة تهدر على علو **30** ألف قدم.. أما هذه المرة فقد كانت الطائرة مزدحمة، وصرفت ساعة على الأقل في مناورات جهنمية تيسر لي بعدها أن أؤمن صفا فارغاً من المقاعد، وحين حاولت أن أرفع الأذرع كي أتمدد فوقه اكتشفت ـ يا لسخرية الأقدار! ـ أن الأذرع مثبتة في أمكنتها بالبراغي المتينة!

وكيف كان من المعقول أن يخطر على بالي، وأنا أحصي لوازمي في بيروت، أن أتزود بمفك.؟

وهكذا استسلمت مبتئساً لهذه التطورات غير الحكيمة التي أدخلت على طائرات البوينغ أثناء غيابي عنها..

وماذا يمكن للمرء أن يفعل طوال هذه الساعات محشوراً كالجوزة في كسارة بندق فضائية.؟ لقد قرأت التعليمات للمرة الألف، وهي تعليمات غايتها تذكيرك بأن هذه الطائرة قد تقع ـ على عكس ما تصورت حين قطعت التذكرة ـ ولكنهم يطمئنونك إلى أن طيارهم

حريص على إسقاطها فوق المحيط لا على اليابسة وأنه في غضون ذلك، ثقة منهم بشجاعتك وهدوء أعصابك وحرصك على سمعة الشركة، ستربط حزام النجاة الموجود تحت المقعد حول صدرك وتنفخه باعتناء «وتبكله» كي يتيسر لك أن تكمل طريقك إلى الصين سباحة، برعاية الله!

وهكذا مضيت أقرأ التعليمات المرة تلو الأخرى كي أفهمها بدقة، ذلك أن خطأً واحداً مهما كان صغيراً «كما تعلم»، قد يستغل أحسن استغلال من قبل خبراء شركة التأمين، ولكنني ـ أخيراً ـ يئست تماماً من فهم كل هذه التعقيدات.

كنت طوال عمري أعتقد أن فن المحافظة على الحياة هو أبسط فنون هذه الأرض.. وبما أنني كنت في قرارة نفسي أعلم تمام العلم أنه في اللحظة الحاسمة، يا لطيف، لن تستطيع يداي التقيد بالتعليمات وتنصرف بهدوء إلى الفك والتبكيل والربط والشهيق والزفير، ومن ثم السباحة، فقد قررت أن أصرف النظر عن النجاة.

على أن ذلك ـ رغم كل شيء ـ كان متعذراً، فقد وضع أحد المتآمرين في محفظتي كتاب «العنكبوت» لمصطفى محمود فالتجأت إليه هرباً من كرتونة التعليمات، فإذا هو أكثر فظاعة!

فإذا كانت الكرتونة تريد أن تقنعك بأنه إذا جاء المحتوم فأربط حزامك كي تنجو منه، فإن مصطفى محمود يريد أن يقنعك بأنه إذا جاء المحتوم فـ «معلش»، لأنك في الحقيقة لا تموت، لا شيء يموت!

وفي غمار هذه الحيرة اكتشفت الاكتشاف اللائق.. أتعرفون لماذا يتعذر فتح نوافذ الطائرة.؟

❖ ❖ ❖

إذاً هذا الذي حصل.

فتحت كتاب «العنكبوت» لمصطفى محمود وقرأته وأنا ـ أغلب الظن ـ فوق شبه القارة الهندية على متن تلك الطائرة التعيسة التي كانت تتجه من كراتشى إلى دكا في الباكستان الشرقية.

وكنت قد قرأت فيها مضى أن«العنكبوت» رواية علمية مثيرة توجت مصطفى محمود كأول كاتب للرواية العلمية العربية، وكان الكثيرون قد صفروا إعجاباً ودهشة حين سألتهم عن رأيهم في الرواية.. ولكن الآن، وأنا أطوي آخر صفحاتها تأكدت أكثر من أي وقت مضى أنه ينبغي علينا التحقق من الأمور بأنفسنا، وأن لا نكون ضحية الشائعات التي قد تؤدي بنا إلى السجن في كتاب لن نحبه على علو ثلاثين ألف قدم، في طائرة ثبتت أذرع مقاعدها بالبراغي المتينة!

«العنكبوت» رواية ذات فكرة مطروقة وشائعة وعولجت في العديد من الروايات الناجحة والفاشلة وعرضها التلفزيون في آلاف الحلقات«الجيمس بوندية»..

طبيب يقع على حالة غريبة حين يزوره شاب ليعالج صداعاً فإذا به يكتشف، في سلسلة من المصادفات العجيبة، أن الشاب المريض ما هو إلا عبقري يحاول أن يثبت بالراديوم وببراعم الأكدنيا ولعاب العنكبوت أن بوسع الإنسان أن ينمي ذاكرته إلى حد يستطيع فيه استرجاع حيواته السالفة، لملايين السنين!

بالطبع.. الشاب العبقري المذكور يموت، وكذلك خطيبته، وكذلك المؤلف الذي سجل القصة، ووجدت المخطوطة من يسجل في آخرها هامشاً يعلن فيه وفاة المؤلف وتدمير المعمل التاريخي.

إن قيمة الرواية العلمية المعاصرة هي قدرتها على الإقناع، وهذا في رأي الكثيرين ما جعلها مقبولة فنياً، والقدرة على الإقناع هذه تستلزم ما يسمى في لغة الناس العاديين أن تكون«مبكلة» تماماً.. في الرواية العلمية ينبغي أن يكون بناء الوهم منطقياً وراسخاً وغير خاضع للصدفة وواضحاً قدر الإمكان وهاهنا بالذات سرها، إن عالم الدروس هكسلي الطريف، مثلاً، عالم وهمي بقدر ما هو منطقي، وكذلك عالم **1984** الخاص بجورج أورويل.. والعوالم التي خلقها الروائيون المعاصرون حول الفضاء والكيمياء وعبقريات المجانين الذين اكتشفوا أن هستيريا الإنسان قد تصلح لتكون عالماً لفراره.

«العنكبوت» ليست كذلك، هي سلسلة من المصادفات التي تـشكل ثغـرات مهلكـة في قدرة الرواية على الدخول إلى نطاق التصديق الصعب في رؤيته.. نحن نبقـى إلى النهايـة أمـام أسئلة تفسر أجوبتها لعبة الذكاء التي حاول مصطفى محمود أن يلعبها، كيف يعقل أن يذهب الشاب العبقري إلى دكتور في جراحة المخ ليعالج صداعه طالما أنه يعرف سبب هـذا الـصداع ويعرف أنه ناتج عن تجارب علمية معقدة كان يريد إلى النهاية الاحتفاظ بها سراً.؟

كيف يصاب الشاب على كرسي الطبيب بنوبة من استرجاع ذاكرة سحيقة فيما يتكـشف لنا في الرواية أن مثل هذه النوبة لا يمكن أن تحدث إلا بعد حقنة مباشرة وعـلى كـرسي مـزود بأشعة الراديوم.؟

لماذا ماتت زوجة الشاب ـ أو خطيبته ـ وهي على كرسي الزينة من فـرط الرعـب فـيما لا يوجد أي تفسير لأي نوع من الرعب.؟ وعشرات من الأسئلة الأخرى التي تظل بلا جواب.

وعدم وجود الجواب ليس ـ في هذه الرواية ـ ظاهرة فنية متعمدة ولكنـه خطـأ في البنـاء الروائي ونقطة ضعف في ترتيب سيراميك الأحداث التي ينبغي أن تكون غريبة بنفس المقدار الذي تكون فيه منطقية.

حين كنت أقرأ المستحيل كنت أتذكر رواية الكاتب الروسي غبرام ترتز ـ الـذي حـوكم في موسكو مؤخراً ـ والتي أسماها«شريط الجليد».. إنها تتصدى للموضوع ذاته وللفكرة ذاتها ولكن بمستوى لا يقارن من الأحكام والذكاء و»التبكيل».!

وخيل إلى أن مصطفى محمود يستطيع فعلاً أن يكون كاتب الرواية العربية العلمية الأول لو كان أكثر صبراً وجدية في بناء الهيكـل اللائـق للفكـرة المعقـدة، ولكـن لـيس يكفـي عـلى الإطلاق أن نرصف بعـض المـصطلحات العلميـة والـصيغ الكيمائيـة لنـصبح كتـاب روايـة علمية.. وإلا لكان اينشتاين، في المراحل التي افترض فيها جوهر النسبية قبل البرهنة عليها... روائياً!

«صحيفة الجدار.. والطفل»

كنت أكره صحف الجدار..

ولم أكن أتصور كيف أستطيع أن أقف مصلوباً كمسيح صغير كي أقرأ شيئاً ما، معلقاً على الحائط كأنه منشور ملكي يرغم الشعب على قراءته بالبنادق والحراب.

ولكن حادثاً صغيراً مر بي غير لي رأيي.. أنا لا أدري عنك أنت.؟ ولكن ما حدث لي يومها كان كافياً ليجعلني أرتبط بصحيفة الجدار كما يرتبط القديس بالأيقونة التي تدله، بطريقة أو بأخرى، على الحقائق السماوية.

بدأ الحادث كما يلي:

طفل صغير كنت أدرّسه في مدرسة من مدارس النازحين، أذكر أنه كان في الصف الثاني، هذا الطفل، شد يدي وجرني عبر الرواق وهو يصيح بصوت ثاقب:

ـ تعال أريك شيئاً..

كنت بطبعي أحب الأطفال.. ولكن هذا الطفل بالذات كان يعني بالنسبة لي أهمية كبيرة، ولقد لفت نظري يوم دخل الصف وأنا أدرس فيه مبعوث من اليونسكو ليرى كيفية جريان الأمور في المدرسة، ويبدو أن صاحبنا الصغير أعجبه، إذ أنه طلب منه أن يقف ثم أشار له أن يلقي عليه أرجوزة ما..

ووقف الصغير طاوياً ذراعيه على صدره، ثم لمعت في عينيه بارقة اكتشاف خبيث.. فما لبث أن دس إصبعيه الصغيرين في فمه وانطلق يصفر صفيراً ثاقباً طويلاً في وجه المبعوث الأمريكي..

تذكرت هذا الحادث، وأنا أمشي خلف الطفل إلى حيث أراد أن يريني شيئاً، وبعد خطوات حائرة، أشار بإصبعه الصغير إلى لوحة معلقة على الجدار.. وابتسم ابتسامة عريضة.

لم تكن هذه اللوحة سوى صحيفة الجدار.. وسرعان ما عاودتني كراهيتي لها.. فأدرت ظهري جاذباً كفي من بين كفيّ الصغير، ملقياً بهما في عنف إلى جنبيه، ثم انطلقت إلى صفي دون أن أعير ما حدث اهتماماً ما.

عندما خرجت من صفي بعد ساعة، لفت نظري الصغير واقفاً إلى الجدار.. تحت الصحيفة وفي عينيه آثار بكاء مر.. ففهمت سبب بكائه. وحاولت أن أخفف عنه قائلاً:

ـ لماذا كنت تبكي؟.

حاول الصغير أن يتكلم، ولكنه عجز، وسرعان ما عاد إلى بكائه ماسحاً بقبضة كفه دموعه على خده الشاحب.. ثم أشار إلى فوقه قائلاً من بين لهاثه:

ـ كنت أريد أن أريك هذه..

رفعت نظري إلى اللوحة.. حيث توسطتها ورقة كتب عليها طفل ما ـ كان يبدو أنه هو ـ بخط متعرج لا يكاد يفهم..

الجملة التالية: «أنا أحب فلسطين».

وعندما أنزلت عيني إلى وجه الطفل رأيته يبتسم ابتسامة كبيرة ودمعه لما يزل على وجنتيه..

كان يبدو فخوراً.. ولكنني لم أكن أستطيع أن أميز شيئاً ساعتذاك..

لقد كنت أبكي..

11/ 8/ 1958

صورة

هكذا أحبك..

يا زوجتي العزيزة.. لو كنت معي هنا.. لو كنت.. لرأيت فجراً جديداً يشرق على دماء طيبة أرقناها على الصخور السمراء..

هذه الصخور التي كنا نراها من دارنا في الوادي، إنها تعني اليوم أشياء كبيرة كبيرة... أكبر من كونها منظراً جميلاً..

يا زوجتي الحلوة.. إنني أريد أن أكتب لك أشياء لا أعرفها، ولكنني أعيشها كل لحظة من لحظاتي الآن.. أتذكرين ساعة كنت مشدوداً إلى أعماق عينيك عند الوداع.. أتذكرين.؟

لقد كنت أفكر لحظتذاك أن هل يستحق الوطن أن نضحي لأجله بمثل هذه العينين وهذا الوجه.. أيستحق.؟ لماذا نترك ما هو كائن في سبيل ما سيكون.؟

لكنني يا زوجتي العزيزة تركتك إلى الجبل مشدوداً إليك بأعصابي وكياني وبشيء لا أعرفه في روحي.. وبقيت عيناك تطالعاني وأنا في الخندق مع الرفاق أواجه الفرنسيين بالنار..

بقيت عيناك معي في كل مكان..

آه كم عذبتني عيناك يا سمراء.. لكنني يوماً بعد يوم بدأت اكتشف أشياء حبيبة..

عيناك أنت كانت مصحوبة بعيون كثيرة.. عيون أطفال بريئة كنت أراها من خندقي مغروسة على رؤوس الأعشاب اليابسة..

وعيون معذبة كنت أراها في التجاويف الصغيرة للصخور السمراء..

وقلوب غضة معلقة على أشجار البطم الكبيرة هنا.. في الجبل.. تستجدي ثأراً صغيراً، والله يا عزيزتي إني رأيت عينيك في تلك الغمرة أجمل من ذي قبل.. أجمل بكثير.. بل إنني أبداً لم أرهما بهذه الروعة.

كان لهما ساعتذاك معنى هائلاً، إنني أحبك كثيراً، إنني أحب فيك وطني وأهلي، وأحبك في وطني وأهلي..

أتدرين أن الحب يكتسب قيمة كبيرة عندما يرتفع إلى مستوى الإيمان.! إنني أؤمن بك.. إنني أؤمن بالتراب الذي أنبت خبزك.. وأؤمن بالهواء الذي أعطاك لونك.. وأؤمن بـالبيوت المتواضعة التي نراها من هنا كعلب الصفيح الصغيرة..

إنني أؤمن بأولادي وآبائي، وأؤمن بكل شيء على أرضي، وأحبك لأنني أحببت ترابي.. وهوائي.. أشجاري.. وسمائي..

وسأبقى أحبك.. وسأناضل في سبيل حبي الكبير كي أحافظ على حبنا الصغير...

ولأجل عينيك الملونتين بمساء بلادي..

ولأجل سمرتك محروقة بشمس بلادي..

ولأجل روحك مصبوبة من خلال تراب بلادي..

لأجل كل هذا..

غادرت بيتنا الصغير إلى الصخور السمراء كي أزرع غداً جديداً.

15/ 7/ 1957

الذين يموتون من أجلنا

حقيقة من الأردن . .

عندما يحاول أحد كتاب القصة الصغيرة تصوّر حادثة أليمة كي يكتب عنها فإنه يستعين عادة بمادة من الواقع ويضيف عليها من خياله كافة التفاصيل. ولكن الرسالة التي وردت هذا الأسبوع من عمان كانت منتزعة من الحقيقة مئة بالمئة.. ولقد ثبتت الأسماء بصراحة، واعتمد في وصف التعذيب على التقرير الطبي للأطباء الشرعيين.

كل ما على القارئ العزيز أن يفعل، وهو يقرأ هذا القطاع الصغير من حياة الأردن ويدخن بهدوء،أن يتصور بطل القصة الشهيد شامخ عبد الرحيم الكيالي.. واقفاً هناك، في عمان، يتدفق شباباً وحياة وقوة... وأنه الآن قد مات تحت تعذيب المسعورين من رجال السجون في الأردن... وأنه لم يكن قط بطل قصة موضوعة، بل كان إنساناً حقيقياً، قام بالتزامه تجاه أمته، وقدم لها نفسه ضحية، في سبيل مستقبل حر.. لأمة واحدة..

عمان **24/ 11/ 1958**

أخي: أشعر تماماً أنني لن أستطيع بأي وجه أن أعبّر عما أشعر به، وعما أريد أن أقول، وأرجوكم أن تحاولوا معي، انقلوا أنفسكم إلى عمان، وحاولوا أن تتصوروا مشاعرنا تجاه هذه القصة الواقعية، التي سأقصّها عليكم.

قبل حوالي عشرة أيام تقريباً تسلمت رسالة من أحد الأخوان في عمان يتحدث فيها أولاً عن تطورات قضية تعذيب أحد شبابنا القوميين العرب«رشدي الخطيب» ثم يقول أن هناك الآن في السجين شاب من الزرقاء اسمه«شامخ كيالي» تعرض لأشد أنواع التعذيب، وأثناء التحقيق قال إنه من حركة القوميين العرب.

وعلى أي حال فالأمر حتى الآن عادي جداً، وقصص التعذيب خاصة في الشهر الأخير أصبحت من الأمور العادية، وبعد بضعة أيام من هذه الرسالة، أرسل لي أحد الأخوان خبراً

يقول فيه إن شامخ الكيالي في مستشفى الهلال، وأنه في حالة النزاع، وأن الطبيب الذي رآه لم يستطع أن يتمالك أعصابه فأرسل وراء الدكتور مصطفى خليفة بوصفه رئيساً لجمعية الهلال الأحمر الأردنية، الذي حضر مع أربعة من النواب، وشاهدوا المعتقل في حالة النزاع الأخير.

وعندما تسلمت هذا الخبر، اعتقدت أنه قديم، وأنه ربما يروي ما حدث قبل أسبوعين أو ثلاثة إذ أن السجن عادة هو المرحلة الأخيرة التي يستقر عندها التحقيق وتنتهي القضية، ولكن الذي ظهر فيما بعد، أن القتلة المجرمين قد عادوا وأخذوه من السجن وعرّضوه للتعذيب من جديد، مما أدى لنقله لمستشفى الهلال.

وفي صباح السبت **22/ 11/ 1958** تسلمت خبراً سريعاً أرسله لي أحد الأخوان وهذا نصّه: (توفي شامخ عبد الرحيم الكيالي قبيل منتصف ليلة الجمعة من شدة التعذيب التي أظهرها تشريحه صباح الجمعة، المعذبون هم «خالد الياور، سلامة مهاوش، أحمد خماش «سوري قومي»، وهادي عبد المجيد، ويوسف سليمان) وتم بإشراف (محمد السحيمات، وحكمت مهيار، والشريف ناصر).

والد الشهيد ووالدته في السجن مع عدد من أهله، التهمة المسندة إليه حيازة منشورات ضد العهد «وجد عنده قصاصات تنادي بسقوط حكومة الخيانة وحياة القومية العربية».

هذا هو نص الخبر حرفياً إذ إنه وردني مكتوباً، وهذه هي خطوط القصة العريضة.

أما التفاصيل فكل منها مأساة من المآسي.. ماذا أكتب لكم وماذا أقول ؟ إن التشويه الذي لحق بالشهيد جعل بعض أقاربه لا يستطيعون التعرّف عليه، إن حالة والدته ووالده تبكي الجماد والحجارة، أرجوكم أن تعفوني من كتابة التفاصيل، يكفي أن تتأكدوا أننا واثقون من كل ما ورد في تلك الرسالة مئة في المئة وأن كل هذه الأخبار من مصادر أكيدة، والآن ماذا نريد منكم.؟

إن بعض القضايا تخرج تماما عن نطاقها المحدود ونطاقها الوطني والقومي فلا تعود إطلاقاً قضية شخص معين أو عائلة معينة أو حركة معينة أو شعب معين، بل تصبح بالفصل

قضية كل إنسان وكل حر وكل ذي ضمير، وهـذه القـضية هـي واحـدة مـن هـذه القـضايا، ومعالجتها يجب أن تنطلق من هذه الزاوية، زاويتها الإنسانية قبل كل شيء.

لقد حدث في التاريخ قضايا من هذا النوع، ومن مثل هـذه الحـوادث اتخـذ الأحـرار في العالم مناسبات لتثبيت حقوق الإنسان، ومعنى كرامة كل إنسان.

إن هذه الحادثة وأمثالها هـي مناسـبات للارتفـاع بالـضمير العـربي والوجـدان العـربي، وتثبيت كرامة الإنسان في الوطن العربي.

لا أدري كيف أشرح لكم ما بنفسي. إنني أعرف تماماً أن أمتنا تقدم في كل يوم عدداً من الشهداء، ومع ذلك فإنني أحس في أعماقي أن هذا الحدث من نوع خاص وله معناه الخاص.

في الأسبوع الماضي عادوا وأخذوا رشدي الخطيب من السجن مرة ثانية للتحقيـق، وقـد فهمنا أن صحته أصبحت في غاية السوء، كما أنهم أخذوا في الأسبوع الماضي حمد الفرحان من السجن وهو معصوب العينين إلى مكان مجهول، إننا حتى لا نعرف مكان بعض شبابنا الـذين اعتقلوا مؤخراً من أريحا والزرقاء.

إن معنويات الشعب جيدة، والشيء الذي يمكن أن يقوي معنويات الشعب ويزيد ثقـة المواطنين بأنفسهم هو شعورهم أنهم ليسوا في الميـدان وحـدهم، وأن وحـدة النـضال العـربي ستبقى دائماً.

لا شك أن حكومة الأردن ستنفي بطبيعة الحال الحادث من أساسـه كـما فعلـت بقـضية الضابط «ظاظا» وفي هذه الحالة فإننا نطالب برجال تحقيق من الصليب الأحمر

وإليكم التقرير الطبي الذي نظمته النيابة العامة والأطباء بتاريخ **21/ 11/ 1958**.

(بناء على أخبار قيادة الشرطة المتضمن وفاة المدعو شامخ عبد الرحيم الكيـالي الموقـوف في السجن المركزي بعمان وفي المستشفى الرئيسي تحت المعالجة، لقد قمنا بإجراء الكـشف عـلى جثة المذكور بعد أن عرفنا عليها النائب عبد العـال أحمـد عبـد الله رقـم **11773** مـن مرتبـة الاستخبارات العامة، وقد انتخبت لجنة مؤلفة من الأطباء للكشف على الجثة وهـم: الأطبـاء

إبراهيم علم الدين، فؤاد دعدس، كميران نبيل، من أطباء لواء عمان، والياس نجم، واسماعيل زايد من أطباء المستشفى الرئيسي العسكري بعمان، وبعد أن أقسم الأطباء المذكورين اليمين القانونية جرى الكشف الخارجي على الجثة فتبين أن الجثة لرجل في الثانية والعشرين من العمر طوله **176** سم ممتلئ الجسم حليق الذقن والشارب أسود الشعر حنطي اللون له علامة فارقة في إصبع يده اليمنى «الأوسط» حيث أن السلامية الأخيرة مقطوعة من منتصفها قديماً.

وتبين بالكشف الخارجي أن التيبس الرمي كان كاملاً وشوهدت كدمات شديدة مع تورّم في العضدين والساعدين واليدين والظهر، وكدمتين مستطيلتين فوق عظم الترقوة كل واحدة في جانب، وكدمات تحت أظافر اليدين ونزيف تحت الأظافر.

وشوهدت كشوط فوق الصدغ الأيمن والخد الأيمن وشوهدت أيضاً كدمات على الفخذين والساقين والإليتين مع حروق نارية جافة متقاربة من بعضها البعض مختلفة الأشكال والحجوم تكسوها طبقة من القشرة الجلدية المتيبسة مع تورّم في أسفل الساقين والقدمين، وكدمات في راحة القدمين ممتدة من أعلى الفخذين إلى أسفل القدمين من الناحية الأمامية والوحشية، وشوهدت كدمات على الظهر وسحجات فوق اللوح الأيمن، وعمر هذه السحجات والكدمات جميعها حوالي الأسبوعين كحد أعلى، وبعد فتح الجثة تبين:

في الجمجمة لم تظهر آثار كسر أو نزيف داخلي فيها، في التجويف الصدري تبين وجود كدمة في أعلى القفص تحت موقع الترقوة اليسرى من الداخل، وكدمة أخرى في الخط الإبطي الأيمن عند موقع الضلعين التساع والعاشر من الداخل، دون أن يشاهد كسر في الأضلاع مع احتقان في الرئة وتضخم نسبي في حجم القلب.

في تجويف البطن شوهد احتقان في المرارة مع امتلائها بالمادة الصفراوية مع الاحتقان في الإثني عشري والقسم الأعلى من الأمعاء الدقيقة، وتكدم سطحي في أسفل الكليتين، وقد أخذت العينات التالية لإرسالها لطبيب الأنسجة لفحصها فحصا نسيجياً وهي القلب وقطعة من الكبد وقطعة من الأمعاء الدقيقة الاثنا عشر، المرارة، الكليتين.. وعيه نظم هذا الكشف تحريراً في **21/ 11/ 1958**).

تنتهي الرسالة التي وردت من الأردن هنا. ولكن صمود الشعب العـربي هنـاك لم ينتـه، وإن كان قد استشهد شامخ قبل أسبوعين، واستشهد الكثيرون قبله

إن كانت سجون عمان ومعتقلات الجفر تعج بالأبطال الذين يحاولون إسكات أصواتهم الحرة.. إن كانت المشنقة قد نصبت في يوم مضى لأبطال مثل أسطفان تيودور، وأحمـد محمـود إبراهيم، ثم تكسرت أمام إصرار الأحرار جميعهم.. إن كان كل ذلك قد حدث في الأردن من أجل اقتلاع الفساد والعبودية، فإن معنى واحد نستطيع أن نفهمه من ذلك كله: هو أن هنالك من يقوم بواجبه في معركة الأمة، وأن الأمة سوف تنتصر، وسـوق تـسحق النعـال الـصاعدة للشمس كل رأس وضيع يعترض الطريق.

رحمك الله يا شامخ، ورحم مناضلين يعيشون من أجل حرية العروبة فحسب.

الكويت، التاريخ غير معروف

قراءة في: العروبة

أولاً . لساطع الحصري

ساطع الحصري مفكر وفيلسوف عربي عاصر المشاكل العربية الكبرى منذ بدأت، أو منذ بدأ أكثرها، وعالجها بكتبٍ كان آخرها: العروبة أولاً!

يمتاز أسلوب الحصري بالبساطة والسهولة، وتمتاز مناقشاته بالتسلسل المنطقي، والبراهين المعقولة التي تؤدي غالباً إلى برهان قاطع لا يرقى إليه الشك يستمد منه خبرة عملية طويلة، ووعي قومي كبير، وإخلاص للقضية العربية منقطع النظير... لذلك كله، لم يكن مستغرباً أن تنفذ العشرة آلاف نسخة من«العروبة أولاً» بعد أسبوع واحد فقط من نزولها إلى الأسواق العربية...

ويقدم الفيلسوف كتابه بمقدمة قصيرة يجيب بها على سؤال كثيراً ما يسأل: ما هي الطريقة العملية لتحقيق الوحدة العربية.؟! ويجيب الحصري باقتضاب: إن أول ما يجب عمله هو إيقاظ الشعور بالقومية العربية، وبث الإيمان بوحدة هذه الأمة!

لكن من هم العرب..! إن كل عربي ينتسب إلى البلاد العربية. ويتكلم اللغة العربية هو عربي. والبلاد العربية هي جميع البلاد التي يتكلم سكانها العربية، والدول العربية الموجودة الآن لم تتكون بمشيئة أهلها، ولا بمقتضيات طبيعتها، إنما تكونت جرّاء المعاهدات المعقودة بين الدول التي تقاسمتها وسيطرت عليها... وهي وليدة الاستعمار: حديثه، وعارضة، والعرب أمة واحدة، وما المصريون والعراقيون والمغاربة إلا فروع لأمة واحدة هي الأمة العربية.

خلال الأشهر الأخيرة من سنة **1920** شهد التاريخ ميلاد خمس دويلات عربية على أراضي (الدولة العربية السورية) التي لفظت أنفاسها الأخيرة عقب ميسلون: دولة حلب في الشمال ودولة شرق الأردن في الجنوب وبينهما دول جبل الدروز ودمشق، والعلويين.

شهد التاريخ بعد ذلك قصة طريفة، دولة حلب كانت أقصر الجميع عمراً حيث عاشت 4 سنوات و4 أشهر فقط وامتدت حياة دولتا جبل الدروز والعلويين نحو عقدين من السنين بعد ذلك. لكن دولة شرق الأردن، عاشت إلى الآن، ولا يدري أحدنا كم سيمتد بها العمر بعد.! وهل هذا كله نتيجة حتمية لطبائع الأشياء، والمقتضيات الاقتصادية والبشرية مثلاً ؟! كلا! لا شيء من هذا على الإطلاق.. بل العكس، إن بقاء الأردن بهذه الصورة، وطول هذه المدة منفصلة عن سائر الدول العربية كان مخالفاً لطبائع الأشياء. ومقتضيات الأحوال. لنقارنها مع حلب مثلاً.. من الناحية التاريخية كانت حلب عاصمة لدولة عربية راقية لعبت دوراً هاماً في تاريخ الشرق الأدنى، في حين أن الأردن كانت تعيش على هامش التاريخ يومذاك.. كانت حلب ولاية قائمة بذاتها في العصر العثماني بينما لم يكن الأردن إلا متصرفية تابعة لولاية الشام. كان عدد سكان مدينة حلب وحدها يزيد على عدد سكان بلاد الأردن جميعها! وتمتاز حلب بأوضاع اقتصادية من حيث التجارة والصناعة والزراعة، تفوق مئات المرات حالة الأردن، فلماذا إذاً بقيت الأردن على قيد الحياة حتى الآن.؟!

لنبدأ القصة من أولها، عندما سيطر الفرنسيون على سوريا وقطعوها إلى خمس دويلات، كانت ولاية حلب شغلهم الشاغل، فأعلنوا للملأ أن فصل دولة حلب كان من رغبات الأهالي وخصائص البلاد، ووجدت فرنسا من عينته والياً على حلب، وبعد أربع سنوات رأى المندوب السامي أن يوطد أركان هذه الدولة بقرار يصدر عن مجلس تمثيلي، فأمر بإجراء انتخابات عامة لتأليف مجلس يقرر دستور دولة حلب، وجرت الانتخابات تحت مراقبة رجال الانتداب وبمعرفة رجال الحكومة الموالية لهم ـ بطبيعة الحال ـ وصدمت فرنسا عندما قرر هذا المجلس بالذات، وبإجماع الآراء، إنهاء الانفصال والاتحاد مع دمشق! ووافق المندوب السامي لأسباب سياسية بحتة تعود لمركز فرنسا في سورية، وانتهت قصة حلب!.

إما الدولة التي قامت في الأردن فقد سارت الأمور فيها سيراً مختلفاً، فإن بريطانيا عندما قررت خلق الدولة المذكورة لم تحاول أن تخدع الناس بالتكلم عن رغبات الأهالي، بل أعلنت حقيقة الأمر بكل صراحة في بيانات قالت فيها: «لما كان الاتفاق المعقود بين بريطانيا وفرنسا

يقضي بأن يكون جنوب خط سايكس بيكو في منطقة النفوذ البريطاني، لا الفرنسي، توافق الحكومة البريطانية على إنشاء حكومة عربية مستقلة في شرقي الأردن على أن تكون تحت الانتداب البريطاني دون أن تكون مربوطة بحكومة عموم فلسطين».

أما كون البلاد فقيرة، محرومة من موارد مالية تسد حاجاتها، وأما كونها متأخرة وكون عدد متعلميها قليل جداً، كل ذلك لم يحل دون تنفيذ الخطط التي وضعتها سياسة صاحبة الجلالة.. ولم تتأخر بريطانيا ـ بطبيعة الحال ـ عن بذل مقدار من المال في سبيل ضمان سيطرتها على هذه البقعة الاستراتيجية الهامة من الشرق الأدنى.

ثم يناقش الفيلسوف بعض الكلمات التي تنال خطأ غريباً من الانتشار رغم مخالفتها للحقائق، أولها: «أصفار» سعد زغلول...

قال سعد زغلول عندما سئل عن رأيه في الوحدة العربية: «إذا جمعت صفراً إلى صفر إلى صفر، فستكون النتيجة صفراً لا شك في ذلك.!» ثم يناقش الحصري الموضوع دون أن يتأثر بالسلطة المعنوية التي يتمتع بها صاحب التشبيه، هل كانت مصر صفراً عندما ثارت ثورتها الخالدة، وهبت هبة ضمت كل طبقات الشعب واضطرب الإنكليز لإطلاق سراح سعد ورفاقه.؟ قد لا يكون أدخل مصر في حساب الأصفار.

لكن سوريا، التي كانت تغلي يومذاك كالمرجل في صورة كهرج اللهب، واضطرت الفرنسيين لحشد مائة ألف جندي هل كانت صفراً حقيقية.؟! والعراق الذي اضطر الإنكليز للتخلي عن فكرة جعل البلاد مستعمرة تابعة لمستعمراتها الهندية.. هل كان صفراً أيضاً..؟

لا! لقد كان سعد مخطئاً.. صحيح أنها لم تصبح، أو لم تكن آحاداً تامة، لكن هناك أرقام لا يحصرها العد بين الصفر والواحد (المتناهية في الصفر) تعمل عملها الهائل في الهندسة الكهربائية والميكانيكية!

وهناك أمر آخر أجدر بالاهتمام: إن الجمع لا يشبه الاجتماع وإن شاركه في الاشتقاق اللغوي.. إن الاجتماع يتضمن تفاعلاً يحدث بين الأجزاء أشبه ما يكون بالتفاعل الكيماوي الذي يخلص شيئاً جديداً يختلف عنصراً عن الشيء الأصلي...

ورغم هذا أيضاً إن اتحاد شعوب الأمة الواحدة أكثر تفاعلاً وأشد تنوعاً من الحوادث الكيماوية وهو لا يكون أيضاً كضم عدد إلى أعداد بصورة حسابية ولا ربط الأشياء ببعضها بطريقة ميكانيكية.

فالاتحاد الجمركي الذي كان حجراً أساسياً في الاتحاد الألماني، هل كان يعني ضم واردات جمرك هس وجمرك ولدار، وجمرك مشتات مثلاً إلى واردات جمرك بروسيا.. بالطبع لا، لكنه كان يعني إيجاد نظام الزولفرين الجديد.. الذي أدى إلى القوة الاقتصادية الألمانية الهائلة!

بعد هذا كله، علينا أن نكف عن اعتبار أنفسنا أصفاراً، وعلينا أيضاً أن نكف عن الاستشهاد بهذه الكلمة في قضايا القومية العربية، ولو كانت الكلمة المذكورة من بنات أفكار سعد زغلول الخالد.

قال عبد الرحمن عزام بعد فشل الجامعة العربية:«إن الجامعة العربية، أو الأمانة العامة ما هي إلا مرآة الدول العربية، والأحوال التي تشاهد فيها ما هي إلا ما ينعكس عليها من أحوال البلاد العربية.»

وبالتالي يسأله الحصري إن من أي نوع هذه المرآة هل هي مستوية أو مشوهة أو مشوهة أو مقعرة أو محدبة وأيها استعمل عزام منذ تأسيس الجامعة.؟ ومن ناحية علمية أخرى هل يجوز للأمانة العامة أن تكون مرآة... ومرآة فقط.؟ فالحصري يؤكد أن المهمة التي عهد بها للأمانة العامة تتطلب منها أن تكون من الآلات المحركة لا من الآلات العاكسة تكتفي بعكس الأشعة الواردة! يقول الحصري:

(أنا أفهم أن تحجج عزام بأحوال الدول العربية في كثير من القضايا، وإن كنت أجزم بأنه هو أيضاً كان يشترك في مسؤولية معظم تلك القضايا بوجه عام، ويتحمل معظم المسؤولية في بعضها لكنني لا أفهم بوجه من الوجوه كيف يستطيع أن يدافع عن نفسه بحشر أحوال البلاد العربية في غير الأمور السياسية، ولاسيما في أمور الإدارة الداخلية العائدة إلى الأمانة العامة نفسها.. أول ما بدأ عزام توافرت لديه جميع شروط النجاح ووسائل العمل المادية والمعنوية،

لكن ماذا عمل عزام، كيف استعمل هذه السلطة، وهل قدر خطورة المهمة التي تعهـدها تمـام التقدير، هل أظهر في أعماله شيئاً من قدره التنظيم، وفي خطبه شيئاً من نفاذ النظر.؟)

أسس عزام إدارة من أسوأ الإدارات التي عرفتها في مختلف البلاد العربية ووضع تقاليـد مالية من أسخف ما يمكن أن يخطر على بال وركز جهـوده عـلى المـسائل الـسياسية وحـدها. والسياسة هذه، كيف فهمها عزام.؟

مع الأسف أنه توهم أنها تعالج بالخطب والأحاديث المرتجلة وحدها فلا تحتاج للبحـث والدرس والاستقصاء، والوثائق والمعلومات كان آخر ما يثير اهتمام عزام وأقل مـا يمكـن أن يحصل عليه الباحث في الدوائر التي أنشأها عزام!

وبعد... هذه الأمور أعتقد أنها ليست مجرد انعكاس عن الدول العربية.

التطبيقات الثورية للقومية العربية

إذا اعتمدنا القوميّة على أنها الشخصية الجماعية للأمّة العربية، الشخصية المتكونة من رواسب تاريخيةٍ حضاريةٍ واحدة، المرتبطة بلغة واحدة وتفكير واحد، المعبرة عن نفسها بشعور مشترك وأمل موحد، المتحدية لأزمتها بألم موحد وبقوة واحدة، التوّاقة لمستقبل كريم عبر المصاعب الماثلة بنَفَسٍ واحد..

إذا اعتمدنا القوميّة على أنها الواقع الجماعي للأمة المبتدئ بهذه المظاهر كلها، يصير من اللازم علينا أن نرفض أي تجزيء متعمّد، أو غير متعمد لهذا الوجود الصحيح، ونلتزم، تلقائياً، بتحدي أي طراز من القوى التي تضمن استمرار سيطرتها علينا باستمرار بُعدنا عن هذا الوجود الصحيح، وهكذا فإن من الطبيعي أن تتحدر تقدمية أي نضال بمدى ما يقربنا من هذا الوجود، وبقدر ما يتحدى الأزمة، في سبيل الخلاص منها.

لقد كان كل نضال لا يعتمد هذا المنطلق البديهي نضالاً ناقصاً ولا يؤدي إلاَّ إلى الوقوع في الأزمة من جديد، حتى الحركات النضالية التي نجحت في عمليات التحرر السياسي الإقليمي، ووقفت عند هذا الحد، دون أن تنتهج الوحدوية كهدف طبيعي للبناء الثوري.. حتى هذا النجاح كان تحدياً للقومية كواقع تاريخي، وكان، من ثم، عرقلة متقصدة، أو غير متقصدة، لاكتشاف العربي لذاته السويّة، أي لاكتشاف تحرره الصحيح.. كان عرقلة بمقدار ما أخّر الوحدة ووقف في طريقها، وكان عرقلة بمقدار ما برر لنفسه هذا التأخير بنفي القومية كواقع ينمو فيه النضال السليم المنتج.

لقد وجد النضال العربي نفسه حينما وجد منطلقاته البديهية، وتحدد في هذا الإيجاد النهج المسلكي لعملية الكفاح. لقد كانت هذه المنطلقات البديهية هي الأسس الأولى للشخصية العربية، وكان إيجادها ضرورياً بقدر ما يجب أن يكون ضرورياً ارتقاء النضال من مستوى

الارتجال أو التقليد إلى مستوى التفاعل الكامل مع المجتمع العربي الحاضر، بل كان من الضروري، والأساسي، أن يبدأ النضال العربي بالذات في وضع هذه المنطلقات لبناء الشخصية الخاصة، ولرسم دورها التاريخي القادم.

لقد ميّز الاتجاهُ الوحدوي في النضال العربي طرازَ هذا النضالِ ونوعيته، وميزت ثورية هذا الاتجاه أسلوب العمل النضالي، وقام في أداء الدور التاريخي إنسان المعركة العربي دون استعارة أو تهرب. وهكذا فالنضال العربي تقسم من حيث الخطوط العريضة إلى منطلق، وخطة، وأداة تميز فيها المنطلق بالوحدوية، وتميزت الخطة بالثورية، وتميزت الأداة بطراز جديد، مسؤول، من إنسان المعركة.

1 . الوحدويّة كمنطلق:

لقد كانت الوحدة مجرد استجابة سليمة لطبيعة التكوين السليم، بل كانت تسلسلاً منطقياً لإيمان العربي بأن الأمة العربية أمةٌ واحدة، وهذا الإيمان يستلزم، بالطبيعة، الإقرار بحق هذه الأمة الواحدة في أن تتمتع بهذه الوحدة، والإقرار، أيضاً، بأن الوقوف في وجه هذا السعي هو وقوفُ باطلٍ في وجه الحق الضروري.. إن الإيمان بالأمة، والإيمان بحقها في حياة سويةٍ سليمة يستدعي بالضرورة رفض أي مقاييس مادية لهذه الوحدة بمقياس المنفعة هو نفي للإيمان الحقيقي بالأمة، هو تشويه لقدسيّة الهدف الضروري، بل وأكثر من ذلك، إن عرض الوحدة للاقتراع من أجل الموافقة أو عدم الموافقة ـ رغم أنه ضروري من أجل المظهر القانوني، والموقف الدولي السياسي ـ إن هذا الاقتراع هو انتهاك لشرعيّة الوحدة من حيث هي واقع بديهي ورابطة حتمية بين أبناء شعب واحد، بل إن هذا الاستفتاء يعتبر، من وجهة النظر القوميّة العقائدية النظرية، تشكيكٌ بصحة النضال العربي منذ أن انتهج الوحدة طريقاً لعمله المنتج... فلو استطاعت فئة سياسية منحرفة، على سبيل الفرض، أن تتحكم في الرأي العام الإقليمي بواسطة وسائلها الخاصة في الدعاية والتأثير، وتشحنه طوال ساعات الاقتراع

بالشكوك وبالدس، فليس معنى هذا أبداً أن الوحدة العربية فقدت شرعيتها، وأن النضال الطويل من أجلها إنما كان نضالاً خاطئاً وغير متجاوب مع متطلبات المعركة، بل يعني، أول ما يعني، أن العهود القاسية من التجزئة قد أفسحت أمام المنحرفين والمضللين فرصة للطعن بقومية العربي، والدسّ المغرض في أثمن ما يطمع إليه وأقدس ما يأمل.. وإن التجزئة، من حيث هي تمزيق للشخصية الحقيقية للأمة العربية، هي المسؤولة عن الانحراف، وأن الوحدة تبقى، ولسوف تبقى، الحل الوحيد من أجل محو أخطاء التجزئة والتفكك.. وشرعيتها البديهية تكمن في كونها نقيض للتجزئة التي سببت مثل هذا التشكيك في ماهية الإنسان العربي وفي شخصيته الجماعية.

وهكذا، فإن النضال العربي يصر على الوحدة كمنهجٍ طبيعي وأساس للحركة التي نستطيع أن ندعوها «بحركة الخلاص»، ويرفض، بالتالي، أية محاولة لتمزيق المجتمع بالكراهية الطبقية، أو بالتطاحن الطائفي، أو بالتكتلات المستوحاة من الاستراتيجية العالمية.

إن المد الوحدوي هو مد تقدمي بطبيعته، يعتمد السلام الاجتماعي أنموذجاً للتطور الاشتراكي، ومعنى من معاني التماسك القومي في خطر العواصف العالمية الضاجّة حول حدود المنطقة.. لقد جرّب مجتمعنا العربي، فيما كان يختبر وسيلةً من أجل انتهاجها في حركة خلاصه، كافة الوسائل التي جربتها المجتمعات الأخرى. ففشلت المطاحنات الطائفية في سَوق المجتمع إلى الطمأنينة، وفشلت التكتلات الحزبية التي كانت مجرد انعكاس آلي لتخطيط الاستراتيجية الغربية أو الشرقية.. وفشلت، أيضاً، المحاولات التي أراد بها الشيوعيون أن يبتعثوا الحقد الطبيعي والذي يؤدي ـ بالضرورة الماركسية ـ إلى الصراع والتناقض داخل المجتمع الوالد، وبقي المجتمع العربي محافظاً على تماسكه الاجتماعي المذهل، لم تحركه أيةُ كراهية، سوى الإجماع شبه المطلق على كراهية المستعمر، وأذناب المستعمر، ولم يحركه أي توقٍ طبقي معين، بل حركة توقٌ وحدوي يحقق خلاله كافة لوازم الرفاه والطمأنينة.

من هنا، برهن المد الوحدوي على تقدميته فيما عجزت التحركات الإقليمية، والطائفية، والطبقية من أن تتحرر من فشلها والدخول إلى صلب حركة الخلاص العربية.. وبقيت على هامش المعركة في حين أن الوحدة خطت أولى خطواتها ـ وهي الخطوة التي قيل عنها أنها بداية، مجرد بداية، لرحلة الألف ميل ـ عندما حققت الجمهورية العربية المتحدة، وعندما بنت ذلك الترس الذي ارتفع جباراً، بعدئذٍ، في المنطقة كلها.

2. الثورية كخطة:

إن رفض التجزئة كنتيجة طبيعية لطلب الوحدة حدد المفهوم الثوري لخطة حركة الخلاص العربية، هذه الثورية التي تلخصت بجمل قصيرة من طراز: «لا حل وسط ولا مساومة في الحق..» ومثل «لقد انتهت سياسة خذ وطالب» وأيضاً مثل: «لا يمكن أن يجدي أي حل سطحي، الحل يجب أن يكون جذرياً» وبهذه الجمل القصيرة نستطيع أن نحدد مفهوم ثورية المعركة، وأيضاً، الطريقة المائعة التي كانت تعتمد قبيل انتقال المعركة إلى طورها الجدي الأخير، لقد كانت السوق السياسية، فيما سبق، تتعامل بعملة من طراز: «خذ وطالب» و»حلول وسط» إلى آخر ما هنالك من ترقيع، ولقد جر هذا النوع من المفاهيم المائعة هزائم ونكسات متتابعة، تتبعها الساسة العرب على أنها «ميكيافيلية» غربية، بينما فسرها الغرب على أنها «غباء شرقي» وبين التفسير العربي الخائف، والتفسير الغربي الساخر، كانت تضيع قضايا الأمة العربية في أروقة السفارات البريطانية، ودور الاعتماد والانتداب، والعواصم المستعمرة، والفنادق التي اتخذت مقرات دائمة للمشاورات التي لا تنتهي، وللترقيعات التي لا تسد الثقوب على الإطلاق.

وهكذا، كان لابد من انتهاء هذه المهازل بطريقة من الطرق، وكانت الثورية في السياسة، والتي فرضها مطلب الوحدة أولاً كمطلب ثوري في ذاته، هي نقطة البداية في قلب المهازل إلى انتصارات.

متى بدأت هذه السياسة؟

في الحقيقة إن مثل هذه الأشياء«لا تبدأ» ولكنها تتوضح وتستقيم، ربما كانت السلسلة من النكسات التي رتبها الغرب بأناقة بالغة، بدءاً من نكسة حسين إلى وعد بلفور هي التربة الصالحة التي أوجدت هذا الطراز من التفكير، ولكن مما لاشك فيه أن الخط الطويل من النازحين، الخط الذي تشكل من مليون نازح غادروا أراضيهم حاملين معهم كل معاني الفشل، والكبرياء الممرغ بوحل الساسة المائعين.. لاشك أن هذا الخط الطويل المنهك من المشردين الجائعين هو الذي انتزع هذا الأسلوب في النضال انتزاعاً، وهو الذي قدم الإقناع الأخير بجدواه وبضرورته، بل هو الذي سقاه بالدمع وبالدم من أجل أن يكتسب التجربة والإصرار...

لقد كانت ثورية المعركة القومية نتاجاً للتجارب العربية، أولاً وأخيراً، ونمت هذه الثورية شيئاً فشيئاً بين أنقاض النكسات التي جرتها سياسة الحل الوسط«خذ وطالب».. إن ثورية حركة التحرير الجزائرية، مثلاً، ليست سوى التجاوب الطبيعي مع تجارب الجزائر الطويلة من أجل نيل الحرية.. وهي، أيضاً، ليست سوى التخطي الضروري لكافة النقائص التي كانت تجرها عدم ثورية التحركات السابقة.. وهكذا، فإن الثورية كانت نتاجاً حياً لتفاعل حركات التحرير مع مطالب الناس، وكانت تعبيراً طبيعياً أتى كردة فعل للانتكاسات المتلاحقة التي تعرضت لها المنطقة كلها منذ بدء عصر النهضة حتى تأميم قناة السويس.

وهكذا فلقد التزمت الوحدة بالثورية منذ أن هبطا«حزب الوطني والوحدة» المعترك العربي، والتزمت الثورية بالوحدة كمطلب أساسي في القضية.. ولكن ما هي الثورية بالضبط؟ ولماذا توصف خطة ما بأنها ثورية في حين أن كثيراً من الخطط لا توصف بهذه الصفة؟

الثورية هي تعجيل بدفع التطور كي يعوض فترات الركود والصمت، هي ضغط الزمن ووضعه في سلطة التنظيم بدل أن يكون العكس في حالات التطور الطبيعية.. هي رفض لكل تأجيل وتسويف، وهي قضاء عنيف، وحاد، على كل ما من شأنه أن يعترض طريق التطور السريع، هي، بكلمة موجزة، اختصار الزمن من أجل اللحاق بالموكب دون الوقوع في أخطاء جديدة.

وعلى هذا فإن الثورية لا تتعارض مع التطورية مطلقاً، بل هي تركيز للتطور واسترداد ما فات منه هدراً، هي، من وجهة نظر التطور، نسف لما هو كائن من أجل بناء ما سيكون دونما حاجة لترميم وترقيع ومساومة.

وهكذا فإن طرح الوحدة، كمطلب ثوري هو نسف للتجزئة ورفض مطلق لما سوى الوحدة.. هو تصحيح نهائي، لا ترميم جزئي، تصحيح يقوم على البناء من جديد لا على تدعيم الأجزاء بأربطة واهية من تشاريع الجامعة العربية العجوز.

ولكن كيف يمكن للخطة الثورية أن تنجح إذا كانت، كما نفهم مما مر حتى الآن، مجرد رسم للنهايات دون الاهتمام بوضع التفاصيل.؟ وبصورة أخرى: كيف يمكن لخطة لا تتصف بالمرونة أن تحقق أيما انتصار في هذا السبيل المتلاحق من الأحداث العالمية؟

إن الباعث على مثل هذه التساؤلات هو عدم فهم الثورية مقترنة بالمرونة، وفي الحقيقة إن المرونة هي عنصر ضروري من عناصر الثورية، بل إن الثورية تكون شيئاً جامداً أشبه بالتطرف الفوضوي إن لم تقترن بالمرونة كعنصر ضروري يوفر إمكانية التطبيق.

والحقيقة إنه لا يمكن لنا أن نفهم الخطة الثورية إلا إذا استعرنا التعبيرات العسكرية المعتمدة في معركة أو في ثورة.. إذ أن أية خطة ثورية تقوم على مفهومين أوليين هما: الاستراتيجية، والتكتيك، وهما نفس التعبيرين المعتمدين في التحركات الحربية.

يعني الثوريون بالاستراتيجية الخطوط العريضة، والأهداف الكبيرة من المعركة، بينما يعنون بالتكتيك التفصيلات الصغيرة التي يجب إدخالها تحت هذه الخطوط العريضة بناء على إصرار الحاجة إليها. وهكذا فإننا نستطيع أن نفهم المبدأين الأساسيين للخطة الثورية، والذين يحفظان للثورية هذه المرونة اللازمة لاستمرارها واستمرار مكاسبها.

الاستراتيجية، على هذا، هي الضبط العقائدي للمعركة، هي ضمانة المعركة العقائدية.. ضمانة عدم انحرافها عن المبادئ وعن المنطلقات وعن الأهداف التي نشأت منها وبغية تحقيقها وتنفيذها، بينما يعني التكتيك التلاؤم المرحلي مع ضغط الواقع الماثل كي يصير بالإمكان

اجتيازه.. يعني، من وجهة نظر الخطة، وسيلة لتنفيذ الآنية، وإمكانية التخطيط المتلائم مع الحاجة والظروف، وهكذا فإن الاستراتيجية والتكتيك هما نقل المبادئ إلى حيز التطبيق بصورة لا تفقد هذه المبادئ تماسكها، ولا مرونتها وإمكانيات تطبيقها.

فالثورية ـ إذن ـ لها منهجها التطبيقي الخاص، وهو يضمن للمحتوى العقائدي التماسك الضروري ثم إمكانيات التطبيق المرن.

لقد نهجت المعركة الثورية للمد الوحدوي على استراتيجية واضحة، تلخصت، تلقائياً، بأنها الهدف الذي تسعى له الأمة العربية في أن تعيش موحدة كما تقتضي طبيعة تكوينها، وبأن تؤمن الرفاه والعدالة الاجتماعية لكل من يعيش على أرضها، وبأن تقوم بدورها الإنساني في عالم متصارع منهك، هذه الخطوط العريضة ليست سوى المحتوى الثوري لخطة المستقبل، إننا لا نستطيع أن ندعي أن تطورات المعركة العربية كانت مربوطةً بتنظيم حزبي كامل، وأن الانتصارات المتوالية كانت نتيجةً لوعي ثوري مخطط، فهذا شيء أكبر من أن تتحمله أحزابنا التي كانت حافلة بالثقوب وبالفوضى، ولكن مما لا شك فيه أن المعركة ـ كانت ما كانت الأسباب ـ قد تقديت بخطوط هذه الاستراتيجية إلى حد بعيد، فارتبط نضالها بالوحدة ارتباطاً عضوياً، وهدفت إلى العدالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية باستمرار، وانتهجت الحياد كوسيلة إيجابية للمساهمة في بناء التعايش العالمي المسالم، متمشيةً في ذلك كله مع الاستراتيجية التي تحدثنا عنها، والتي يبدو لنا جلياً الآن أنها من وضع الرغبة الشعبية الدافقة والتي عبرت عن نفسها بمختلف الصور خلال العشر سنوات الماضية...

الاستراتيجية، من حيث التفصيل، مبنيّةٌ على أربعة عناصر أولية ينبغي تحديدها كي يصير بالإمكان وضع التفاصيل:

أولاً: الهدف. ثانياً: القوة المناضلة الرئيسية. ثالثاً: العدو. رابعاً: وسيلة المعركة.

ولقد تحددت هذه الأسس الأربعة تحدداً شبه كامل، تحددت ـ وقد يكون هذا غريباً ـ لا بالتنظيم الحربي، ولكن بضغط طبيعة المجتمع وحساسيته، والتي عبر عنها بشتى الوسائل..

تعد تحدد الهدف ـ أولاً ـ بوضوح: كان الوحدة الكاملة بلا مساومة، كي يصير بالإمكان وضع الإنسان العربي في الاكتمال الوجودي الطبيعي له والضرورية لرسالته وتحددت القوة المناضلة ـ ثانياً ـ بأنها قوى الشعب كله، دون أي عزل طبقي أو تقطيع اجتماعي أو طائفي، وتحدد العدو ـ ثالثاً ـ بأن الاستعمار والمنحرفون والانتهازيون والعملاء، وتحددت وسيلة المعركة ـ أخيراً ـ بأنها الوقوف الشجاع، والصريح، من قبل الشعب كله في وجه الاستعمار وأذنابه دون أن يتمزع ثقل المعركة في صراع طبقي جزئي أو كلي، ودون أن يشوه المعركة نزاع طائفي أو عرقي، ودون أن يستعان على الأعداء بالانحياز إلى معسكر من المعسكرات والدوران في فلكه.

وهكذا فإن الثورية قد فرضت على المعركة التزامات مسلكية رمت بثقل الكراهية كله إلى الأعداء المستعمرين، فوفرت السلام الاجتماعي المطلوب لمثل تلك المعركة القاسية، والتزمت الحياد الإيجابي وسيلةً وحيدة لإثبات الأسس الشخصية الحديثة للأمة العربية، على حين طالبت بالوحدة بكل صلاة ودون أن تترك مجالاً لأي ترسخ إقليمي انفصالي لكي يثبت نفسه على حساب تشويه المعركة بصراع طبقي، أو نزاع طائفي، أو انحياز عالمي..

بهذه الخطوط العريضة، ارتسمت حدود المعركة وساحاتها، وكونت ما يدعوه الثوريون بالاستراتيجية... في حين أن التكتيك يختلف عن ذلك بأنه يتطور، ويتغير تبعاً للحاجات الإقليمية الطارئة في كل قطر عربي.. ولكنه أبداً لا يخرج عن الإطار الكبير الذي تحدد فيما سبق... بل إن تغيره كله عبارة عن وسائل انقلابية من أجل تحقيق الأهداف البعيدة، أو الاقتراب منها على الأقل... فحينما كانت معركة الوحدة بين سورية ومصر ما قبل الوحدة كان شعار الوحدة يدوي فوق كافة الشعارات التكتيكية الأخرى.. بينما كان يرتفع في الأردن شعار التحرر من الاستعمار الإنكليزي، إلى جانب شعار الوحدة كمطلب دائم تفصيلي ونهائي وضروري.. وكانت الجزائر ما تزال ترفع شعار التحرر، وعُمان شعار الثورة حيث نلاحظ بجلاء، هنا، الانسجام بين الأهداف الكبيرة، وبين الوسائل الطارئة من أجل تحقيقها، فالثورية، إذن، كانت منسجمة كل الانسجام مع الرغبة في تحقيق الذات العربية.. كانت

اقتلاعاً واعياً للفساد المترسخ تحت ضغط التجزئة والاستعمار، وكانت، ومازالت، الطريقة الشعبية والمجدية لكل الطوارئ الغربية على المجتمع العربي الواحد...

وهكذا فإن ثورية المعركة قد تحددت بتبني الوحدة كمطلب استراتيجي - تكتيكي في آنٍ واحد تندرج تحته كافة الشعارات الأخرى بسببٍ من أنه الوجه التطبيقي الوحيد للقومية العربية الواحدة.. كانت الوحدة هي صلب الاستراتيجية، ولكنها، أيضاً، هبطت إلى التكتيك كي تعطي التحرر معناه الكامل، وكي تعطي كل تحرك تكتيكي صفاته الوحدوية الأساسية.. لقد تحددت - بالتالي - أهمية هذا المطلب حين عارضه هواة مناطق النفوذ، وحين ظهرت منافعه السريعة في التكتل، وفي دعم المبادئ الأساسية كحركة الخلاص العربية.. لقد تحددت الوحدة - إذن - كهدف تقدمي وضروري، وانعزلت بالتالي، أو يجب أن تنعزل كل حركة لا تندرج في نضالها تحت هذا المطلب الأول.

لقد فهمنا من الثورية أنها الوسيلة الجدية للقضاء على المصلحيين والانتهازيين والمستعمرين وهواة مناطق النفوذ، وأنها الوسيلة الوحيدة التي أجدت في صراعنا مع الأزمة.. بل إن الثورية - من حيث المفهوم النضالي - هي ردة الفعل الشعبية للنكسات المتلاحقة التي منينا بها، نحن العرب، خلال سنوات طويلة من القسوة والظلم والتجزؤ.

نستطيع اعتبار الاستراتيجية خاصة لكل معركة ومع هذا فإن الوحدة والتحرر والثأر تعتبر مطلب استراتيجي للمعركة السياسية ولكنه تكتيك المعركة القومية ككل.

3 . إنسان المعركة «الاستراتيجية والشعار»

هو الاستيقاظ ولاشك، انعكاس إيجابي للأمة، لذلك فهو يحتوي لكافة تناقضاتها ونوازعها لأنه صورة من عينها، هو الوليد البكر للصعود العربي في معركة الخلاص لذلك فهو يتحمل أخطاء الوليد وانتكاساته بكل صبر، ويتغذى بانتصاراته ويفرح لها بكل توازن وطموح... هو الوجه المشرق، والمشرف لليقظة الدافقة وهو يمثل الإنسان المتمرد على التقاليد

الانهزامية، والضارب بكافة اللوازم الأنانية عرض الحائط، والمندفع إلى خدمة الأمة بكل ما لديه من طاقة، هو بصورةٍ أوضح، متصوف الثورة المناضل، أي هو العقيدة المجسدة بحد ذاتها.. ولقد حدث ارتقاء الأفراد إلى مرتبة المناضلين بصورة متشابهة، فهنالك، لا شك، التمرد على العائلة التي تكرر بجمود عائلة القرن الماضي، وهنالك، بادئ ذي بدء، التحرر من الملذات التقليدية للشباب الانهزامي، ثم يبدأ، من ثم، الانصهار العنيف في بوتقة المعركة حيث يستبين بجلاء المناضل الحقيقي، المنقطع لتجسيد العقيدة تجسيداً حياً عن المناضل المزيف، المستعرض لنضاله كي يكتسب مزيداً من العشاق والمعجبين، إن المناضل العربي الحديث هو التخطي الثوري لميوعة الجيل الناشئ في أحضان الانهزامية والفشل، المتغذي بتربية مائعة خوافة، والمرتبط بالتصرفات التقليدية لشباب الجيل، وهو، من ناحية أخرى، يناضل عن قناعة وجدانية، لا عن اندفاع فوري، سالكاً في نضاله الطريق الصاعد بالإخلاص الذي ينشأ عن تمثله للعقيدة وفهمه لها.. لقد انتهى دور المناضل الثرثار، مناضل الصالونات، وانتهى، بالتالي، دور المناضل المنفوخ بغرور يتناسب وعدد العائلة والأصدقاء، لقد ارتفع النضال عن كونه طفرة حماس تنتهي بعد أن تَفْرُغُ شحنة الأزمة العابرة.. وحل النضال الواعي، المتمثل كتفكير متكامل، المرتبط بتنظيم ثوري، المسؤول أمام الشعب والتاريخ، والملتزم بالنضال ـ أولاً ـ بينه وبين نفسه.

أيعني هذا، إن مناضلي الجيل الماضي، أو بعضهم على الأقل، كانوا ليس ذوي غناء على الإطلاق؟ إن الجواب سوف يكون أن حتماً لا... فنحن لا نطلب من الجيل الماضي أن يتبنى أهداف الجيل الحاضر، ولا يمكننا أن ننسى، أيضاً، أن الدرجة الأولى في السلم كانت من صنعه، ولذلك، فلقد كان لابد من التجربة أن تمر خلال هذا الطراز من النضال.. نضال الأشخاص الذين يخلصون للقضية حتى الفيض، والذين يكونون على أتم استعداد لتقديم كل شيء للثورة.. ولكنهم لا يمتلكون، رغم ذلك، خطة العمل أو ترتيب الخطوات

للمستقبل.. لقد كان الإخلاص يدفعهم بصلابة لا توصف إلى أقسى معركة متصورة.. ولكن هذا الإخلاص لم يكن يكفي لكي يعرفوا ماذا يتعين عليهم أن يصنعوا إذا ما انتهت المعركة.. وهكذا، شهد العرب في مطلع القرن الحالي مجموعة غزيرة من الزعماء المخلصين، المخلصين إلى حدود أسطورية.. ولكنهم، في الآن ذاته، عاجزون عن خطو أية خطوة للأمام، لأن هذا الفيض من الإخلاص لم يكن في الحقيقة يعني التمثل الكامل للمشكلة من جميع جوانبها، كان طفرة من التجاوب الصادق، والسطحي، ليس غير.

في أنقاض هذا الطراز من المناضلين، نبت المناضلون الحاليون الذين يعيشون في«لحظة الانتقال إلى مهرجان الشروق بعد الليل الموحش الطويل...» كان النضال، بالنسبة لهم يعني الجواب على أسئلة كثيرة.. صغيرة ولكنها أساسية:«لماذا؟» و«إلى أين؟» و«كيف؟» وفي حدود الأجوبة كان يلتزم المناضل بالمنهج.

هل يعني هذا الكلام أن جميع مناضلي هذا الجيل هم ملائكة يتوشحون بالعقيدة ويعيشون بالتصوف الثوري الجديد بالمعركة؟

إن عصرنا، عصر الرياضيات والمخبر، يميل إلى التصنيف ميلاً متصلاً، ولذلك، فإن المراد من مثل هذا السؤال هو تصنيف الناس إلى قسمين، ووضع البطاقات على كل قسم كي يتيسر الإحصاء. بينما ترفض الحياة ـ في تشابكها ـ مثل هذا الانقطاع بين الناس، وترفض، أيضاً، الانقطاع في الزمن... أي أننا لو أردنا الأشياء جاهزة، ومصنفة لما وجدناها قط.. إن الحقيقة، حتى الحقيقة، لا توجد جاهزة هنا أو هناك.. بل ربما لا توجد على الإطلاق، وإن وجدت فقد تكون مزروعة في الأكاذيب وملوثة بالخداع، ويستلزم اكتشافها زمناً وجهداً.. ولذلك، فليس مناضلونا جميعهم ملائكةً يتوشحون بالعقيدة ويعيشون في التصوف الثوري الجديد بالمعركة.. بل إنهم ـ على لغة الرياضيات أيضاً ـ يشكلون مستقيماً يبدأ في الماضي، وينتهي في الحاضر، ويضم هذا الخليط الرائع من الملتزمين لاستقامة التيار الصاعد.. على أن

الذي يلهمنا من هذا المستقيم هو طليعته.. لقد حملت هـذه الطليعـة كـل الرسـالة.. ونـاءت بالثقل المطلوب لمعركة قاسية طويلة مثل معركتنا، واستمرت ـ بكل ما في كلمة الاستمرار من إصرار ـ في النضال المرهق عبر سلسلة من الأزمات المتشابكة المعقدة..

إن التاريخ، والمنطق أيضاً، لا يقبلان الانقطاع، ولكننا لا نستطيع أن نتغاضى بأي حال، عن هذا البون الشاسع بين ما أسميناه طليعة، وبين بقية المجتمـع، لقـد كـان فرقـاً مـن طـراز جديد.. وانقطاعاً ذا لون غريب.. كان تحرراً شخصياً من ضغط المجتمع المـريض، والممـزق، اللاهث، والذي يرتعش بكل معاني الألم، وكان ـ في المدى الناضج ـ مسؤولية الوعي الثقيلـة، حملتها الطليعة بكل صلابة وبطولة...

لقد دفع المناضلون ثمن وعيهم بجدارة، وقادوا المعركة مجـسدين المثـل التـي آمنـوا بهـا تجسيداً كاملاً فعالاً، لقد دفعوا ثمن سنوات النكسات والهزائم والأمـراض، بـل دفعـوا مـن دمهم وأعصابهم عجز التنظيم عن خوض المعركة.

هنا، كما يبدو لأول وهلة،تناقض فـظ، لقـد قلنـا، قبـل قليـل، إن الـشعب قـد فـرض تخطيطات المعركة وأهدافها ووسائلها فرضاً.. ذلك أن التنظيم الحزبي كان عاجزاً عن القيـادة المنظمة، وها نحن نقول هنا إن الطليعة ـ وهي جزء يسير من الشعب ـ قد دفعت ثمن عصور النكسات التي عاشها المجتمع ممزقاً مريضاً.. وأنها هي التي قادت المعركة، ومهرتهـا بـدمجها، فكيف نبرز مثل هذا التناقض؟!

في الحقيقة، إن ليس هنالك أي تناقض.. فالقضية متشابكة معقدة.. لقد كان هنالك نوع من التجاوب والتبادل بين الطليعة والشعب بل كان هنالك ارتباط عضوي مـن طـراز رائـع، وهذا شيء طبيعي، وضروري، لقد كان الشعب،«يفرض ما يريد»، أو عـلى الأقـل«يريـد مـا يشعر أنه بحاجة إليه» وكانت الطليعة تجسد هذه الإرادة وتعبر عنهـا حـين يعجـز الـشعب ـ بحكم طبيعة السلطة الحاكمة، أو بحكم النفسية الانهزامية اليائسة ـ عن التعبـير عـن ذلـك..

كان هذا التداخل في القضية هو سبب نجاحها.. لقد كانت بطولة الطليعة في التقاطها لأنـات الألم المتصاعدة من أكداس الناس وتحويلها إلى صيحات ثورية.

إلا أن البطولة الحقيقية للطليعة كانـت في أنهـا اسـتطاعت أن تـصمد في هـذا العجـيج المتلاحق من الأحداث، وفي أنها استطاعت أن تنتصر رغم هذا الخليط مـن مـدعي النـضال.. والذي كان يشكل قواعد معظم الأحزاب لدينا.. أولئك«العارضـين» للأفكـار الثوريـة كـما تعرض عارضة الأزياء ثوباً ليس لها.. لقد كان أولئـك العارضـون يـشوهون الأفكـار التـي يحملونها.. كانوا ينتهكون حرمة المعركة القاسية بالتبجح والغـرور والادعـاء... وأن تنتـصر الطليعة رغم أولئك الدخلاء الذين يسيئون للمعركة وللمبادئ، بطولة لا شك فيها...



ماذا يراد من كل هذا النضال الثوري؟ عـن أي مـستقبل نبحـث؟ ألا يـؤمن لنـا تطـور الإنسانية المنظم جواً ملائماً لحياة مسالمة؟

يبدو أنه من المستحيل في هذا العصر أن تجد الأمم حظوظها عـلى قارعـة الطريـق.. بـل يتعين عليها أن تنتزعها من فك عالم متأزم قضت فيه الآلة على كـل مفهـوم خلقـي وازع.. إن الانتظار لن يجدي شيئاً في هذا العصر وهو ليس إلا هروبـاً مهـذباً مـن دخـول معركـة الحـق والحقيقة، إن هذا الوضع شيء مؤلم في الحقيقة.. إن الإنسان الذي لا يعمر في المتوسط اكثر من ستين عاماً سوف لن يجـد متـسعاً ليعـيش بـسكون، بـل سـوف يحمـل الأزمـة منـذ يولـد.. وسيعطيها لأبنائه ساعة يموت، وستكون نتائج هذا النضال لجيلٍ لا نعـرف متـى سـيأتي وإن كنا نتفاءل بمشاهدة أوائله في أواخر عمرنا.. وقد يكون جزاؤنا الوحيد هو أن يغبطنـا الجيـل القادم، الجيل السعيد الذي سيتمتع بانتصاراتنا، على أننا أحرزنا شرف الحياة في عصر الصراع من أجل الحياة... وهذا يكفينا مؤقتاً.

يبقى سؤال آخر.. ولسوف يسأله اشتراكي يساري متطرف دونما شك.. السؤال هو:«ـ حسناً.. أنتم أردتم تحقيق الوحدة.. وهاهي ذي الوحدة قد تحققت مبدئياً بين سوريا ومـصر،

فما الذي تنوون عمله في انتظار الوحدة الكاملة.. أي منهج أعددتم وأي طريق ستسلكون.. أنتم يا دعاة الوحدة، في تحقيق الاشتراكية التعاونية التي تحدثتم عنها طويلاً؟»

إن هذا السؤال يجرّنا للقسم الثاني من الموضوع، وإذا كان السائل «ماركسيَّ» النزعة فهو لم يسأل إلا كي ينصحنا، لا شك، بإثارة الصراع الطبقي من أجل تحقيق الاشتراكية العلمية.. وهو إذ صمت طوال الطريق إلى الوحدة ـ هكذا سوف يقول ـ فلكي يطالب بهذا الصراع الطبقي الآن.. وأعذاره في ذلك واضحة: لقد نجح الصراع الطبقي في إحلال الاشتراكية في روسيا، ونجح، نصف نجاح، وبعد تحويرات صغيرة، في الصين، وهو، أي الصراع الطبقي، يعتمد الآن في المناهج الاشتراكية اليسارية في أوروبا الغربية، وهو، أخيراً، المعنى، الوحيد للثورية في الاشتراكية...

إن هذا الكلام يلخص فشل الأحزاب الشيوعية في عملها الحزبي طوال الثلاثين سنة الماضية في الوطن العربي، إن الخطة التي وضعت، والتي جوهد من أجل تنفيذها طوال ربع قرن لم تستطيع أن تؤثر في المجتمع العربي كي تحيله إلى أتون يستعر بالكراهية الطبقية والحقد المصلحي.. إن بنية المجتمع العربي، هذه البنية المرتكزة، أساساً، على ثقافة روحية، ليست مستعدة لتقبل التفسخ الاجتماعي فيما بين أبنائها، فإذا استثنيا المجتمع العربي، الذي يقوم على مجموعة من الروابط التاريخية والثقافية الخاصة، والتي تمنع تفسخه بعد كل هذا التماسك الطويل، والعميق، إذا استثنيا هذا المجتمع العربي، فإننا نستطيع أن نكتشف أن كل المجتمعات ذات البنية الزراعية يتمتع فيها الحس الطبقي بسكون لا حد له.

إن المجتمع العربي مجتمع ساكن بطبيعته من الناحية الطبقية، قد يكون هنالك شيء من التناقض البسيط القائم بين مصالح المجموعات والفئات، ولكن هذا التناقض الجزئي لا يمكن أن يتطور إلى حد الحرب الطبقية، ذلك لأنه ضاع في غمرة الكراهية التي شحن فيها المجتمع كله ضد الاستعمار بصورة عامة... لقد كان هنا، بين ظهرانينا، عدو غريب عنا

حشدت له، تلقائياً، كلُّ طاقات الكراهيـة الموجـودة فينـا. إن التنـاقض الواضـح كـان في أن هنالك مظلوم وظالم.. وكان الظالم هو الغرب الصناعي بكافة طبقاته.. وكان هنالـك مظلـوم وهو المجتمع العربي، بكافة طبقاته أيضاً.. وهكذا فإن من الاستحالة المنطقية، والعمليـة.. أن يدفع المجتمع لإثارة الحرب الطبقية فيما بين المجتمع المظلوم، وأن تترك للظالم فرصة التمتع في هذا الانقسام الدموي بين أبناء المجتمع الواحد.

إن الاعتماد على الحرب الطبقية كوسيلة من أجل التطور الاشتراكي يعني تخطي الحـدود القومية، كي تتحد كافة الطبقات المستغلة ضد كل المستغلين على اختلاف قومياتهم، كما تنص الماركسية، وكما أصر تروتسكي حتى دفع دمـه ثمـن هـذا الإصرار... في حـين أن العلاقـات الاقتصادية في هذا القرن، أو منذ بدأ الربع الثاني من هذا القرن على وجه التحديد، قد تعقدت بصورة لم يعد يجدي فيها مثل هذا التصنيف الجامد.. التصنيف الذي يـشابه ترتيـب معلبـات الأطعمة المحفوظة فوق الرفوف... إن العلاقات العالمية المعقدة تـشارك الطبقـة العاملـة مـع الطبقة المستغلة في الدولة المستعمرة في استغلال شعب الدولة المستعمرة.. فالعامل الأمريكـي الذي يسكن في بيت مرفه، ويدخن، ويستمع للموسيقى، ويسكر كل ليلـة أحـد، إنـما يتمتـع بذلك كله على حساب الفلاح المسكين في غواتيمالا.. والعامل الفرنسي الـذي يعـصر العنـب الجزائري من أجل النبيذ، والذي يذهب لمشاهدة الأوبرا، ويتعشى في المطعم، ويتمتع بالإجازة إنما يفعل ذلك على حساب الجزائريين الجياع.. إن رفاه هذا العامل هو سـلبٌ لرفـاه المـواطن الجزائري.. وهو لا يمكن أن يتخلى عن رغيفه، وهو يضحك، من أجل الروابط الطبقية.. بل هو على استعداد لكي يموت جنباً إلى جنب مع صاحب مصنعه في سبيل أن يـستمر العمـل.. ويستمر الإنتاج، إن الرغيف المسكين سوف يبقى بين شدقي الفرنسي الظـالم.. حتـى يـنهض المظلوم بنفسه ـ كما يحدث ذلك عملياً الآن ـ فينتزع الرغيف انتزاعـاً، وهكـذا فـإن التكـاتف الطبقي بين عمال العالم قد يكون شيئاً جميلاً... كحكاية.. أو لكنه غير ممكـن حاليـاً.. بـل إنـه

طراز من الخيانة في الحالات التي ذكرت.. وفي أغلب الحالات.. لم يبق من وسيلة من أجل إحقاق الحق، وتأمين العدالة، سوى التكاتف القومي.. أي رفضِ الصراع الطبقي من أساسه.

إننا نذكر ذلك مغفلين، مؤقتاً، ذكر أمور أهم، كيف نثير الصراع الطبقي ونحن لا نمتلك الرصيد العمالي الذي يشكل التناقض؟ ولا نمتلك طبقة المستغِلين التي تحتكرُ أرغفة الشعب، كل أرغفة الشعب، صورة حادة؟ إن الفروقات التي يدعونها بالفروقات الطبقية ليست موجودة إلا بصورة متفرقة، وغير حاسمة.. أي أنها لا تشكل السمة العامة للعلاقات الاجتماعية، في حين أن الإمكانيات العربية ما زالت غير مستغلة، وهي كفيلةٌ بتأمين الرخاء للجميع بتأمين حد أعلى وحد أدنى بصورة ملائمة، ومبدأيه.. إننا نستطيع إثارة الصراع الطبقي، إذا تعمدنا رفع المجتمع بالتدريج لمثل هذا الموقف، إن الحرب الطبقية هي افتعال لأمر يمكن تلافيه.. صحيح أن الحرب الطبقية قد نجحت في إحلال الاشتراكية في بعض البلدان، هذا شيء لا شك فيه، ولكن أليس من الأفضل أن ينجح «السلامُ الاجتماعي» في تأمين الاشتراكية دون الاضطرار لإثارة حرب طبقية؟

كلمة «السلام الاجتماعي» تلخص المنهج المطلوب حالياً لتطبيق الاشتراكية في البلدان العربية المستقرة.. أي في الجمهورية العربية المتحدة بصورة خاصة..

ولكن كيف تتيسر للاشتراكية أن تطبق في ظل هذا السلام الاجتماعي؟

من حسن الحظ ـ في هذا المجال ـ إن التشكيل الاقتصادي في البلدان العربية كلها مازال في طور النشوء.. وهذا يُيَسّر للاشتراكية مهمتها دونما حاجة للمرور بالمآسي العمالية التي مرّ فيها الغرب.. إننا نستطيع أن ننشئ المصانع بصورة مدروسة دون أن نفسح المجال للصراع المدمر بين مصانع السلعة الواحدة... كما أننا نستطيع أن نتحاشى بواسطة التشريع العمالي كل المآسي التي نتجت عن تكدس العمال في المصنع الواحد دونما رعاية أو حقوق.. إننا نستطيع، أيضاً، أن نرتب الإنتاج بصورة تتناسب مع قانون العرض والطلب في السوق الداخلي، أولاً،

ثم في الأسواق الخارجية.. إن مثل هذا الإنشاء التدريجي للصناعات يجعل للاشتراكية طابعاً يتناسب والمجتمع الذي حافظ على وحدته، وتماسكه، منذ نشأته، وإلى اليوم.

لقد أثبت الاقتصاد في خلال العشرين الماضية أنه لا يشبه شيئاً بمقدار ما يشبه الزئبق... إنه يتسرب من بين نصوص القوانين التي وضعها عباقرة الاقتصاد كما يتسرب الزئبق من بين الأصابع.. ذلك أن الآلة بدأت طريقاً لا نهاية له.. وهي في عدوها المسعور إلى الأمام تتخطى كافة القوانين التي وضعت من أجل حدها.

فكيف، والحال ذا، نستطيع أن نعتمد النظريات أساساً للتطور الاقتصادي من أجل إحلال النظام الاشتراكي؟

إن النظريات الاقتصادية، التي حازت إعجاب واحترام المفكرين طوال النصف الأخير من القرن الماضي، وأوائل القرن الحالي، مثل نظرية ريكاردو[2] في القيمة ونظرية ماركس في رأس المال.. قد أثبت فشلاً كبيراً في التطور المستمر لاقتصاد العالم.. إن إبراز نقاط الضعف هذه يستلزم إلماماً كاملاً بالاقتصاد، ولكننا نستطيع أن نذكر، مثلاً، أن الرأسمالية قد استجابت للتحدي الشيوعي وقد تطورت من الداخل دون أن تسعى لحتفها بالحتمية التي وضعها ماركس قبيل قرن..!

فالتوجيه الذي فرضته الدولة على المصانع في الدول الرأسمالية، حدَّ من قضية المزاج الشخصي في الإنتاج الرأسمالي، هذا المزاج الذي يشكل السبب الرئيس في تدمير النظام كما تنص في ذلك القوانين الماركسية.

المظهر السياسي للحكومة قد تطور منذ القرن الماضي وارتباط الديمقراطية، بالاقتصاد سدّ ثقوباً كثيرة كان الاقتصاد الرأسمالي يدخل فيها إلى حياة الأمة... الخ.

لقد تغيّر كثير من الشروط التي درست على أنها من خوالد النظام الرأسمالي.. نقول تغيّرت ولا نقول انتهت، لأن المراحل الرأسمالية الحاضرة لا تشبه المراحل السابقة من حيث

2- ريكاردو: قيمة سلعة ما هي قيمة الوقت الذي يستغرق صناعتها.

قواعدها وقوانينها، إن شرط المنافسة، مثلاً، في النظام الرأسمالي، هذا الشرط الذي قال الماركسيون إنه سوف يسبب نهاية النظام لأنه يقوم على المطامع، والذي قال عنه الرأسماليون أنه ميزة من ميزات الاقتصاد الحر تحسّن الإنتاج وتسمو بالكيف وبالكم.. إن شرط المنافسة هذا، مثلاً، قد تغيّر عندما حلت الشركات الكبرى المجمعة للصناعة الواحدة في وحدات كبيرة.. الشركات الاحتكارية، بصورة أوضح، إن المنافسة تغيرت، لأن سلعة ما أصبحت وقفاً على شركة واحدة، لا على عدة شركات... وهو ما يسمى بـ: CORPOROTISUN

ففي الولايات المتحدة تقوم ثلاث شركات ضخمة، متحدة من حيث مجالس إدارتها بصنع ثلثي إنتاج أميركا من السجائر والألمنيوم والكحول واللحوم والنحاس والصفيح والآلات والأدوات المكتبية، حدث هذا عام **1947** بينما تؤدي ثلثي صناعة الصلب، والزجاج، والكيمياء الصناعية والألبان **6** شركات فقط.

وأرى أن لا بأس من استعراض بعض الأرقام الرأسمالية التي تلقي بعض الضوء على قضية الملكية وقضايا العمال، لا لشيء إلا لنرى كيف ينعطف التطور الاقتصادي للدول في منعطفات غير متوقعة، فترى ماذا يمكننا أن نستنتج من هذه الأرقام.؟

1 ـ في إحصاء عام **1950** في الولايات المتحدة الأمريكية وجد أن: **8**٪ من نحو **50** مليون عائلة لا يمتلكون شيئاً«بشكل ضياع أو أوراق مالية صناعية أو أموال سائبة. هذا يعني أن **92**٪ من عوائل الولايات المذكورة يمتلكون شيئاً ما.

2 ـ الرأسمالية في الشركات تتجه نحو التوسع، أي اشتراك عدد كبير من الناس في ملكية الشركات، فهنالك **7** ملايين نسمة يمتكلون نصف مليون شركة.

3 ـ ثلاثة ملايين ونصف المليون عملاً تجارياً مملوكة لأفراد.

4 ـ **68**٪ من مجموع الفلاحين الأمريكيين البالغ عددهم أربع ملايين يمتلكون أراضيهم.

5 ـ هنالك **10** ملايين وحدة إنتاج إحتكارية.

الحرب الباردة تشكل صمام الأمان للإنتاج الرأسمالي. حدث هذا فقط بعد الحرب العالمية الثانية.

هذه الوحدات المجمّعة، خنقت المنافسة.. لصالح من؟ هذا لا يهم الآن فنحن لسنا في معرض تفضيل الرأسمالية أو نقدها من حيث كونها نظاماً يقضي على الفرص المتاحة للجميع... ولكننا نريد أن نوضح أن لمثل هذا التغيير في البنيان الداخلي للشركات الرأسمالية أو نقدها من حيث كونها نظاماً يقضي على الفرص المتاحة للجميع.. ولكننا نريد أن نوضح أن لمثل هذا التغيير في البنيان الداخلي للشركات الرأسمالية تأثير في الحياة الاجتماعية.. لذا.. فإن بعض الحكومات الرأسمالية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا التغيّر، فعمدت إلى التدخل في الأمور الرئيسية مثل توزيع الدخل بين الفئات الاجتماعية بدلاً من تركه يتوقف على ما يحدث في الأسواق..».

إن أموراً أكثر أهمية قد حدثت في العالم الرأسمالي بصورة لم يحسب حسابها.. ورغم ذلك. فإن من الضروري أن نتحفظ قليلاً ونحن نتحدث عن الرأسمالية، كنظام اقتصادي، إننا، لا زلنا في حدود قوميتنا نرفض التباين الرأسمالي، ونرفض الاحتكارية كما إننا مازلنا نأخذ على النظام الرأسمالي مآخذ تجعل أمر مقارنته بالاشتراكية، حتى مقارنته، شيئاً مستحيلاً... ولكن لابد لنا من الاعتراف، بين الفينة والأخرى، إن هذا النظام قد حقق بعض الانتصارات التي لا نستطيع التغاضي عنها.. كما أنه من الضروري أن لا نأخذ بوجهة نظر الاشتراكية اليسارية المحضة في محاولاتها المستمرة لإبراز النظام الرأسمالي بصورة سوداء متجهمة كليةً... وهكذا، فإننا لن نتمكن من الحياة داخل العلبة.. ولابد لنا من أن نحدق هنا، وهناك كيما يصير بميسورنا أن نتعرف أين يتعين علينا أن نخطو، ولماذا، وكيف؟

إن القوانين الاقتصادية تتغير إذن... والشيء الذي ينفع، في غمرة هذا التطور، هو الاحتكاك المباشر بالمجتمع ووسائل الإنتاج العالمية كيما تتيسر السيطرة على المؤثرات

الاقتصادية، وكيما تتيسر الاستجابة للمتطلبات الاجتماعية.. إن نقل تجارب الأمم الأخرى في الاشتراكية نقلاً حرفياً شيء لا يختلف كثيراً عن نقل تجارب الأمم الأخرى في تطبيق فلسفة قوميّة معينة.. لقد كانت، ثمة، قوميّة ذات فلسفة عنصرية أملتها ظروف خاصة، ورغم ذلك فإن من الخطورة أن نتأثر بها أو أن نعتبرها ضرورة.. وكانت هنالك، أيضاً، نظريات اشتراكية لم تستطع أن تستقر إلا في جو من الاستبدادية السياسية، والخطأ في كلا الأمرين، يتشابه إلى حد بعيد.

في الحقيقة.. إن الشيء الذي أثبت وجوده في تطور العالم هو وجوب الانسجام مع طبيعة المجتمع وشخصيته، والتلاؤم المطلق مع جذوره الثقافية، والواقعية بوجه عام.. وهكذا فإن أوّل رفض لوجوب التطبيق الحرفي للماركسية أتى على يد ماوتسي تونغ في تجربته الثورية بالصين حين طلب من المؤتمر الشيوعي المنعقد عام **1931** في موسكو اعتبار الفلاح صالحاً للتكتل الثوري.. على عكس ما أرادت الماركسية حين اعتبرته«بورجوازياً صغيراً» وفي أحسن الحالات«قوة احتياطية لعمال المصانع» كان هذا التنازل هو أوّل الطريق الذي أتمه تيتو بصورة عميقة وبارزة.. وأكده المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي المنعقد في موسكو عام **1956** حين لمح بضرورة الانتباه للخصائص القومية لكل أمة.. وحين أقرّ بوجود طرق أخرى للاشتراكية غير الثورة الطبقية المعتمدة على الماركسية.. وحين نفى العنف كوسيلة حتمية لتغير المجتمع من حالة طبقية إلى حالة لا طبقية.

إن هذا التنازل الماركسي الرسمي لم يكن عملاً طارئاً أو خطة جديدة.. لقد كان نزولاً مرغماً عند طبيعة الأشياء.. لقد جرّدت الشيوعية من العنف، ففقدت أهم ما في التفسير اللينيني للماركسية.. حدث هذا التنازل حينما أعلن الاتحاد الاشتراكي البريطاني:«إن الحركة العمالية البريطانية لم تقبل أبداً ـ في سياستها التطبيقية ـ وجهة النظر القائلة بأن الرأسمالية لا يمكن أن تتطور من الداخل..» وكانت الماركسية قد رفضت مثل هذا التطور رفضاً قاطعاً، والاتحاد الاشتراكي البريطاني لم يكن شيئاً يذكر أمام التجارب التي طورت الرأسمالية والتي ذكرت فيما سبق.

وهكذا فلقد سقطت«النظرية» إلى مستوى الفشل حين واجهت الواقع العـالمي المعقـد، والمتشابك، والحافل بالخصوصيات، ورغم ذلك، فإن الاستفادة من تجارب الأمـم الأخـرى، والتقاط الأسباب المشتركة هو الشيء الضروري من أجل التيقن من أننا نعيش في عالم واحد.. إن«الانعزال» أمر يتناقض وطبيعة تكوين المجتمعات الإنسانية ولكن«النسخ الحرفي» ليس إلا تنكراً متعمداً لطاقات الإنسان المبدعة، والواعية... وفي هذا العالم، الـذي يـدخل إلى أدمغتنـا يومياً بالإذاعة وبالسينما وبالحرف نستطيع أن نختار ما نريد كي نقدم ما يلائم. ومن الطبيعـي أننا لن نقبل محكم الرأسمالية، ذلك أننا شاهدنا التجربة بأم أعيننا، ومـن الطبيعـي، أيـضاً، أن نرفض أية تجربة أخرى تقوم على خنق الفردية خنقاً نهائياً، وتشويه الديمقراطيـة الاجتماعيـة، وتحكم طبقة الساسة في المجتمع.. إننا نبحث عن اشتراكيتنا، ولـسوف يكلـف هـذا البحـث جهداً وعرقاً وتعباً، وقد يكلف فشلاً أو فشلين، ثم لابد مـن النـصر، ولـسوف نكـسبُ مـع النصرِ شرفَ كوننا مارسنا إنسانيتنا إلى أقصى حدٍ مستطاع.

وفي غمرة بحثنا عن هذه الاشتراكية نتمسك بحوافزنا الأخلاقية وببطلنا النمـوذج مـن أجل أن تتماسك هذه الاشتراكية إلى أقصى حد مستطاع..

لقد انتهجنا الحياد في سبيل أن نبرز الوجه الإنساني من قوميتنا، وفي سبيل أن نـؤدي مـع شعوب آسيا وأفريقيا، الدور الأخلاقي الضروري في عـالم ديـست فيـه الأخـلاق مـن أجـل الكسب والسيطرة، إننا، حتماً، لا نستطيع أن نعـوض مـا حفرتـه الآلـة الإنـسانية مـن مـآسي ونكسات، ولكننا نستطيع أن نحافظ على ما تبقى من الإنسان سيداً للآلة لا عبداً لها.. ثم إننـا نستطيع أن نقدم للعالم شيئاً غير الكراهية، والنزاع، والحروب.. إننا نستطيع أن نقدّم أنموذجاً حياً للشعب الذي انتشل نفسه من بين آلاف الهزائم والأمراض بزنود أبنائ وحدهم، والـذي أصر، رغم كل شيء، على تقديم الحب والخير والعدل للعالم الذي لم يقدم له سـوى الكراهيـة والشر والظلم.. إننا نصر على أننا آمنا بشيء آخر غير الأرقام والمعادلات والمادة.. آمنا بكوننـا أحراراً في انتهاج أي سبيل نريد، وآمنا بأننا مازلنا نستطيع أن نقوم بدور المبعث الأخلاقـي في عالم لم يعد يؤمن إلا بالمعادلات والمادة...

إننا، كما يتهموننا، عاطفيون.. ذلك أننا نعطي بعاطفتنا للمادة معناها الإنساني الذي يبرز وجوده... ونعطي للعاطفة معناها الأخلاقي الذي يرتفع إلى مستوى الإنسان لا الإنسان القطيع..

إننا مازلنا نصر على الوحدة كوسيلة لوضع الإنسان العربي في حالة الطبيعية، ونصر على الحياد، كوسيلة من أجل أن ندعم شخصيتنا الاجتماعية بسماتها الخاصة.. ومن أجل أن نؤدي دورنا في عالم متوتر.. وفي هذا الإيمان العميق بالوحدة وبالحياد، نرفض أية نظرية الغاية منها جعلنا ندور في فلكٍ آخر، أو ننحاز إلى جبهة دون أخرى.. ونرفض أيضاً الاستمرار في أي وضع رجعي قد يجعل منا ذنباً لمعسكر من المعسكرات...

وفي هذا المنطق البسيط، ولكن النابع من كبد المجتمع العربي، أحرز الزعيم عبد الناصر كلّ الولاء، لا لأنه هو الذي أراد بقدر ما كان هو الأنموذج الأعلى لتصورات المجتمع العربي عن بطله القائد...

لقد كان عبد الناصر، ومازال، الانعكاس الأعلى لضمير المجتمع الراغب في الأهداف الكبيرة... ومن هنا يتعلق الشعب بضميره المجسّد...

أيها السادة...

في مؤتمر الأدباء الذي عقد مؤخراً في الكويت كان البطل هو موضوع النقاش.. وفي غمرة الآراء الفلسفية التي دوخت المستمعين، وقف رجلٌ عامي أمام المحاضرين، كان عقاله رفيعاً مغبراً، وكانت ذقنه رمادية بائسة.. وكانت عيناه ترتعشان بألم عميق وإنساني... لقد وقف الرجل وهو يرتجف، وأشار بذراعه إلى المنصة حيث جلس الأدباء بكل أناقتهم ونظافتهم وهتف بسذاجة رائعة:

ـ البطل، أيها السادة، هو جمال عبد الناصر...

كان يعني في ذلك، لاشك، أن جمال هو الجانب البطل في كل إنسان خيّر.. وأنه هو الضمير الطموح للمجتمع المسكين... وأنه الوضوح الصريح المطلوب لمعركة قاسية طويلة كمعركتنا...

وكان، من ناحية أخرى، رأي الشارع في المشكلة العويصة.

الكويت. 959/2/16

معرض الربيع الثاني للفنون الجميلة

الكويت (23/4/1960 ـ 5/5/1960)

الأسطر الأول مفقودة (....ع)

وسائل التعبير.. والعمل الذي يقوم به اللون هو في حد ذاته عمل خاص وشرح قائم بذاته للأعماق.. وعملية شرح اللوحة هي تماماً كعملية رفع الإبرة عن السمفونية كي تترجم الكلمات معنى المقطع أو وسيلة أدائه.. وكلاهما يدخل في حيّز الخطابة والفلسفة لا في حيز الموسيقى أو الرسم.

ولذلك فالجمل الذي يسمعها متفرج ما في معرض ما في أنحاء وطننا تشعره بان فناننا العربي يعيش بعيداً عن مشاركة جمهور المشاهدين.. إذ غالباً ما تثقب أذن الدارس جمل من هذا الطراز:

ـ ما معنى هذه اللوحة؟

ـ إذا سمحت أشرح لنا قصدك من هذه الخطوط؟

ـ أنت تقول إن هذه اللوحة اسمها «امرأة تهبط السلم» إني لا أرى لا المرأة ولا السلم.. أرجوك أن «تفهمني» اللوحة؟

وحينما تقف أمام لوحة من الطراز الكلاسيكي رسمتها أصابع فنان فاشل تسمع جمل الإعجاب تنصب حواليها بلا حساب.. وقد تكون تلك اللوحة ليست سوى عملية «دهن» لا تختلف كثيراً عن عمليات صبغ جدران البيوت[3]..

إن المشكلة كلها تتلخص في أن المواطن العربي لم تهيأ له فرصة تربية فنية حقيقية.. لذلك فهو يتحير أمام أي عمل فني يحتاج إلى شيء من بذل الجهد في فهمه.. هذا يفسر لنا اندفاع

3- ذلك أن المواطن العادي يطلب من الفنان تقليد الطبيعة تقليداً كاملاً وكلما اكتشف أن اللوحة أدق في هذا التقليد ازداد إعجابه بها.. إنه يطلب من الفنان أن «يقلد» لا أن «يخلق» وهذا شيء ينسجم مع تربيته الفنية البدائية البسيطة.

الأذن العربية إلى الألحان الإيقاعية التي يستطيع ـ غريزياً ـ أن يرافقها بالتصفيق، وبضرب قدمه على الأرض.. وهذه الأذن نفسها تنسحب حينما يحتاج اللحن إلى شيء من الاستغراق الوجداني.. ونفس المشكلة بالنسبة للرسم.. فالمواطن العربي تعلّم أن اللوحة الناجحة هي اللوحة التي تقدم نفسها بنفسها والتي لا تحتاج ـ من ناحيته ـ إلى بذل أدنى جهد.. ولذلك فالمنظر المألوف في معارض الرسم عندنا هو منظر الرجل المتفرج الذي يعقد كفيه خلف ظهره، ويسير أمام اللوحات مستعرضاً دون أن يخفف من سرعته، ودون أن يكلف نفسه عناء قراءة الدليل الذي يوزع مجاناً... أي أنه حينما أتى يزور المعرض أتاه كي «يمتّع» بصره برؤية لوحات من ذلك الطراز الذي يشاهده فوق مرآة الحلاق، أو على جدران مطعم متواضع، أو خلف كراسي صالون لمسح الأحذية.. ولم يأت مطلقاً من أجل أن يعوّض للفنان المسكين شيئاً ضئيلاً من ذوبانه وعرقه ومحاولاته الصلبة لترجمة بشريته إلى ألوان..

والواقع أن هذا الكلام لا يفسّر على أنه طراز من الشتائم لذوقنا الفني.. ولكن على أنه تقرير مجرد لحقيقة واقعة.. فالمسؤولية لا تقع على كاهل المواطن العربي.. بل على ضعف مؤسساتنا الثقافية في تربيته تربية فنيّة.. والفنان يحاول جهد طاقته إشراك المواطن العربي في أعماله الفنية عن طريق إقامة المعارض، والإصرار على إقامتها رغم كل شيء، وهذا يدل على أمرين اثنين: أولهما خصب طاقته الفنية وثانيهما إيمانه بأصالة الذوق الفني عند المواطن وإمكانية تطويره..

هذا الكلام يضعنا في صلب موضوعنا» معرض الربيع الثاني للفنون الجميلة» الذي أقيم في الكويت (**23/ 4/ 60 ـ 5/ 5/ 60**) فلقد اشترك فيه (**78**) فناناً بـ (**325**) لوحة.. ومقارنة هذا الرقم مع رقم العام الفائت يدل دلالة واضحة على مبلغ التطور الذي حدث في العام الماضي، والذي يؤكد مدى خصب الفنانين المشتركين، ومدى رغبة الجمهور في أن يفهم هذه الأعمال ويحسّها.. ويشارك فيها عواطف الفنان.

من المستحيل طبعاً أن يلم مقال بكل هذه اللوحات، ولكن الناقد المتفرج غالباً لا يهمه كل ما يعرض، فهو لا يبحث عن لوحة جميلة فحسب، بل يبحث وراءها عن فنان يحاول أن

يخلق نفسه عن طريق إيجاد وسيلته الخاصة وشخصيته المتميزة.. وعلى عكس العـام الفائـت، يبدو، أن كثيراً من الفنانين قد بدأوا يكتشفون أنفسهم ويشعرون بمـدى مـا هـو ضروري أن يكونوا«هم».. أي أن يرسموا بأصابعهم، لا بأصابع سواهم.. وأن يخلـصوا لأحاسيـسهم لا للقواعد.. وأن يجعلوا لوحاتهم شيئاً حيّاً، تماماً كالطاقة التي دفعتهم للبدء في تكوينها...



ومنذ العام الفائت، إلى اليوم نجد مثلاً أن الفنان«محمد بشناق» وهو شاب ـ ما يزال ـ قد غادر طريقته السابقة (الكلاسيكية جداً) وهو يتلمس طريقه بجد نحو إيجاد نفسه.. صـحيح أنه لم يستطع أن يصل نهائياً ولكن المحاولة نفسها جديرة بالإعجاب.. لست أدري أهي مجـرد صدفة أن عرض محمد بشناق بين لوحاته الجديدة لوحة مـن لوحاتـه القديمـة فبـدت باهتـة، سطحية، وسخيفة، أم أن عرض تلك اللوحة كان عن بقايا إعجاب بها؟.. هذا لا يهم.. المهم أن«محمد بشناق» يحاول أن ينقل نفسه إلى عمله الفني.. في لوحة (العائلة) يعبر بألوان الخلفيـة عن توتر المجتمع.. وبالسيقان غير الثابتة على عدم استقرار تلك العائلة الإنساني.. وهـو بهـذا يتخطى أن تكون لوحته مجرد صورة فوتوغرافية، ولكنه يحملها فهمـه الخـاص.. رغـم أنـه لم يستطع، بعد، أن يحملها إحساسه نفسه..

وفي لوحته (كأس) نجاح في التقاط أعماق اللحظـة (لحظـة الـسكر). ولكنـه لم يـستطع استعمال الخلفية ببراعة فاستعاض عنها بخطوط خارجية للتدليل على الحركـة، وهـذا العمـل يليق، بالكاريكاتير أكثر من هذه اللوحات.. وهكذا فنحن نستطيع أن نجد في كل لوحة مـن لوحاته خطأ أو خطأين، ولكن هـذا لا يهـم.. فـنحن لا نبحـث عـن الكامـل.. ولكـن عـن الصادق. على أي حال، فإن الإشارة إلى عدم نضوج«محمد بشناق» في استعمال المكعبـات لـن يكون من شأنه إلا دفع محمد للانتباه أكثر أثناء رسمه لمثل هذه المواضيع..

❖ ❖ ❖

هنالك فنان لابد من الوقوف عنده.. هو«قاسم الياقوت..» إن عمله يـوحي بأنـه فنـان متمكن، وبأنه عثر على نفسه.. وتوحي ضربات ريشته القوية والمتماسكة بأنه ينقل ما في رأسـه

إلى قماش اللوحة دون ضباب، بل دون تهذيب.. وهو يفعل ذلك بدافع من إيمانه بأنه ليس مجرد«لاقطة» بل«باعثة» وهذا الفهم للعمل الفني كاف ليكون نقطة انطلاق هائلة.

وتتوزع قاسم في لوحات مدارس فنيّة عديدة، ولكن خطوطه الشخصية، وسماته الخاصة منثورة في كل إنتاجه، وهي كما يبدو في طريقها إلى أن تقف على ساقيها دون استعارات.. والذي يدفعنا لهذا القول هو دراستنا للوحة«ممثل خلف المسرح» ولوحة«لاجئون» ولوحة«نيران البرقان»، ولوحة«وادي» ففي هذه اللوحات الأربع في الذات توجد أصابع«قاسم عمر الياقوت» الشخصية..

هذه اللوحات الأربعة تشترك في كثير من الصفات المميزة: اللون الثقيل المتساقط دون حد.. والظلال الكثيفة التي تقابلها ضربات ضوء حادة وقاطعة.. ومجموعات الألوان التي تشكل التكوين تميل إلى التعبير عن شعور واحد:«عدم الاستقرار وتوفر الإرادة..» ويبدو لنا«الممثل خلف المسرح» بكل ما فيه من قلق الانتظار، مجرد نتاج لضربات الألوان العمودية والقاتمة دون الاعتماد على التعبير الموضوعي..

وإذا حاولنا أن نلقي نظرة على بقية إنتاجه لوجدنا أن«جبال في ضوء القمر» ليست من أصابعه.. بل هي نقل يكاد يكون حرفياً لمنظر موضوعي لولا استغلال اللون الأخضر كتعبير عن الضوء المتعب.. ولست هنا في معرض تقييم هذه اللوحة بالذات، ولكننا في معرض دراسة انسجامها مع ريشة«قاسم عمر الياقوت» في محاولاتها الجديدة الصارمة..

تبدو لنا«امرأة وكلب» لوحة جميلة، فهي تنقل بأمانة إحساس الفنان ونظرته النفسية إلى الموضوع، ولكنها تبقى خارج أسلوبه.. أما«حركة شارع بثلاث اتجاهات» فهي تصوير تجريدي للحركة والضوء في مقطع الشارع.. ولو عرضت هذه اللوحة لوحدها لكان مجال تحليلها ودراستها واسعاً.. ولكن الذي يهمنا الآن، منها، أنها من مدرسة أخرى.. رغم كونها التقاطة ناجحة، وعملية نقل أمينة وجريئة وواضحة.

والواقع أن«قاسم عمر الياقوت» مقيّد بجمهور المتفرجين أكثر من اللازم... فبعض لوحاته عرضت بأسماء أخرى كي تفهم فهماً أسهل وأيسر.. وهو إذا سئل عن سبب هذا العمل، بسط كفيه وهتف:

ـ وماذا تريدني أن أعمل؟ هل تتصور أن يقف أحدهم أمام لـوحتي التـي ترجمـت فيهـا فهمي لبيتهوفن دون أن يشتمني؟ أما إذا قلـت لـه إن هـذه اللوحـة اسـمها«بعـد الغـروب» فالشتيمة على أي حال ستكون أصغر...

وهذا قتل لا يغفر أبداً لقاسم.. إن المطلوب منه أن يقـدم نفـسه بجـرأة.. وجرأتـه هـي عبارة عن إقناعنا بأنه هو نفسه مقتنع تماماً بصوابه...

والتشوش في الأسلوب الموجود بين لوحاته يعـبر عـن خوفـه مـن الانـدفاع إلى الأمـام بجرأة.. أنه يتجه اتجاهات تجريدية واضحة ما يلبث أن يتركها ليعود إلى الألوان الثقيلة المهملة ومحاولاته للتعبير عن الموقف باللون والكتلة والشكل غير المحدود تمامـاً.. ويـستعمل، حتـى هنا، خدعاً تجريدية ليضع إحساسه في اللوحة..

إن الخليفة التي رسمها للوحة«البروفسور كوكوش» ذات اتجاه تجريدي واضح أتت مباشرة خلف وجه مرسوم بصورة موضوعية تقريباً.. لتدل على مبلغ هذا التشوش والاضطراب.

❖ ❖ ❖

الفنانة سهير دبا ريشة موهوبة ومستقرة.. ولست أغـالي إذا قلـت أن لوحتهـا«أغـادير» تعتبر من أجود ما ضم معرض الربيع الثاني..

تميز«سهير دبا» جرأة في التعبير، واستقرار نهائي خلال عملية الأداء.. إن هذه الفنانـة ليـست ذات شخصية خالصة ومتميزة... ولكن يبدو لنا من انسجام ألوانهـا وقـدرتها عـلى إقامـة تـوازن الموضوع واستغلال الخلفية ببراعة أنها توشك أن تلتقط نفسها وتصل إلى إيجاد ملامحها الخاصة..

يلفت النظر في«أغادير» القدرة على التعبير عن الحركة بصورة عجيبة.. ولكـن انـسجام الألوان يدل على قدرة في التعبير عن الموقف النفسي بـصورة أروع.. إن الدوامـة الموجـودة في لوحة«أغادير» تضع الناظر وجهاً لوجه أمام نفس لحظة الانسحاق والخوف.. وهذه ـ في حـد ذاتها ـ عملية رائعة..

لم تعرض«سهير دبا» كثيراً من لوحاتها كي نكتشف خلالها مـدى مـا يمكـن أن يكـون كلامنا هذا صحيحاً، ولكن الانطباع الأول الذي تعطيه«أغادير» لاشك فيه.

لوحات الفنان«سهيل عياش» تطرح مشكلة عويصة.. إن هذا الفنان يجيد استعمال اللون ومزجه واستخراجه بصورة هائلة.. وهو حينما يرسم ظلاً يذهلنا تعدد الألوان التي يمشي فيها وهو يمسح هذا الظل شيئاً فشيئاً حتى يواريه.. ولوحاته كلها ـ تقريباً ـ عملية وضع مرآة أمام الطبيعة التي خلقها الله، وتسجيلها، حرفياً، على القماش...

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو التالي:

ـ أنت تصرف عشرات الساعات في نقل هذه الطبيعة إلى قماش لوحتك.. أليس الأجدر بك أن تشتري آلة تصوير، وتنقل المنظر ملوناً بثوان معدودات وتكاليف أقل؟

والواقع أن هذا السؤال له أثر كبير في تحديد قيمة أي لوحة مرسومة.. إن العمل الفني عمل إنساني متطور وهو شيء ينسجم مع انتصارات الإنسان الحضارية.. إن الكلام الذي يطرحه السؤال صحيح وموضوعي.. أليست الكاميرا أقدر على نقل المنظر، وأسرع، وأرخص ثمناً؟ إذن لماذا حرق كل هذا الوقت، في عمل نستطيع أن نقوم به في لحظات؟

هذا الكلام يضع الفنان سهيل عياش في موقف حرج.. فنحن لا نطلب من الفنان ـ أي فنان ـ أن يعيد خلق الطبيعة بالألوان، ولكنا نطلب منه ـ وبإصرار ـ أن يضع نفسه، روحه، أعصابه، ووجوده الإنساني في المنظر الذي يرسمه..

والفنان المتطور هو الذي يعترف بأن الكاميرا أحدثت قلباً في مفهوم الرسم.. ورفض الاعتراف هذا ليس في حقيقته إلا عناداً لا مبرر له.. بل وقد يكون في أحايين كثيرة عجزاً..

يعرض سهيل عياش أربع لوحات.. واحدة منها مرسومة على الطريقة الفوتوغرافية«منظر في الخليج» والثلاثة الباقيات مرسومات بالسكين.. ولقد فهمت من الرسام أن اللوحات الثلاث هذه كن آخر إنتاجه.. وهذا يدل على أن«سهيل» قد اقتنع بعدم جدوى الفوتوغرافية وهو في طريقه لوضع نهجه الجديد.. إن استعمال السكين أعطى لوحاته الجديدة دفقة حياة حقيقية.. صحيح إن هذا الاستعمال مازال في حاجة إلى صقل ولكننا لن

ننسى أن قدرة الفنان على استغلال الألوان متوفرة، وفهمه لتوازن اللوحة ناضج تقريباً.. وهذا يجعله يتطور بسرعة نأمل أن نرى نتائجها في معرض الربيع القادم..

لوحة«الصيادون في الشويخ» ضربات جريئة بالسكين، والضوء الذي يحمله الصيادان بغية اجتذاب الأسماك قوي ويكاد يعشي بصر المتفرج.. والانسجام بين كتلة الرجلين، وظلام الخلفية، وإشعاع الضوء متوفرة.. قد يكون الفنان قصد قصداً إلى التعبير عن الجهد المبذول بواسطة حدة الظلال وانكسارات الضوء القاسية.. وقد يكون هذا العمل مجرد صدفة أملتها ضرورة الأداة المستعملة في الأداء.. ولكن المهم في الأمر أن اللوحة كلها منسجمة وجريئة وتبشر بانعتاق جدير بسهيل عياش...

لوحتاه الباقيتان«طبيعة صامتة» و«عناق» موضوعهما أكاديمي مطروق.. وتنفيذهما حديث نوعاً وجريء وهما الأمران المطلوب وجودهما في فترة انتقال خطرة كالفترة التي يمر فيها الفنان.



الفنان الذي كنا نتوقع منه أن يتطور بسرعة«طارق السيد فخري» لم يقدم إنتاجاً يدل على ذلك.. وقد يكون احتفظ به بغية إقامة معرض خاص.. لقد قدم طارق مجموعة اسكتشات عادية بالقلم.. ولوحات تحمل طابعاً كلاسيكياً تعودنا عليه... ولذلك فهو لم يعطنا مادة جديدة ندرسه من خلالها..

محمود أبو عسكر مازال ذو مزاج فوتوغرافي.. ومواضيع هذا الفنان كلها تتميز بالواقعية والبساطة والدراسة الكاملة.. ولكن وسائل تنفيذه كلاسيكية وعادية.. ويبدو ـ من لوحاته ـ أنه يصرف جهداً ووقتاً كافيين لجعله يتطور، ولكن جموده لا يتناسب أبداً مع إيمانه بإمكانياته وقدرته.. إن الكلمة التي يستعملها أي فنان للتعبير عن تقصيره هي كلمة«كسول» وهي نفس الكلمة التي استعملها أبو عسكر... ولكنه يوافقني ـ كما أعتقد ـ أنها كلمة لا تبرر شيئاً.. وأنه في أعماقه يشعر بأنه رسم ممارسة لإنسانيته ومسؤولية قائمة بذاتها..

إن هذا الكلام يلائم ـ بالضبط ـ الفنان عبد العزيز العقيلي أيضاً..

❖ ❖ ❖

وإذا كان لابد من أن أمر بلوحاتي فلا بد أيضاً من الاعتراف بخطر هذا المرور.. وقد يكون أسهل علي أن أتكلم عن راسمها بصيغة الـ«هو» لا الـ«أنا»...

ما يميز هذه اللوحات هو جرأة تنفيذها وبساطتها.. وأعتقد أن هذه هي المؤهلات الوحيدة لها.. إن الناظر للوحات«غسان كنفاني» يعتقد أنه رجل في عجلة من أمره.. رغبته الوحيدة هي إنهاء عمله بسرعة.. ولذلك فأدوات التنفيذ المستعملة في معظمها هي ألوان الشمع وذلك لسهولتها وسرعة تلبيتها.. واللوحة الوحيدة المرسومة بألوان الزيت قديمة، وكلاسيكية جداً وتنطبق عليها كل الجمل التي هاجمنا فيها الكلاسيكية في الصفحات السابقة.

يميل إلى الرسوم الرمزية.. وربما كان هذا يلائم طبيعته أكثر.. وذلك فإن الجهد الوحيد يلاحظ أنه مبذول في اللوحتين«إرادة الحياة» و»العاشق» وهما اللوحتان الوحيدتان اللتان يحبهما..

لا أدري إن كان يجوز لي أن أعبر عن شعوري حينما أنتهي من رسم واحدة من لوحاتي.. إنني أعتقد دائماً أنني أستطيع أن أرسم بصورة أفضل لو أتيح لي الوقت والجو.. ولكن هذا ـ طبعاً ـ لا يبرر شيئاً.. ما زلت في طور الاعتقاد بأنني«رسام هاو» وهذا الشعور ليس سوى سلة يلقي فيها الرسام كل أخطائه..

❖ ❖ ❖

لوحات الأستاذ«طه الجمل» تعطي صورة واضحة للإنسان الواثق من نفسه، والمنفتح على الحياة.. إن الكلمة التي تليق بلوحاته هي أنه«لا يرسمها» بل«يحفرها» فضربة ريشته جريئة وصارمة، وألوانه زاهية وجميلة وتبعث الراحة في عيني الناظر.. إن المتفرج يعتقد بأن الفنان طه الجمل إنسان يحب الحياة.. ويعتقد أن«مهنته» الوحيدة هي أن يرسم، وهو لذلك يقوم بهذا العمل بقوة، وثقة، وجرأة..

من رأي الأستاذ طه أنه في طريقه إلى أن يكوّن نفسه نهائياً.. ولكني أعتقد أنه قد وصل تماماً إلى ذاته.. وإن كان ثمة ما سيطرأ على لوحاته فهو يتعلق بعمقها وتنوعها..

أما ملامحه فموجودة تماماً.. ونفسيته ينقلها ببراعة وإجادة.. إنه متحرر من«الفوتوغرافية» ولكن يبدو أنه لا يرغب في الاتجاه إلى«التطورية» بمعناها التجريدي والرمزي و....الخ.. والتطور الذي يبدو لي أنه يؤمن به، فقط، هو تنويع وسائل التنفيذ الفنيّة.. وهو جاد في هذا العمل، وقدير أيضاً..

لست أعتقد أن الأستاذ طه الجمل سوف يغادر طريقته الحالية وذلك لأسباب عديدة.. أهمها أنه مطمئن إليها وهذا شيء واضح تماماً في طريقة أدائه.. والسبب الثاني أنه يحب الألوان الواضحة، والزاهية، والباعثة على الراحة بصورة لا تناقش.. ثم إنه أخيراً، يحب الوضوح ـ وهذا شيء ملموس في نفس لوحاته.. وهو لا يريد أن يكون«ذاتياً» ـ على ما أعتقده ـ إلا إذا كان يحتفظ بالإنتاج الذي يعبر عن هذه الذاتية.

طبعاً نحن لا نتفق هنا... ولكنني أعتقد أنه كون الأستاذ طه رياضياً أولاً، وفي السلك التعليمي ثانياً.. يجعله مرتبطاً بهذا الأسلوب ارتباطاً متيناً.



إن الغاية من إقامة المعارض هي زيادة الارتباط بين الفنان، وجمهوره.. وهذا العمل شيء يشكر عليه القائمون على تنظيم المعرض... إن الذوق الفني موجود في كل مكان.. وكما قال أحد الفنانين الكبار«غايتنا كشف الغطاء عنه لا إحكام إغلاقه...» ويوماً بعد يوم يزداد ارتباط الفنان بجمهوره.. صحيح أن الطريق ليس سهلاً بالصورة التي حقق فيها المطربون أمجادهم.. ولكنه طريق له نهاية طبعاً.. وإذا استطاع الفنان أن يفرض نفسه على جمهوره وعلى عصره فهو إنما يقوم بعمل حضاري..



لاشك أن الإحاطة بكل اللوحات المعروضة شيء مستحيل، واختياري للنماذج التي عرضتها كان لمجرد شعوري بأن الكلام الذي يقال عنها يمكن أن يعمم ـ بطريقة أو بأخرى ـ على بقية اللوحات.. طبعاً ما عدا اللوحات المنقولة عن رسوم مشهورة أو اللوحات الزخرفية التي أعترف بأنني لا أفهم فيها سوى قيمتها الجمالية المجردة..

إن الذي نأمله أن تعمد دائرة المعارف إلى إقامة معارض تشجيعية بصورة منفصلة عن معارض الفنانين المتمكنين وذلك كي تتيسر فرصة مراقبة نموهم وتطورهم ودراستهم.. فمما لا شك فيه أن عدد الفنانين المتمكنين في الكويت قد تكاثر وأصبح جديراً بأن يقام له معرض خاص.

إن الفكرة التي أرغب في توضيحها ـ أخيراً ـ هي التالية: إنني لم أحاول نقد اللوحات من حيث تفاصيلها الفنية الدقيقة.. كل الذي حاولته هو التفتيش عن المتميّز والأصيل والذاتي..

لم أكن أفتش عن الجميل بل عن الصادق.. وأعتقد أن هذه هي الوسيلة الأحسن لمراقبة تطور الفنانين ونموهم.

إن الذي نأمله هو أن نشاهد معرض الربيع الثالث وقد ازدادت فيه الأصابع المتميزة.. وتحرر فيه معظم فنانينا من قواعد الرسم الكلاسيكية، وانطلقوا إلى أعماق نفوسهم، ينقلونها بلا قيود، بلا قواعد... وبتلقائية جديرة بأي عمل فني...

غسان كنفاني. الكويت 1960/5/10

قراءة في

حول الحرية «لجون ستيوارت مل»

لا يتناول موضوع هذه الرسالة ما يسمى بسحرية الإرادة التي تتعارض وما يسمى خطأ بمبدأ الضرورة الفلسفية، ولكنه يتناول الحرية المدنية أو الاجتماعية، ويبحث في طبيعة السلطة التي يجوز للمجتمع شرعاً أن يمارسها في حق الفرد، وصدور هذه السلطة، وهذه مسألة قلما تعرض لها الكتاب أو تناولوها بالدراسة بوجه عام بيد أنها تؤثر تأثيراً عميقاً في المشاكل العملية لهذا العصر بوجودها الكامن، ومن المحتمل أن تصبح عما قريب من أهم المسائل وأكثرها حيوية وليست هذه مسألة بالشيء الجديد بل إنها ترجع إلى الماضي البعيد حتى لقد انقسم الناس بشأنها منذ زمن قديم غير أن الأمم المتمدنة التي حققت بعض التقدم، أتاحت لهذه المسألة أن تعرض نفسها في ظل ظروف جديدة تحتم علينا أن تتناولها على أساس جوهري مخالف لما مضى، وأن الصراع بين حرية الفرد وسلطة الدولة هو أوضح المعالم المأثورة عن التاريخ، لا سيما تاريخ اليونان وروما وإنجلترا وكان صراعاً بين الرعية أو بعض طبقاتها، وبين الحكومة. وكان معنى الحرية حينذاك حماية الأفراد من طغيان الحكام السياسيين أو استبدادهم. وكان الناس مهما اتخذوا من التدابير لاتقاء تعسف الحكام في مباشرتهم لسلطانهم لا يجرؤون. بل لعلهم كانوا لا يرغبون في أن ينازعوهم زمام السيادة. ولهذا كان الوطنيون يسعون لتقييد سلطة الحاكم على المحكومين وكان هذه التقييد هو ما يعنونه بالحرية. واتبعوا في تحقيق هذا الأمر سبيلين أولهما:

ـ أن يحققوا الاعتراف ببعض الحصانات التي تسمى الحريات أو الحقوق السياسية التي يعتبر اعتداء الحاكم عليها إخلالاً بواجباته ويحق للشعب مقاومته بصفة خاصة أو أن يثور عليه.

أما السبيل الآخر هو إقامة حدود دستورية يجعل موافقة الأمة أو بعض الهيئات المفروض فيها تمثيل الأمة شرطاً ضرورياً لمباركة أهم أعمال السلطة الحاكمة.

وكانت الشعوب تستهدف توحيد الحاكم والأمة توحيداً يجعل مصلحة الحاكم وإرادته هي مصلحة الشعب وإرادته فلا خوف من أن يطغى الشعب بنفسه على نفسه، فطالما كان الحكام مسؤولين أمام الأمة عن تصرفاتهم يجوز لها عزلهم متى شاءت. وقد يريد الشعب نتيجة لذلك أن يضطهد قسماً منه لذلك وجب أن تتخذ الاحتياطات الكفيلة لدرء هذا الخطر، كما تتخذ الاحتياطات ضد أية أخطار تنجم عن سوء استخدام السلطة.

ومن الميادين التي تأكدت فيه حقوق الفرد في المجتمع مسألة العقيدة الدينية. وكثيراً ما أكد كبار المفكرين الذين يعزى العالم إليهم الفضل فيما ينعم به من حرية العقيدة أكدوا أن حرية الضمير حق مقدس وينكرون تماماً دعوى المجتمع أن الإنسان مسؤول أمام الآخرين عن معتقداته الدينية. إلا أن عدم التسامح أمر طبيعي بالنسبة للإنسان في جميع النواحي التي تهمه، حتى أصبحت الحرية الدينية أمراً يصعب تحقيقه عملياً في أي مكان ما، غير أنه في بعض الفرص يحق فيها للناس التعرض بصفة فردية أو جماعية لحرية الفرد ومنعه من الإضرار بغيره ولا يجوز مطلقاً إجباره على أداء عمل ما أو الامتناع عن عمل ما لأنه من الأفضل له أن يفعل ذلك لأن ذلك سيعود عليه بالخير والسعادة. وإذا ارتكب المرء فعلاً ضاراً بغيره استحق الجزاء بلا نزاع، إما بقوة القانون، أو بحكم الرأي العام حيثما لا يؤمن تدخل القانون. كما أنه هناك عدة أعمال إيجابية كثيرة يجوز إجبار الفرد على أدائها من أجل منفعة الآخرين كأدائه الشهادة في المحاكم وكاحتمال تنصبه العادل من أعباء الدفاع العام، وكالقيام ببعض الأعمال الخيرية الفردية.

لذا وجب إطلاق الحرية للناس في تكوين آرائهم والتعبير عنها بلا تحفظ وبمقتضى هذا وجب إطلاق الحرية للناس في العمل بمقتضى آرائهم، وفي إبراز هذه الآراء من حيز الفكر إلى حيز العمل دون أن يعترضهم مانع مادي أو أدبي من جانب الغير ما دامت أفعالهم لا تمسه بسوء أو خطر. وتنتهي هذه الحرية عندما يبدأ بإيذاء غيره.

وكان الناس يدركون أن إطلاق الحرية لنمو الشخصية هو أحد الأركان الرئيسية لصلاح المعيشة وأنه يعادل اسم المدينة والتربية، بل هو شرط ضروري لتحقيق هذه الأشياء وجزء لا يتجزأ منها. لما قللوا من قيمة الحرية، ولما وجدنا صعوبة في تعيين الحد الفاصل بين حرية الفرد وسلطة المجتمع. وقد نشر الفيلسوف الالماني«وليم فون همبولد» هذا المبدأ حيث يقول:«إن غاية الإنسان، أو الفرض الذي تتجه إليه أوامر العقل الماضية هي تربية ملكاته على أحكم نظام حتى يتهيأ منها مجموعة كاملة تناسبه، وعلى ذلك يكون الفرض الذي يجب أن يسعى إليه كل إنسان هو استقلال الشخصية من قوتها وفي نموها وهذا لا يتأتى إلا بتوافر شرطين. إطلاق الحرية وتنويع المواقف. ومن اجتماعهما تتولد الحماسة الفردية وتتألف قوة الإبداع والابتكار».

وقد يأتي الإنسان أموراً لا تلحق بغيره أدنى أذى، ولكنها تضطرنا إلى أن نحكم عليه بأنه مغفل أحمق منحط في مستواه كإنسان، وما كان ذلك الحكم من الأمور التي ينفر منها كل إنسان، فنحن نسدي إلى صاحبنا معروفاً جميلاً إذا حذرناه منها سِلفاً وأنه لمن مصلحة الناس أن يتوسعوا في بذل هذا المعروف بأكثر مما تجيزه آداب اللياقة الشائعة بيننا لليوم فيقول المرء لصاحبه«أنت مخطئ» دون أن يعتبر في ذلك سيء الأدب أو متدخلاً فيما لا يعنيه.

والخلاصة: إن الفرد غير مسؤول أمام المجتمع عن شيء من تصرفاته ما دامت لا تمس غير شخصه، وأنه ليس للمجتمع من سبيل مشروع للتعبير عن بغضه لأمثال هذه التصرفات إلا النصيحة أو الإقناع أو المقاطعة إذا كان حرصه على صالحه لا يدع له منها مضراً..

ثانياً: ـ إن الفرد مسؤول أمام المجتمع عما يكون من تصرفاته ضاراً بمصالح الغير وأنه يجوز حينئذٍ للمجتمع أن يوقع بالضرر ما يراه من العقاب القانوني أو الاجتماعي متى كانت حماية مصالحه تقتضي ذلك.

الحرية
دراسة نقدّية فلسفّية

الحرّيّة

السلوك الإنساني بشكل عام، يخضع اليوم لتغيرات واضطرابات أعمق وأشد من تلك التي خضع لها في أي يوم مضى.. لقد تغير كل شيء حولنا، وضجيج الآلات المعقدة المرعبة يدوي في أعماقنا، في صميم حياتنا الخلقية والعقلية، أكثر مما يدوي في آذاننا، هذه الآلات التي تقلب الأرض، تقلب نفوسنا، وتسرع في مسير حياتنا الفكرية أشواطاً.. لا ندري: أهي للأمام، أم للوراء، أم حول نفسها؟

إن حياتنا الخلقية مهددة بالانقلاب، فالإنسانية بدأت تؤمن بما هو جديد، إيماناً له نصيبه من الشك، البشر يريدون قيماً جديدة.. ومعتقدات جديدة.. وأدياناً جديدة.. بل، وإلها جديداً... على حساب كل شيء قديم...

في هذا العدو المسعور للإنسان الذي ألقت الآلهة أمامه ظله ليعدو خلفه، يبقى هذا الإنسان، من نفسه، حيث كان، يوم خرج إليه (ديوجين) يبحث عنه بفانوسه: أمام علامة استفهام كبيرة... أين أنا؟ من أنا.؟ أي القيم أستطيع أن أكسب بها إنسانيتي؟ أين المسير؟ ماذا بعد الموت؟ ما علةُ وجودي؟..

سأكون وقحاً إلى حدٍ ممجوج لو قلت إن لهذه الأسئلة أجوبة مصنفة، مرقمة: أولاً، ثانياً، ثالثاً.. لا... الأجوبة على هذه الأسئلة في أعماقي أنا، وأعماقك أنت، وأعماقه هو... أشباح ضبابية ولدها الإيمان بعد أن حمّلها الشك..

ولا تحاول أبدا أن تشرّح إيمانك.. لأنك ستقضي على رعشته البكر.

حتى الآن، استطعت أن أتفق مع نفسي أن هناك مقياساً أوحد، للأسئلة التي طرحناها قبل دقيقة، هذا المقياس هو حريتي أنا، وحريتك أنت، وحريته هو في تقرير موقفه منها، ومن ثم تحديد القيم التي ينهج على هديها.. لا أنكر أنك تستطيع أن تقنعني بخطل قيمي، لكن هذا الإقناع نفسه لا يحدث أبداً قبل أن اختار إمكانية حدوثه، ولفظة الاختيار تحوي مفهوم الحرية.

دعونا نستعير سارتر الآن، ولهنيهة، لأؤدي على لسانه فكرة الاختيار ـ:«الإنسان يجد نفسه على الدوام في مواقف، عليه أن يختار موقفه الخاص ليجد نفسه بين مواقف أخرى لابد له من الاختيار، والاختيار هنا هو حرية الإنسان في سلوكه، الحرية التي تتجدد بتجدد اللحظات، وثواني اللحظات، الحرية بشمولها، هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن يؤكد فيها إنسانيته الخلاقة المبدعة... بكل هذا الذي ورثه الإنسان، من ألف قرن، من شوائب، وقاذورات، وروائح الحيوان...

هل سأكون في هذا الموضع، كالمأسوف على فروسيته، دون كيشوت، أحارب الوهم، وأحاول أن أحدد رؤاي المسعورة عندما أتصدى لأن أحدد الحرية؟

إن كلمة الحرية بالذات تعني تجدد اللحظة، وتجدد الاختيار فكيف أستطيع أن أختار من هذا الاختيار نقطة لأعرفها؟ تصوروا معي سهماً منطلقاً في الفراغ، هل يستطيع أي واحد منا ـ مهما كان موغلاً في النبهانية ـ أن يصفه إلا من إطاره الذاتي؟ قد أراه أنا على شاكلة لا يراها أي فرد سواي... فهل المعرفة حسيّة إلى هذا الحد؟

هذا السؤال يقودنا إلى أول الموضوع!..

❖❖❖

نشأ السفسطائيون في القرن الخامس قبل الميلاد، وقالوا إن المعرفة لا تأتي إلا عن طريق الحواس، فمعيار الحقيقة، هو الإحساس. وقال ـ بوتاغوراس ـ الإنسان مقياس الأشياء.. ولكن ثمة سؤال صغير يبرز بهذا الموضع: هل تتفق حواسنا مع حقائق الآخرين؟ لو وضعنا سؤالنا على الرف سنكتشف مع برادلي:«إننا حين نتخطى ما يعرض بواسطة الإدراك الحسي

الحاضر، فلا ريب أننا نستعمل نوعاً من الاستدلال وكل خطوة استدلالية تبعد عن الإحساس المباشر، تخفض من احتمال الحقيقة!» لقد أوشكنا أن ننكر وجود الحرية بإنكار إحساسنا بالمؤثر الخارجي.. هل من الضروري أن أكون في السجن فحسب لكي أكون غير حر؟ وأية حرية إذن بقيت لنحسها بأصابعنا؟ لقد تصدى (الشكّال) للسفسطائيين، فجعلوا طوال نهارهم يشيرون للشمس ويقولون إنها بطيخة مشتعلة... أليسوا عبيداً لإحساسهم؟

وحمل الشكاك لواء نظرية أخرى، وقال فيرون (لا شيء يقيني، لا شيء أبداً)... وعندما مات.. لم يجز تلاميذه عليه، بل كانوا منسجمين جداً مع كلمته التاريخية فقالوا أنهم ليسوا متيقنين من موته!

وأتى سقراط، فأله الخير، وفكرة الخير لا تعرف إلا بالممارسة... فممارستها واجب، وعرّف الفضيلة بأنها علم، هذا يعني أن الشر جهل ـ كما يقول جان فال ـ فعليك إذن، أن تكون فاضلاً بالقوة.. بالضرورة... ألا يمكن أن نعتبر ـ كما أكد جان فال ـ إن هذه النظرية عن الحرية هي إنكار للحرية؟

أية حرية هذه التي وجدها أرسطو كما وجدها شعراء التراجيديا اليونان.. هذا الخلط المفزع بين الحرية والضرورة... كيف يشعر الإنسان بالحرية إذا علق الضرورة في عنقه؟

وبعد سقراط وأفلاطون الذي تبعه في آرائه، برز مفهوم طريف جداً... مفهوم الأبيقوريين، الذين يرون في الذرة ـ شأن المفكرين قبل سقراط ـ مبدأ للحرية وعدم الثبات.. فالحرية تشبه تساقط الذرات في أمكنة غير معلومة وأزمنة غير معروفة.. على طريق الصدفة لا غير... هذه الفكرة توازي الآن في وقتنا الحاضر (حرية اللامبالاة) الذي يختار الإنسان على أساسها بين فعلين دون أي باعث!

هذا صحيح، على الأقل بالنسبة للأفعال الثانوية، أما لو افترضنا، أن زيداً من الناس أنهى دراسته الثانوية، وعليه أن يختار بين فرعين جامعيين ليرسم مستقبله... هل يختار بلا مبالاة؟ بالصدفة؟ بدون أي باعث؟!

زد على ذلك، أن الاختيار من حيث نتيجته، هو اقتراب مني إلى ذاتي، أعني أنه ليس مجرد اختيار بين ممكنات موضوعية، بل هو اختيار لذاتي نفسها.. لموقفي من وجودي وعند ظهور المسيحية، سكنت الفلسفات نيفاً وخمسة عشر قرناً تحت قباب الكاتدرائيات، وبين السحب القريبة من الله... وأمعنت في الوجدانية إلى درجة قتلت فيها كل تفاعل عقلي...

وأتى ديكارت، الفيلسوف الفرنسي الذي خلق الشباب الثاني للمادة التي أرساها على قواعد مثالية... لقد تصور ديكارت العالم تصوراً ميكانيكياً ووضعه على مثاليته الفكرية: «أنا أفكر، فأنا إذن موجود»...

لقد فهم ديكارت تماماً الحرية... أحسها عن طريق العقل، لكنه لم يكن ليستطيع أن يتحرر ـ بعد ـ من رواسب قرون طويلة من فكرة الوجدان المطلق...

لقد أكد اللاتحددية التامة للحرية، لكنه ربطها بالإرادة... وصبغها بشيء من الدين الأمثل الذي رضعه في ظروفه...

وليست النواحي الدينية فحسب، وطريقة تأكيدها، هي التي تتعارض مع تفكير ديكارت بالذات... بل قوله أيضاً بآلية الحيوانات.. وتقسيمه الشاطر للعواطف... وخلطه الفكر بالإرادة..

لقد خان ديكارت مذهبه العقلي خيانة لا تغتفر، عندما حط منهاجه على الرف، وسار وراء وجدانيته الممعنة في البديهيات...

ولم يكن ديدرو الفرنسي، على يقين من أن النظريات المدرحية ـ على رأي أنطون سعادة ـ تستطيع تفسير الشعور... وقال ـ أن المادة غزيرة ممزوجة بالعقل... إلا أنه صمم، لمجرد النكاية، أن يسمى نفسه مادياً، حتى «يشنق آخر رجل بأمعاء آخر قسيس»... ومن ثمَّ كانت حريته مقطعة، موصلة؛

أما فولتير، فهو أكثر نواساً في آرائه من بندول الساعة.. لقد فهم الحرية على أنها الطاعة العمياء ـ الضرورية لإملاءات العقل، ثم أنكرها عندما قال أن تصرفا تناحرة.. ولكن إرادتنا ليست كذلك...

وقال ليبنتز إن الحرية هي «العفوية الموجودة عند الكائن العاقل... وقال إن البواعث تنحرف دونما قصد.. ولكن يبدو أن مجهوداته كانت عبثاً: مطبقاً لمذهبه في (الذرات الروحية)، فإن كل شيء يحدث في الذرة الروحية يحدده ماضي الذرة، ومثل هذا المذهب، لا يترك لنا أملاً كبيراً في إمكانية الحرية[4]»

أما «كانت»، فموغل بالأفلاطونية إلى حدٍ مفزع... أنه يقرر أن أفعالنا كلها محددة، «إن الزمن اخترعه الفهم لينظم التجربة» أما الفعل فهو انعكاس فحسب...

إن كانت يلغي الحرية من عالم الظواهر، ويبقى الحرية لعالم الأشياء في ذاتها... فهو لا يعطينا حريتنا الحقيقية، ولكن حرية سوانا.. حرية لا نعرفها لأنها في ذات الشيء...

ويفترض كانت أننا أحرار لضرورة هذه الحرية في اختيار الخير أو الشر.. وعنده أن لابد من ثواب أو عقاب.. والروح تخضع لهذا الجزاء في العالم الآخر، إن ليس هنا، فالروح خالدة... وأعمالنا كلها.. محددةٌ بأطر سوداء من (حلال) و(حرام) قبل أن نقدم عليها بمئة مئة يوم... وحريتنا هي اختيار بين مفروضين.

وقفزت القيم بعد هؤلاء إلى الجدل، وإدرجها هيجل كلها تحت: (الفكرةُ في ذاتها) وارتفع في مثاليته إلى الصقيع.. لقد سقَفَ هيجل الجدل بالدولة البروسية ولم يكن يعلم أبداً أنها أخفض من حرية الإنسان بكثير. ووضع قيمة الهيئة للدولة أشاد بها ليل نهار، وتبلغ ذروة مأساة جدله ساعة يقيم الملكية الإلهية المقدسة، بملك مطلق السلطة، ويقرر أن الشعب حر...

ويهاجم برغسون كانت وهيجل، بنقطة الزمان التي أهملاها، ويعتبرها مقياس مهم في قضايا الإنسان وينكر على كليهما فكرة أن الباعث الأقوى يسود.. فيؤكد أن ماهية الباعث لا تعرف، وإنما تعرف تأثيراته...

ويرى برغسون إن الحرية هي السلبية النفسية، أي تحديد الفعل عن طريق الذات كلها... «فالأمر كله يتعلق بنا، فيجب أن نكون ذواتُنا، أن نكون أحراراً، وهذه الحرية ليست

4- الحرية ـ جان فال ـ الآداب.

عدم اكتراث كما فهمها المدرسيون.. أي تردد بين ممكنين، إنـما هـي تحريـر لأكثـر تفـضيلاتنا صميمية وأصالة».

إلا أن الفلاسفة يأخذون على برغسون انحرافاً ـ حتى صلعته ـ في الوجدانية، وتأكيـده ـ كما فعل شوبنهور ـ إن الحقائق العاطفية أقرب للحقيقة من الحقائق العقلية.

بعد هيجل، ظهـر الماديون الميكـانيكيون.. وحبـسوا الإنـسان ومـشاعره وإحـساساته وارتفاعاته وانخفاضاته في قوانين طبعكيمائية.. فكـل مـا سـيحدث معـروف رياضـياً وأبـرز ممثليهم: سبيرو هاريت، وانتونيو بارسيلو، وأرنست سلفي.

إنهم يريدون أن يجددوا في الإنسان (قطع غيار) و(براغي) و(تكتاكات) الآلـة... إلا أن تطور الميكانيك نفسه جعل نظرياتهم، خاصة في نظرية الكوانتوم وهي غير الكونتا التي صـار يسلم بهـا عمليـاً كـل علـماء الطبيعـة.. وثـم بتجـارب العـالم البيولـوجي (هـانس دريـش) والميكانيكيون هؤلاء، على ضـوء قـوانينهم الطبعكمائيـة، نـستطيع أن نقـول أنهـم حتميـون: والحتمية هي أن الأسباب نفسها تولد النتـائج نفـسها... والإيـمان بقـوة تـسير.... والحتمـي يفترض أن الحرية وهم لأن الدافع MOTIVE الأقوى يتغلب دائماً.

ويرى السيد كارل ماركس في الإنسان كنز الأرض، ولكنه لا يعـترف بكيانـه مفـصولاً البتة عن شرائطه الاجتماعية الاقتصادية، ليس هناك إنسان خير أو شرير، والطبيعـة الإنـسانية خرافة مثالية.. والاقتصاد هو المحدد الأول... والناس كلهم سيان.

هل تلغي الشيوعية الفرد؟ لا أدري... إنما الشيء الواضح تمامـاً هـو أن مـاركس أعـاد الإنسان ـ من حيث كونه موضوعاً يبحث ـ إلى طريقة بحثـه في القـرون الوسـطى... النـاس كلهم نسخ واحدة، وقطيعاً تتساوى فيه الرؤوس والقرون... صـحيح أن مـاركس بحـث في الحرية، لكنها حرية الجماهير ككل لا حرية الفرد كإنسان... إن حرية ماركس حريـة كميـة لا حرية كيفية... ألا نستطيع أن نقول أن ماركس ضحى بالحرية لحساب المساواة؟

إلى هنا تأتي مرحلة أخرى، من وجهة نظر الحرية، وضع أسسها كيركجرد وجعل نصب

عينيه نقد هيجل... فقال إن فكرته تنقصها الإمكانية...

عاش كيركجرد في ظروف أجبرته على الإيمان بعناصر القلق والحصر والتمزق الداخلي، فالمؤمن: لابد أن يعيش في شك مرير...

ويأخذ خلف كيركجرد عليه إمعانه في الفردية، ويؤكدون أنها فقط استمرارية لحقده على هيغل في فلسفة القطيع... ثم يأخذون عليه أيضاً نزعته اللاعقلية المتطرفة.

يقول كيركجرد، أنه من الخطأ أن يبحث الإنسان عن وجوده في الآخرين، فالإنسان لا يستطيع أن يجد الوجود الحقيقي ذاته، فهي هناك مجرد ظواهر... لكنه في أعماق ذاته يستطيع أن يجد مكان التقائه بالآخرين...

أما الحقائق الموضوعية فهي شغل كيركجرد الشاغل... أن يرفض العقل بكل قوته وكل جبروته ويصيح دائماً (أنا أؤمن لأن هذا غير معقول) والحقيقة الموضوعية هذه فهي إن وجدت، موغلة في الذاتية إلى نقطة لا يمكن أن يتشارك بها الفرد مع الآخرين، لأنها تخضع هي الأخرى إلى صيرورة الفرد الزمنية...

ومن عناصر الوجود عند كيركجرد الاختيار.. والاختيار هو الحرية، وهي ضرورية لكي يكون للفعل معناه الكامل. والخطيئة هي مقياس الحرية لأنها اختيار بين الإمكانيات.

ومن نوعية كيركجرد، يبرز الفيلسوف الفرنسي المعاصر جابرييل مارسيل.. هو يرفض أن يسمى وجودياً خوف الالتصاق بنوعية سارتر، ويأبى أن يمذهب فلسفته مفضلاً أن يدعوها (بالسقراطية المسيحية) ويرى مارسيل أن الذات لا تدرك وجودها إلا في اللحظة التي تدرك فيها الآخرين، والذات اكتساب وليست حقيقة واقعة..، (والأنت) غير (الهو) لأنها أقرب (للأنا) وارتفاع الذات إلى مستوى الشخص يلزمه نحو ذاته ونحو الآخرين. وكلما زاد حظ الذات من الشخصية زاد حظها من الشعور بالحرية والمسؤولية..

فالحرية إذن هي قيمة الإنسان الأولى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمسؤولية.. والمسؤولية تشتم منها على الدوام رائحة الآخرين.

وكارل يسبرز يؤكد على منطلقة في فلسفته: ويقول يعارض ديكارت، (أنا أختار فأنا إذن موجود) و(أنا أوجد لأنني أختار) والحرية هذه لا تعرّف ومحاولات تعريفها كانت خطأ بيد أنه أما إن لا يكون ثمة حرية على الإطلاق، أو تكون الحرية متضمنة بالقوة في صميم التساؤل الذي نثيره...

ويوافق كانت في أن (ليس للحرية مكاناً في عالم الموضوعات) ولا يوافقه في أن الحرية لها مكان في عالم (الشيء في ذاته) إنما هي في نطاق الوجود الذاتي. والمعنى الأوحد لحريتك هي أن تبقى مخلصاً لذاتك، والشك في الحرية هو شك في الذات، وهذا يؤدي إلى تلمس اليقين الخارجي والذوبان في الكل.

والحرية المطلقة ضرب من الاستحالة لأنها تقوم على متناقضين (الاختيار والضرورة) ولو امتنع كل ضد للحرية لأصبحت الحرية نفسها غير ذات موضوع.

وعملية خلق الذات لا تهتم إلا مع الآخرين. والخطأ لا ينفصل عن الحرية..

ومارتن هيدجر، يصل بين الحرية والزمان... فالحرية هي انطلاقية المستقبل المتعارضة مع انغلاقية الماضي..

والوجود عند هيدجر نوعان: نوع حقيقي هو ذلك الوجود الذي فيه تشعر الذات بأنها قائمة بنفسها مسؤولة عن ذاتها، وأنه قد خلي بينها وبين حريتها ولابد لها من أن تتحمل تبعة وجودها ونوع زائف.. هو الاندماج في الناس والانغماس في المجموع تهرباً من المسؤولية، وشعور القلق.

والموت هو الذي يكشف الوجود الشرعي.. فأنا أموت مرة واحدة فحسب في زمن لا أستطيع تعيينه.. هذه الحالة السوداء لها شيء يقاومها هو الضمير ... والضمير صوت الهم... فهو الذي يجعلنا مدركين للخطيئة خطيئة الوجود الذي أتيناه مرغمين... إننا أحرار... ولم نختر هذه الحرية.. بل فرضته علينا..

ونصل من هنا، لسارتر.. جان بول سارتر... الذي يقول إن الإنسان له ميزة تخطي ذاته ليعيش بمشاريعه.. إذن الإنسان حر، أو بالأحرى الإنسان هو الحرية، وهو الذي خلق القيم

كلها.. إن الحرية لم يمنحها أحد للإنسان ولكنه يجد نفسه حائزاً عليها... يجب أن يكون حراً... لأنه لا يمكن للإنسان.. للإنسان.. إلا أن يكون حراً... لقد حكم علينا بالحرية...

والحرية عند سارتر لها ثلاث نقاط: في الفرد كمركز للحرية، وفي الآخرين، كعلاقة بين الأفراد.. وفي الموقف كعلاقة تمارس فيه الحرية. والإنسان بينه وبين ذاته لا ينقطع أن يكون حراً مهما حاول أن يتخلص من حريته، أو استخدامها من أجل حريته.

❖❖❖

بعد هذا كله، أتصور أننا لا زلنا كالمأسوف على شيخوخته (ديوجين) نحمل المصباح في وقت الظهيرة لنبحث عن الإنسان... ليس بين الناس فحسب بل بين نظريات الفلاسفة كلهم خلال التاريخ..

أتصور أن بينكم الآن من يغمز بعينه متوقعاً أن أخرج من هذه النظريات بنظرية أضعها فوق الكل...

كلا...

إنني متأكد من شيء واحد الآن، هو أنني كنت أعلم بالإنسان وبحريته قبل أن أقرأ هذه النظريات، في رأيي أنه ليس أجمل من العفوية في فهم الأشياء والقيم...

❖❖❖

إلا أنه لابد لنا أن نعود، والعود أحمد، إلى إنساننا العربي. المستغرب الضائع الباحث عن حقيقته في الفراغ المريع بعد أن كسر من حوله الصقيع.

أن نعود به إلى قمقمه النتن، هذا مستحيل... لقد ضاع غطاء هذا القمقم ولا بد أن يتسرب النور...

إنساننا حتى الآن في دوار.!

وتبقى منطلق حلوله لمشاكله قومياً صرفاً..

مهمة إنساننا العربي الآن، هي الاعتراف بقيمته كإنسان له حق الوجود.. وحق الارتفاع بهذا الوجود..

وهذا الوجود يستدعي الحرية.. أو الحرية تستدعي الوجود سيان.. وحرية إنساننا هي تأكيد نوعيته الإنسانية... وتخلصه من سيطرة الأجنبي ونفوذه في أرضه وفي ذاته..

وحرية إنساننا العربي الآن هي تخلصه من استعبادات الأطر الأقليمية القطرية الضيقة إلى وطن عربي واحد.

وحرية إنساننا العربي هي تخلصه من إقطاع بغيض واستغلال شنيع إلى عدالة اجتماعية يلمس فيها فردنا، بكل رعشاته نوعيته الإنسانية التي افتقدها زمناً ومنها كل عناصر الاشتراكية الملائمة.

حرية إنساننا العربي.. هي نضاله الآن في سبيل هذه القيم..

حرية إنساننا هي تحرره من انغلاقيته إلى مزارع النجوم...

حريتنا هي أن نشعر أننا نستحق حريتنا...

المراجع:

1 ـ مقالة الحرية، تأليف جان فال، ترجمة مجاهد مجاهد، الآداب السنة 3 العدد 10.

2 ـ مباهج الفلسفة، تأليف وول ديورانت

3 ـ حياة الحقائق، تأليف غوستاف لوبون

4 ـ الفلسفة الوجودية، تأليف زكريا إبراهيم.

5 ـ والكتب التي وردت فيها نظريات الفلاسفة المذكورين في المقال.

المنهج التطبيقي
للاشتراكية العربية

تنبع ضرورة الاشتراكية من بديهية أولية بسيطة:«هي حق الناس جميعاً في أن يعيشوا حياتهم متمتعين بحقوقهم الإنسانية العادية»... ورغم أن هذه البديهية للوهلة الأولى، لا تحتاج لمناقشة.. إلا أن عملية التاريخ كلها كانت صراعاً من أجل إحلالها، ومجرد استعراض بسيط للحوادث تذكرنا بأن«ألف مسيحٍ دونها صُلبا» ورغم ذلك فإن الاشتراكية استعملت بنجاح كبير كواجهة ملونة لعدد عديد من الأحزاب، ودافع عنها، بحرارة صوفية، رأسماليون كانت غايتهم تخفيض أجور عمالهم... وادعت بعض النظريات أحقيتها المطلقة في امتلاكها كلياً وحرمت ذلك على من سواها. وفي القرنيين الماضيين كانت كلمة الاشتراكية هي الرغيف الوحيد لأحلام العمال الجائعين، وقافلة وراء قافلة سقطت بإخلاص من أجل مثل الاشتراكية العليا.. ونحن اليوم حينما نجد أنفسنا في ج.ع.م نواجه مشكلة البناء الاشتراكي نحس بصورة مدهشة، كم كانت بعيدة عنا كل الكتب التي لفظتها مطابع القرن العشرين... ونحس، بصورة مدهشة أيضاً، أن الاشتراكية تحتاج، قبل فهم الآلة فهماً جيداً، تحتاج إلى فهم الحياة أولاً، ذلك أن أي عملٍ حضاري بلا جذور إنسانية هو عمل مرفوض من قبل الإنسان تلقائياً. ولكن قضية الاشتراكية ليست أبداً بهذه السهولة، فهنالك وجهة نظر مضادة لها وزنها، وثمة، أسئلة تطرح بلا أجوبة تقريباً، وبالإضافة لكل ذلك فإن (مبدأ التجربة والخطأ في الاشتراكية) ليس من الأشياء المسلم بها نهائياً.. إذ أنه ليس لدى الإنسان أي حق أخلاقي في أن يخضع الآخرين«لتجربة» بحسن نية أو سوء نية ورغم ذلك، فكيف يمكننا أن نصل إلى الحقيقة، أو نقترب منها على الأقل إذا لم يكن مبدأ التجربة سلمنا في الصعود المطرد؟.

ومن هنا تبدأ أسئلة كثيرة: هل أنت على ثقة أن هذه التجربة هي في طريق صاعد؟ ألم يخضع الجيل السوفياتي لتجربة استمرت أربعين عاماً في خطأ متواصل؟ كيف يجيز إنسان

لنفسه أن يقضي على حياة جيل كامل لمجرد أن هنالك بعض الأفكار الجريئة تدوي في رأسه؟

يبدو أيها الأخوة أن عملية البحث عن الحقيقة هي، أولاً، عملية ابتعاد عن الخطأ أكثر منها وصولاً للحقيقة... وإذا كان لابد لنا من أن نبحث عن سعادة الفرد العربي فإننا مجبرين على أن نخوض معركة التجربة والخطأ. ولكن هذه المعركة تفقد كل معناها إذا بدأناها من أول الطريق، إذا لم نضع نصب أعيننا تجارب الأمم الأخرى ونستفيد من خطأها في الصعود المطرد... وهكذا فإنه لا مفر لنا من أن نناضل أفقياً: من أجل أن نفهم العالم ونقيم علاقاتنا الإنسانية معه، ولابد لنا، وفي نفس الوقت، أن نناضل عمودياً: من أجل أن يزداد فهمنا لطبيعة مجتمعنا العربي، ولكافة جذوره. وفي تلاقي العمودين المتقاطعين نضمن مبدئياً بعدنا عن الانغلاق، وبعدنا عن التقليد وهما أقرب خطأين يمكن للقومية أن تقع فيهما.

أيها الأخوة...

البناء الاشتراكي في حيز التطبيق هو مجموعة أرقام، وعمليات معقدة من أجل أن تحقق هذه الأرقام شيئاً من السعادة للناس، ولكن الاشتراكية في حقيقتها العميقة هي الشيء الذي يعطي لهذه الأرقام مبررها وحياتها. إن الاكتفاء بتحقيق عدالة الرقم هو الشيء السطحي في الاشتراكية«فالخبز وحده لا يكفي» ولا بد لنا من أن نعطي هذا الرقم شيئاً من الإنسانية كي يرد لنا مبرراً لحياتنا. وحينما تتشابك الأرقام مع أعماقها نستطيع أن نطمئن إلى أن تبديل وزارة لا يكفي لنسف ماضينا، وأن كأس فودكا يشربه رئيس الوزارة لن يتحكم في مصير القضية.

لنترك قليلاً«سطحية الاشتراكية» أي أرقامها ووسائلها الطارئة، ولنذهب إلى الخلف، وإلى الداخل، ونبحث عن«الشيء» الذي يعطي هذه الواجهة حياة دافقة متصلة عميقة.

الاشتراكية تحتاج إلى أوليين اثنين بصورة أولية من أجل نجاحها:

أولاً: الحافز

ثانياً: البطل المؤثر

❖❖❖

أولاً: لقد كان الحافز في الانقلابات التاريخية الكبرى هو الخلفية المتينة لكل الانتصارات التي حققتها هذه الانقلابات، بل كان الحافز هو السبب الذي يجعل مبدأ التجربة والخطأ في الاشتراكية مبدأ منطقياً.. ذلك أن التزام الحافز في الإجابة على أسئلة الناس: (لماذا؟) و(إلى أين؟) حل مشكلة الضياع.

لقد صعد المسيحيون صلبانهم من أجل هذا الحافز، واكتسبت القضية في هذا الصعود الدموي قدرتها البديعة على الاستمرار والإصرار.

وأعطي الحافز الإسلامي للجاهليين قناعة عميقة في أنهم باعتناقهم الإسلام يتخطون أهتراء حوافز قديمة لم تكن تستطيع أن تسد ثقوب حياتهم... وانساح المد الإسلامي أمام هذا الحافز القوي وأعطى طوال قرون عديدة، وما زال يعطي إلى الآن نوعاً من، مبررات قوية تجعل الإنسان يموت بسعادة لا تصوف في سبيل القضية...

واستطاع ألف ألف ثائر أن يقدم الحافز لتابعيه... لوثر وغاندي وغيرهم كثير استطاعوا أن يبلوروا الحافز ليعيش الجيل المناضل حياته، ولذلك نجحت ثوراتهم حيث فشلت كل الثورات التي لم تستطع أن تقدم حافزاً قوياً للناس. أن تقدم حافزاً أقوى من الحافز الماضي كي يشعر الجيل بأن حياته ليست تكراراً أبلهاً للماضي، أو عوداً مهيناً للوراء، أو دوراناً مفرغاً في حلقة لا نهاية لها...

أمامنا في هذا الموقف... التجربة السوفياتية... فلقد فشل الحافز السوفياتي في سوق الجماهير إلى فهم مبدأ التجربة والخطأ في الاشتراكية. وفي نفس الوقت لم يستطع الحافز الجديد أن يسد الفراغ الذي خلفه موت القيصرية. صحيح أن القيصرية لم تكن تشكل حافزاً منطقياً للناس، ولكن سقوطها جعل الفراغ يبدو بصورة أوضح، ولم يستطع الحافز الذي قدمته الشيوعية أن يحشد الناس من أجل البناء.

و: أمثلة:

ففي اليوم **12** من الشهر التاسع من عام **1943** توج المتروبوليت سرجيوس بعد حل الكومنترن رئيساً للكنيسة الأرثوذكسية في كاتدرائية موسكو، وكان هذا العمل يعبر عن حاجة الناس الماسة إلى دافع آخر غير الدوافع المادية السوفياتية العادية. وسواء كان هذا التتويج عملاً الغاية منه جعل موسكو روما ثانية كما قيل يومذاك، أم لتأمين التماسك الداخل المطلوب لمواجهة النازية الممتدة عبر الحدود، فإن القضية الأساسية تبقى محصورة في أن الناس كانوا يرفضون الحوافز السوفياتية الجديدة وكان لابد من التفتيش عن قناعات جديدة، أو قديمة، الغاية منها تحقيق هذا التماسك.

لقد علق والتر بيدل سميث في هذه الفترة تقريباً قائلاً إن الجماهير التي كان يشاهدها تتمسح على جدران كاتدرائيات موسكو في المناسبات والأعياد كانت تشكل أرقاماً لا يحصرها العد، وكان الناس، قال في تعليقه، يفتشون بظمأ عن مناسبة دينية كي يتقاطروا على الكنائس حتى تضيق بهم.

ترى... عن أي شيء يفتشون؟ أي فراغ ظامئ يدفعهم في أعماقهم للتفتيش عن امتلاء لحياتهم الضائعة؟

وفي هذه الفترة بالذات... في **1941** على وجه التمام، تخلى الشيوعيون عن شعار «الرأسمالية عدوة الشعوب..» كانت الجيوش الألمانية تهدد الدولة.. وهكذا فلقد انبت الحزب الشيوعي في بين الشعوب السلافية شعاراً جديداً يناضل من أجله، كان الشعار الجديد هو «العدو الدائم للشعوب السلافية هو الغازي التوتوني» فقط...

ليس يدل هذا الشعار على أن الحافز القومي كان حتى في رأي الشيوعية، ادعى إلى التماسك والقناعة؟... لقد رغبت روسيا في حشد السلافيين تحت شعار مقنع.. وكان لا بد من إيجاد هذه القناعة لأنها أجدى في حشد الناس.

وقالت البرافدا إن رفع هذا الشعار هو وسيلة لوصول الروس إلى الدردنيل ومنافذ البلطيق وايجة والادرياتيك. ولكن هذا القول لا يحل المشكلة.. ويبقى سؤال واحد، قوي: إذن لماذا لم تصروا على شعارات السوفيات التقليدية من أجل هذا الوصول؟

هذا خارج الاتحاد السوفياتي.. ولكن في داخل روسيا حدثت أشياء أهم، كان الجندي السوفياتي يقسم اليمين كالتالي: «أقسم على أن أنذر جميع أعمالي وأفكاري في سبيل الهدف العظيم الرامي إلى تحرير العمال وإلى القتال من أجل الاتحاد السوفياتي والاشتراكية ومن أجل إخاء جميع الشعوب...».

ولكن، في عام **1939** كان المحك أقسى من القسم، وهكذا صار على الجندي الروسي أن يقسم أمام القيادة كالتالي:

«أقسم على خدمة بلادي وحكومتي حتى آخر رمق من حياتي» الحافز السوفياتي كان يغش إذن وكان لا بد من حافز قومي آخر يحشد كل الطاقات التي تؤدي بناء على القناعة إلى كافة التضحيات الممكنة.

لدينا أمثلة أخرى على فشل الحافز السوفياتي.. لقد خطب ستالين في **7/ 11/ 1941** يقول أن على الشعب الروسي أن يضع نصب عينيه أبطاله القوميين مثل الكسندر نيوسكي ودمتري دونسكوي، وكوزما مينين، ودمتري بورجارسكي، والكسندجر سوفاروف، وميخائيل كوتوزوف.

ولكن من هم هؤلاء الأبطال الستة الذين أراد ستالين أن يضعهم نصب أعين الشعب السوفياتي؟

تقول دائرة المعارف السوفياتية التي صدرت عام **1930** أن دونسكوي تعتبره الكنيسة الأرثوذكسية قديساً، أما كوزما مينين فلقد قالت عنه أنه بطل يمثل البورجوازية وقالت عن بورجارسكي أنه أمير قيصري حارب بولندا وهزمها عام **1611**، أما سوفاروف فهو قائد

روسي قاد جيوش أورو ضد الثورة الفرنسية.. وكان كوتوزوف أميراً هزم نابوليون وقضى بصورة عنيفة على ثورة الفلاحين الروس..

إن أبطال ستالين كانوا خمسة أمراء وقديس أرثوذكسي... فلماذا يبحث الروس عن أبطال رجعيين يدعمون بسمعتهم موقفهم النفسي؟ لماذا يفتشون عن نماذج قومية روسية طالما أنهم ليسوا بحاجة لهم في تجربتهم الاشتراكية؟

الحافز إذن أيها السادة هو الذي يعطي الاشتراكية معناها... نقول أننا لم نمنح الحافز السوفياتي الوقت الكافي لإثبات وجوده؟ كلا... إن ثورات التاريخ الكبرى استغرقت وقتاً أقل بكثير... الإسلام أثبت وجوده في أقل من ربع هذه المدة رغم أن محمد، كما قال أرثر كوستلر، لم يكن يمتلك صحافة الدولة ودور النشر، وروابط الأدباء، والإذاعة والتلفزيون.

إن الحافز الجديد، لا يحتاج لإثبات وجوده سوى أن يكون أقوى من الحافز القديم كي يحقق التعويض للنفوس الظامئة الباحثة عن الإقتناع...

ثانياً: البطل المؤثر:

الفهم الحديث للتاريخ يرفض دور البطل في هذا العصر، ويعترف بتأثيره جزئياً في العصور السابقة.. ويدللون على ذلك بمقدار ما كان يؤثر مزاج هارون الرشيد على حدود الدولة العباسية، وبمقدار ما أثرت وحشية هولاكو على عصر كامل، وبمقدار ما أثرت عقد نابليون النفسية على مصير أوروبا... وكان أقوى قلم دافع عن دور البطل قلم«كارلايل» أما فوليتر فلقد كان يدافع عن دور الفرد في التأثير على التاريخ بجملة شهيرة هي أن«عيون هيلانة أنزلت جيوس آشيل أمام حصون طروادة..»

ولكن فلاسفة التاريخ يرفضون اليوم رفضاً شبه جازم دور البطل الفرد في تاريخ الشعوب، ورغم ذلك، فليس علينا سوى أن ننظر قليلاً إلى التاريخ المعاصر فإننا لا بد واجدون مدى ما يؤثر حب الناس للقائد، أو بغضهم له على التحكم في مصير الفترة...

على أن الصورة القاتمة للبطل في الماضي ليست هي المقصودة في الصورة الجديدة.. لقد كان بطل الماضي هو الإنسان الذي يقف وراء الناس يصفعهم بسياطه كي يسوقهم أمامه.. أما بطل اليوم المطلوب فهو الذي يقدم الناس بناره من أجل أن يسيروا على ضوئه... وعصور الانحطاط كلها كانت عبارة عن مسير هذا البطل من وراء الناس، ثم عبرهم، إلى أن يمثل رأس الطليعة.

البطل المطلوب ليس إنساناً منفصلاً عن جماهيره، بل هو تمثيلهم الكامل، هو النتاج الأعلى للتفاعل بين الناس، ولذلك فإن البطل يحتوي في أعماقه كل مجتمعه، هو ليس شيئاً هابطاً على المجتمع، بل نابع منه، وأهميته ليست في كونه أعلى من الناس، بل في كونه داخلهم في أعماقهم.

وهكذا فإن أي انقلاب عميق يحتاج بالإضافة للحافز إلى النموذج المجسد للمستقبل.. إلى النموذج الذي يصر يومياً على تقديم صورة واضحة للغد.. والذي يستطيع أن ينتزع من قلوب الناس شكلهم في التجربة.

إن مبدأ التضحية ولد مع مبدأ التجربة في مهد واحد، ونحن لا نستطيع أن نطلب من الناس أن يخوضوا تجربة بلا تضحية، ولا نستطيع أن نطلب منهم تضحية بلا قناعة... إن النموذج المجسد لأحلام المستقبل يقدم الإقناع الأخير، إن ضرورة وجود البطل الذي يمثل الحافز تمثيلاً مطرداً، يقدم للناس معنى النضال من أجل المستقبل.

ولكننا لن نتمكن من أن نفهم البطل جيداً كإنسان منفرد عادي... والكلمة الأصح للتعبير عما أقصد إليه هي: «البطل ـ المبدأ» وهذا التعبير يشكل ضمانة عدم انحراف البطل.

إن كل انقلابات التاريخ الكبرى قادها بطل جسد معنى الحافز، ونحت صورته في أدمغة الناس الذين يتبعونه على الطريق الشائك تماماً كما يقدم القائد الشجاع معنى الانتصار لجنوده قبل أن يخوضوا المعركة، إن الدافع القوي لدخول المعركة موجود عند كل جندي، ولكن القائد يقدم للجندي النموذج المجسد لهذا الدافع، ولذلك فإنه يقدم له المستقبل.

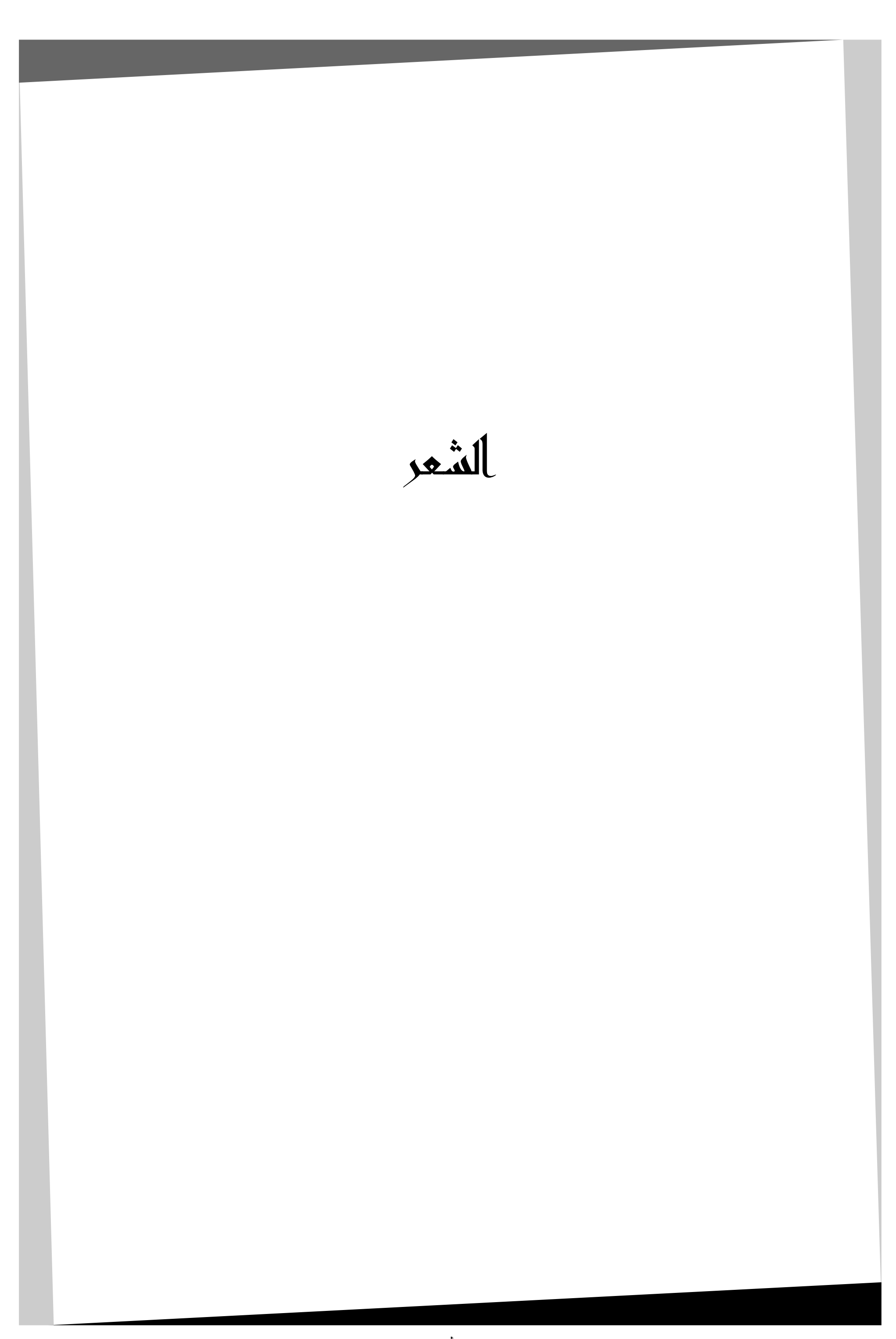
❖❖❖

أيها الأخوة...

لنخرج قليلاً إلى علمية الاشتراكية... ونتكلم بصورة عامة عما يحدث حولنا... صحيح أننا نستطيع أن نعتمد القومية العربية حافزاً لتطبيق الاشتراكية، ونعتمد جمالاً بطلاً لهذا التطبيق... ولكن كيف؟ كيف نطبق هذه الاشتراكية عملياً؟

لنبدأ بوجهة النظر التي يطرحها أي شيوعي بواسطة السؤال التالي:

إلى هنا فقط... (ع)



الشعر

أنا لا أريد !

(كانوا يلقحون الأولاد «بنسلين»

خوفاً من المرض

في وكالة غوث اللاجئين

لكنهم وجدوا بين الصغار

من احتقر البنسلين!)

أنا لا أريد..

لا أريد البنسلين..

دعني أموت

دعني أبيد

دعني أدق على غطاء النعش..

ألحان الأنين!

أنا والحنين!

دعنا نقاسي بؤسنا

لاجئين مشردين!

دعنا نموت

دعنا نبيد!

أو فلنعيش منابراً..

ومشاعلاً

للنازحين!

أنا لا أريد البنسلين!

لا أريد الغوث منك..

ولا الطحين!

أنت تعطي باليسار مداجيا..

ثم تأخذ باليمين...

كالمجرمين!

أنا لا أريد «وكالتي»!

أنا لا أريد إعاشتي..

أنا لا أريد سوى الرحيل..

كما أنا..

كيما أعيش!

كيما أحنُّ ملوعاً...

كل الحنين!

*

وأعد الصغير..

لخيمة دكناء في ظل الطريق..

حيث أم أرمل...

كان بعل في الحياة لها ضمين

وهي تبكي بعده!

بعد الدفين..

وعدا الصغير..

لحجر أم قبّلتهُ..

وهو يبكي..

وهي تبكي...

والدموع..

هي الأنين!

*

أنا لن أعيش..

مع السموم القاتلات..

على الطحين!
جرعوني سُمّهم..
وكأنهم«مبَلسِمين»!
على حطام الذكريات..
على الدموع...
على الدماء..
على السنين!
أنا لن أعيش طوال عمري
لاجئاً!
أنا لن أعيش على غياث
الغائثين!
أنا للحياة!
وأنا الحياة..
والحياة صواعق.
وحرائق..
وخسارة...
للظالمين!!
*
وعدا الصغير..
لحيث يربض ساكناً...
كيس الطحين!
وكأنه يعي الحديث،
ثم يبكي...
ثم يشعر أنه...
كالظالمين!
ويله!!!

ويل الطحين!

قد مرغوا ببياض سحنته....

(غير مكتملة«...ع»)

دمشق 1955/6/13

بلا عنوان

تجمّدت على أسنانه الخرساء
في عمق السكون..!
صمتَ الجميع
والليل جرّ رداءه
فوق الحقول
وسعت تضم الذكريات
بقلبها المصدوع
من هول الشجون
وتنهدت
ورأت سنابل قمحها
مسودّة
جنح الظلام
وخلف أسلاك الحدود

مات الفتى
وذوى أبوها
وتحطم الحلم السعيد
ماتوا لها
ولأرضها
وتطايرت أشلاؤهم
وسع الفضاء
كي ينبت القمح الحزين
على دموع روّت الأرض الحرام
لها

ولأهلها
لا لليهود
ومرة أخرى رنت
عبر الحدود
لم تشهد القمح الحزين
غصت بدمعتها
وفي فيض الدموع

عاد الصباح
فلم يشاهد خيمة دكناء
في ظل الطرق
ورنى بطرف من علٍ
عبر الحدود
لم يشهد الدار الحرام
لم يشهد القمح الحزين

نار سرت في ومض
إشراق دفين
وعلى التراب
تساقطت أشلاؤهم
نتفاً على طرف الطريق
ورنت إلى اللا شيء
في الجو الرحيب
وتذكرت
وتأملت..

تلك الحقول

على جماجم أهلها

نبتت زروع

الغاصبين

من اليهود

هنا دارها

وهنا أبوها مزقته

أظافر الخصم

اللئيم

ورأته يعصر خنجرا

في ظل خيمته الثقيل

في صدره

كي يلتقي في نصله

خيط الوفاء لأرضه

بالنبضة الخرساء

من حلم السنين

وهنا توارى حلمها

وطوى جناحاً مزقته

الحادثات

إلى العرين

جرح يغور بعمقه

كل الحنين

فجر يشع دماً

ويستعر اللهيب
وعلا صراخ النسر
من هول الأنين
ومد ذراعه المفتول

على أطرافه
ترتعش الدماء
وجريها
نحو الفتيل
وهوت جحافل خصمها
ورأته
يهوي من غيوم حقولها
قطعاً
تخضبة الجبين
وتطايرت عمد اللهيب

في ثغره الدامي
يعلّقُ
بسمة النصر الأكيد

(مجهولة التاريخ والعنوان«...ع»)

قصص منشورة لأول مرة في الصحف

بعضها في الأعمال الكاملة.

بعد أن جرى كتابتها التصحيحات النهائية

البومة في غرفة بعيدة

«منشورة في الأعمال الكاملة»

كل صور عدد كانون الأول من المجلة الهندية (أ...) كانت رائعة، ولكن أروعها بلا شك صورة ملونة لبومة مبتلة بماء المطر، وتكمن كل روعتها في لحظة اللقطة الموفقة، وفي براعة الزاوية.. وأهم من هذا كله، في اصطياد النظرة الحقيقية للبومة المختبئة في ظلمة ليل بلا قمر.

كنت في غرفتي، غرفة عازب بجدران عارية تشابه إحساسه بالوحدة والعزلة.. أرضها متسخة بأوراق لا يدري أحد من أين جاءت، والكتب تتكدس فوق طاولة ذات ثلاث قوائم رفيعة، أما القائمة الرابعة فلقد استعملت يداً لمكنسة ما لبثت أن ضاعت، والملابس تتكوم فوق مسمار طويل حفر عدة ثقوب بظهر الباب قبل أن يرتكز نهائياً في وضعه الحالي، أما الفراش، فهو شيء يشبه كل شيء، إلا الفراش..

قلت لنفسي وأنا أشد بصري إلى صورة البومة الرائعة:

ـ يجب أن تعلق هذه الصورة على حائط ما.. فذلك يكسب الغرفة بلا شك شيئاً من الحياة والمشاركة..

ألصقت الصورة بالفعل على الحائط المقابل للسرير، وأطّرتها بورقة بنية كي تنسجم مع الحائط بشكل من الأشكال، كان العمل الفني، إذاً، قد أخذ سبيله إلى الغرفة، وكان لا بد أن أغبط نفسي على التقاط هذه الصورة.

عندما آويت لفراشي في منتصف الليل، فاجأتني الصورة، كان ضوء الغرفة خفيفاً بعض الشيء، وقد يكون هذا هو السبب الذي من أجله بدت لي الصورة في غاية البشاعة، كان رأس البومة أكبر من المعتاد، وكان يشبه شكلاً رمزياً لقلب مفلطح بعض الشيء، أما المنقار الأسود فلقد كان معقوفاً بصورة حادة حتى ليشبه منجلاً عريض النصل، والعينان كانتا مستديرتين كبيرتين يختفي أعلاهما تحت انحناءة الحاجبين الغاضبين، كان في العينين غضب وحشي،

وكانت النظرة ـ رغم ذلك ـ تحتوي خوفاً يائساً مشوباً بتحفز بطولي، وتشبه إلى حد بعيد نظرة إنسان خضع فجأة للحظة ما، عليه أن يختار فيها بين أن يموت، أو أن يهرب، كان الوجه مخيفاً، وبدا أن العينين المستديرتين اللماعتين بإيماءة حيّة، كانت تحدق عبر صمت الغرفة، وتخترق برعشتها الحية جمجمتي، وتقول بصرير حاد:

ـ أتذكر؟... لقد التقينا مرة قبل الآن!

أطفأت الضوء الشاحب، ودفنت رأسي في الغطاء الوسخ بعرق الصيف اللزج، ورغم ذلك، فلقد كنت أرى العينين الغاضبتين الخائفتين تخترقان الظلمة وتحدقان فيّ..

كان وجه البومة المتحدي لضغط لحظة ليس فيها سوى الاختيار بين الموت والفرار ماثلاً في رأسي كأنني لم أحول نظري عنه بعد، ملحاحاً، غضوباً، يتمسح باشمئزاز ساخراً، وعبثاً ذهبت كافة المحاولات التي بذلتها لسلخ الصورة عن رأسي، كانت شيئاً قد دخل إلى الغرفة العارية، وإلى إحساسي، وتمزق الصمت الميت تحت الصرير الحاد الذي كان ما يزال ينحدر من المنقار الأسود المعقوف:

ـ لقد تقابلنا مرة قبل الآن... أتذكر؟!

شعرت فجأة إنني أعرف هذا الوجه تماماً، وأنني أرتبط معه بذكرى يجب أن لا تمحى، نعم، أنا أعرف تينك العينين الحادتين الغاضبتين الصامدتين للحظة اختيار مخيفة.. لكن أين تقابلنا؟ متى؟ كيف؟

لقد بدا كل شيء مغلفاً بضباب متكاثف، ورغم ذلك فلقد كانت ثمة ذكرى تلتمع من بعيد، إلا أنها كانت غامضة مغرقة في البعد، هناك سد كثيف يحول دون العودة إلى الذكرى، وكان لا بد من تذكر عينا البومة الغاضبتين تبعثان دفقة إحساس حاد في نفسي بأننا قد تعارفنا قبل الآن..

ولكن.. متى؟ وكيف؟ وأين؟

نهضت من فراشي إذ تيقنت استحالة النوم تحت تلك الوطأة، وأضأت المصباح ثم وقفت أمام الصورة الملونة: والعيون هي، لم تزل، تطل غاضبة واسعة مغروسة في الوجه المفلطح العجيب.

والمنقار المعقوف كنصل عريض لمنجل أسود، لم يزل، يطبق بعنف على ضرب من الاشمئزاز الساخر، والريش الرمادي الملون بحمرة وقحة يتجمع خُصلاً كصوف قذر بعد أن ابتل بماء المطر.

سقطت الذكرى، بعد فترة، مدوية صاخبة إلى رأسي فأورثتني دواراً مفاجئاً، والتمعت خلال الضباب المتكاثف كل الأشياء التي ذكرتني بها البومة المخيفة، وبدا لي أننا فعلاً نعرف بعضنا جيداً.



كان ذلك قبل عشر سنوات على وجه التقريب، كنت في قريتي الصغيرة التي تتساند دورها كتفاً إلى كتف فوق حاراتها الموحلة، أذكرها الآن أشباحاً تتلامح منذ زمن بعيد، كنت طفلاً آنذاك، وكنا نشهد، دون أن نقدر على الاختيار، كيف كانت تتساقط فلسطين شبراً شبراً، وكيف كنا نتراجع إصبعاً إصبعاً، كانت البنادق العتيقة في أيدي الرجال الخشنة تمر أمام عيوننا كأساطير دموية، وأصوات القذائف البعيدة تدلنا أن معركة تقع الآن، وأن ـ ثمة ـ أمهات يفقدن أزواجهن، وأطفالاً يفقدون آباءهم، وهم ينظرون عبر النوافذ، صامتين، وإلى ساحة الموت.

لا أعرف في أي يوم وقع الحدث، حتى أبي أيضاً نسي ذلك اليوم، كان اليوم المشؤوم، كان أكبر من أن يسعه اسم أو رقم، لقد كان في حد ذاته علامة من علامات الزمن الكبيرة من تلك التي توضع في مجرى التاريخ كي يقول الناس: «حدث ذاك بعد شهر من يوم المذبحة...» مثلاً... كان يوماً من تلك الأيام لا شك، وإلا كنا حشرناه تحت رقم أو تحت اسم أو تحت عنوان.

لقد بدأ الهجوم قبيل منتصف الليل وقال أبي الشيخ لأمي فيما هو يتنكب بندقيته الثقيلة.

ـ إنه هجوم كبير هذه المرة..

ولقد عرفنا، نحن الصغار، من أصوات الطلقات أن هناك أسلحة جديدة، وأن هنالك هجوماً من ناحية أخرى لم تطرق قبل الآن، وأن قنابل حارقة قد سقطت في وسط القرية فأحرقت بيتاً وأطفالاً، وحين نظرنا من خصاص النافذة الواطئة شاهدنا ـ كمن يحلم ـ أشباح نسوة منحنيات يسحبن جثثاً إلى داخل القرية، وكان يستطيع المستمع بإمعان أن يلتقط صوت نشيج مخنوق.. إحداهن ـ هكذا كانت تشير أمي ـ فقدت زوجها وصمودها في آن معاً.

بعد ساعة من الهجوم المباغت، تراجع رجالنا، كانت جهنم قد صعدت لظهر قريتنا، وبدا لنا أن النجوم أخذت تتساقط على بيوتنا، وقالت امرأة مرت تحت شباكنا تسحب جثة وتلهث:

ـ إنهم يقاتلون بالفؤوس..

وقتال الفؤوس لم يكن غريباً على رجال قريتنا، فلقد كان الفأس هو سلاح الواحد منهم بعد أن تتقيأ بندقيته كل ما في جوفها، فكان يحمله على كتفه زحفاً فوق الأشواك الجافة، ثم يشاهد المحاربون من خنادقهم الرطبة شبح إنسان راكع، يرفع كلتا يديه فوق رأسه ما وسعه ذلك، وبين كفيه يتصلب فأسه الثقيل، ثم يهوي الفأس، ويتصاعد صوت ارتطام عريض مخنوق، ويبتلع الظلام أنة ممدودة يعقبها شخير عنيف، ثم يصمت كل شيء.

لقد بدأ قتال الفؤوس إذن.! هذا يعني أن الرجال قد تلاحموا، وأن جثثاً كثيرة قد ضاعت في خطوط الأعداء مطبقة أكفها بتشنج عنيد على الفأس، واضعة أنوفها براحة مطلقة على التراب الطيب، ومستلقية بهدوء.

بدأت قريتنا تنكمش تحت ضغط اللهب الباغي، ولم يعد هناك أي عمل للشيوخ غير أن يعودوا إلى بيوتهم، ولقد شاهدنا أبي يعود منهمكاً، ولكنه لم يضيّع أية لحظة، بل توجه لتوه إلى

درج عتيق كان محظوراً علينا الاقتراب منه وتناول مسدساً صغيراً دفعه لأمي بعد أن تأكد من حشوه، وأشار لها بعينيه تجاهنا، أنا وأخوتي، ثم قفل عائداً إلى الشارع.

كانت أختي الكبيرة قد فهمت كل شيء، فأخذت تبكي دافنة رأسها في كفيها، بينما ارتعشت أمي وهي تحمل المسدس وتتوجه للنافذة.

في تلك اللحظة قرع باب عتيق كان يفصل بيننا وبين جيراننا ـ ولم نكن نستعمل ذلك الباب على الإطلاق ـ وصاح صوت العجوز، جارنا، راجفاً:

ـ افتحوا.. افتحوا..

أز الباب أزيزاً رفيعاً إذ سحبته أمي فاندفع العجوز إلى الغرفة خائفاً، وأجال بصره فينا، ثم توجه لأمي وهمس في أذنها كلاماً أبدت استنكارها له، ثم عاد فهمس بحماس أكثر. فترددت أمي ثم هزت رأسها موافقة، وأشارت إلي أن أتبع العجوز إلى بيته..

دخلت خلف العجوز إلى غرفه دافئة مفروشة ببسط ملونة، وأخذت أراقبه فيما هو يحرك ستارة، ويتناول من ورائها صندوقاً صغيراً يضعه برفق بين ذراعي، شعرت بأن الصندوق أثقل مما يبدوا فتساءلت برأسي، وأتاني الجواب من فمه الأدرد:

ـ هذه قنابل كان المرحوم ابني خبأها هنا..

وهز رأسه بأسى، وانتبهت لكلمة«المرحوم» التي لم تكن تستعمل عند ذلك في هذه الغرفة، ولا في بقية الغرف، فراودني شعور بالخوف بينما استمر الشيخ:

ـ يوشك اليهود أن يدخلوا القرية.. وإذا وجدوا هذه عندي قامت قيامتهم!

وتباطأت كلماته، وبدأ يحرك إصبعه في وجهي حركة تحذير:

ـ أنت صغير، وتستطيع أن تخترق الحديقة.. أريدك أن تدفن هذه الصندوق في آخرها، تحت شجرة التين الكبيرة.. ربما احتجنا له فيما بعد.

سرني أن أشارك بعمل بطولي، فاندفعت إلى خارج الباب، وعندما وجدت نفسي في الطريق إلى الحديقة تملكني خوف رهيب، وحدثتني نفسي، وهي ترتجف، أن ألقي حملي الثقيل وأقفل عائداً أدراجي، ولكنني تنبهت إلى أن أمي لا شك، تطل من نافذتها وتشاهدني.

كانت السماء شبه مضاءة بقنابل اللهب، وكانت الشرارات تلتمع في الأفق راسمة خطوطاً مقطعة منتهية بضوء ساطع، وفي لحظات الصمت المخيفة التي كانت تتبع كل دفقة نار كانت تسمع أصوات ما تبقى من رجالنا تغني على طريقتها في المعارك غناء يبدو كأنه يتصاعد من عالم آخر، عالم يموت فيه الإنسان وهو يعض على بقية الأغنية الحلوة، ثم يتمها هناك.. في السماء.

اخترقت الحديقة منحنياً، وكانت الطلقات تمس أعلى الشجر بصفير خافت، وكانت التينة العجوز تنتصب في آخر الحديقة.. عندما وصلتها شعرت بحماسة غامضة، ونشأت أحفر في الأرض مستعيناً بعود صلب، وفي اللحظة التي أسقطت فيها الصندوق بالحفرة، سمعت صيحة حادة في أعلى الشجرة، وتملكني خوف أسقط ركبتيّ إلى الأرض، وأخذت أحدق مرتجفاً عبر الأغصان.. ثم شاهدتها، على ضوء اللهب المتصاعد في سماء قريتنا، تقف هناك وتحدق في بعينين واسعتين غاضبتين أخفى أعلاهما انحدار الحاجب عليهما..

كان منقارها معقوفاً كمنجل أسود ذي نصل عريض، ورأسها الكبير كصورة قلب رمزي مفلطح يتمايل بانتظام، كان ريشها مبتلاً بماء المطر الذي انهمر في أول الليل، وكأن يومض في عينيها ذلك الغضب المشوب بخوف غريب، وكانت تحدق فيّ عبر الظلمة، تحديقاً متواصلاً لا يرتعش.

هدأ الرعب في صدري، وعدت إلى عملي، حتى إذا أتممته أنشأت أنظر إلى البومة بإمعان، كانت ما تزال على وضعها الأول، وكان ضوء القنابل المباغت يعطي لعينيها ظلالاً مرعبة، وبدت لي أنها مصرة على وقوفها المتحدي، وأنها سوف تبقى رغم كل الرصاص والموت.

عدت أدراجي إلى البيت ببطء وهدوء فلقد زايلني كل خوف كنت أحسه قبل أن أراها... ثم لم أملك إلا أن أتوقف هنيهة وأعود إلى النظر إليها، كانت عيناها ما تزالان تتحركان في رأسها المفلطح بتحذير إنساني عميق، وعلى إيماءة قنبلة بعيدة، شاهدت في عينيها ذلك التحدي الباسل، الخائف بعض الشيء، ولكن الصامد لضغط لحظة اختيار واحدة بين الفرار والموت.

أوشك الصبح أن يطلع وأنا في وقفتي أمام الصورة الملونة الملصوقة على الحائط العاري.

لقد أنهكتني الذكرى ولكنني أحسست بارتياح غريب فجأة، فهاأنذا ألتقي بالبومة الغاضبة بعد غيبة طويلة.. وأين؟ في غرفة منعزلة مترامية تتنفس بوحدة مقيتة، بعيداً عن قريتي التي كانت تعبق برائحة البطولة والموت، وكانت البومة ما تزال ملصوقة على الحائط تحدق فيّ، عبر زمن متباعد، وينحدر من منقارها المعقوف صرير حاد:

ـ إيه أيها المسكين.. هل تذكرني الآن.؟!

الكويت. جريدة الرأي العدد 157 السنة الرابعة

منتصف أيار

«منشورة في الأعمال الكاملة»

لست أدري إلى من سوف أرسل هذه الرسالة.. لقد كان عهدي لك أن أحمل إلى قبرك في كل منتصف أيار بعض أزهار الحنون، فأنثرها فوقه.. وها قد وصل منتصف أيار دون أن أجد ولو زهرة حنون واحدة.. ولو وجدتها.. فكيف لي أن أصل إلى قبرك كي أعطيكها؟.. لقد مضت اثنتا عشرة سنة.. وأعتقد أنك بعدت كثيراً عن كل شيء..

فكما أنت تغور إلى أعماق الأرض وتتفتت، فأنت أيضاً تغور في ذاكرتنا، وتتلاشى ملامحك، حتى ملامحك، لم أعد أذكرها جيداً.. أما صوتك فلست أعرف كيف كان..

عيناك، لم أعد أذكر كيف كان بريقها.. ويصعب علي كثيراً أن أتصور حركتك.. كل الذي بقي منك في ذهني، جسد جامد، كفاه فوق صدره، وخيط رفيع من الدم يصل بين طرف شفتيه وأذنه، وأذكر بوضوح هنا، كيف حملوك وألقوك في الحفرة بملابسك كلها.. ثم أهالوا التراب، بينما مزق صمود رفاقك صوت نحيب مجروح أخذ يعلو خلفنا شيئاً فشيئاً، ثم صمت..

والسؤال الآن هو: لماذا أكتب لك؟

ألم يكن الأجدر بي، وقد فشلت في حمل أزهار الحنون إلى قبرك، أن أستمر في الصمت الذي بدأ منذ اثنتي عشرة سنه؟.

يبدو لي أنه من المستحيل أن أستمر في صمتي، إن منتصف أيار يضغط على صدري وكأنه قدر مجنون، أخطأ ذات مرة.. فقتلك بدل أن يقتلني..

إن خيوط القصة بدأت تنحل في رأسي.. وأخشى أن أنساها.. هل تصدق؟. إنني حقاً أخشى أن أنساها! وربما نسيتها أنت.. فما الذي يعنيك منها الآن؟... ولكنني أريد أن أساعدك، وأساعد نفسي في نسج خيوطها من جديد.

معظم القصص ليس لها بداية.. ولكن الغريب أن قصتنا معاً لها بداية واضحة، بل أكـاد أقسم أن بدايتها من الوضوح بحيث تـستطيع أن تعتبرهـا فـصلاً مـستقلاً عـن جريـان بقيـة أحداث حياتنا..

كان الوقت بعيد العصر بقليل. وقد وقفنا، أنت وأنا، إلى جانب الحجر الكبير الذي كان يشكل مقعداً أمام بيت جدك...

كنا بدأنا التعلم على استعمال الأسـلحة، وحتـى تلـك اللحظـة، كانـت أهـدافنا علـب الأطعمة المحفوظة الفارغة.. وصفائح الزيت العتيقة. وإذا لم تخني ذاكرتي أستطيع أن أقول أننا استعملنا«ضوء الكاز» كهدف لرصاصنا مرتين أو ثلاث.

كان الوقت عصراً.. نعم، سوف أؤكد على هذا مـرة أخـرى لأن الـصورة لا يمكـن أن تكتمل عناصرها إلا إذا دخل إليها ضوء العصر.

لقد وقفنا إلى جانب الحجر الكبير، ثم سمعت صوتك:

ـ ألست تريد الانتقام؟ وتبعت سؤالك سلسلة من الضحكات القصيرة قبل أن أسأل بدوري:

ـ«ممن»؟

ورفعت إصبعك تجاه الحائط المقابل، وأشرت إلى شيء ما، ثم قلت والضحكة ما زالـت تمسح كلماتك:

ـ من القط الذي سرق زوج حمام من البرج.!

وضحكت أنا الآخر.. وتذكرت كيف استطاع هذا القط المنقط الملعون أن يصل إلى برج الحمام في الحديقة في ليلتين متتاليتين ويسرق منه زوجاً من أجود الحـمام الـذي يحـرص جـدي ونحن على تربيته.. وقبل أن أصل إلى قرار سمعتك مرة أخرى:

ـ سوف أقتله أنا إذا خانتك شجاعتك..

ورفعت بندقيتك إلى كتفك.. وأطلقتهـا، ومـن خـلال الـدخان ذي الرائحـة الغريبـة، شاهدنا القط المسكين يقفز مذعوراً إلى الـوراء.. ثـم يطـق سـاقيه للـريح إلى سـور الحديقـة

المجاورة، ويقف فوقه متحفزاً يحدق بعينين مدهوشتين إلى حيث خدشت الرصاصة جزءاً من الحائط العتيق.. لست أدري أي شيطان جعلني أهتف:

ـ أخطأته.. سوف أجرب حظي..

إني أذكر كيف صوبت إلى رأسه.. وحينما رأيته مقعياً على السور من خلال انفراج علامة التصويت في مقدمة بندقيتي، شعرت برجفة.. واضطرب التصويت لفترة.. كانت عيناه ما تزالان تحدقان حواليه بجزع ودهشة.. بينما أخذ ذيله يضرب الأرض بانتظام، وأذنيه تنتصبان وتميلان بحثاً عن الخطر.. وفي لحظة ثانية رأيته تماماً في منتصف علامة التصويب، فضغطت الزناد..

لقد لطمته الرصاصة في وجهه.. فانقلب، وتشنجت أرجله في الهواء تتحرك راجفة، ثم هوى على جنبه وأخذ الدم يتدفق.

وقدتني إليه، وقلبته بمقدمة سلاحك.. وهتفت:

ـ إصابة رائعة.. في منتصف رأسه.. لقد قطعت سلسلة أفكاره..

ولكنني كنت قد بدأت أتقيأ.. ثم لزمت الفراش أكثر من أسبوعين..

وحينما زرتني أنت بعد فترة.. سألتني ضاحكاً:

ـ ماذا؟ القط المنقط اللص يجعلك تذوي هكذا.! شيء مضحك.. ألم تعد نفسك لخوض معارك تقتل فيها رجالاً لا قططاً؟

شعرت بالعار.. ولست أدري كيف تكونت الكذبة تلك الساعة

ـ القط؟ أنت مجنون.. لقد كنت أقتل قططاً بالحجارة وأنا طفل!.. كل ما هنالك أن كتف البندقية انزلق بعد الإطلاق، فلمس حلقي.. وهذا هو السبب الذي جعلني أتقيأ.. ثم إني كنت مريضاً من قبل..

هل انطلت عليك الكذبة؟

لست أدري إلى الآن، ولكن الذي طمأنني يومها، إنك عدت إلي في المساء، وهمست في أذني أن أعد نفسي لهجوم ما خلال يومين.!

وفي السيارة التي حملتنا إلى المستعمرة المجاورة، كنت ما زال أعاني من وطأة الحادث.. ولكزتني فجأة ملفتاً نظري إلى الحقول وقد بدأ أيار يعطيها لون حياة جديدة.

ـ هذا الحنّون.. لقد كنا نفتش داخله عن حشرات ملونة لطيفة، وكنا نقطع ألف زهرة حنون حمراء كي نجد حشرة واحدة.. يا سلام.. سوف أكون سعيداً لو عاهدتني على أن تحمل إلى قبري في كل أيار باقة حنون.. أتعاهدني؟..

ـ أنت سخيف. ولكن إذا كان عهدي سوف يسكتك فأنني أعاهدك..

ماتت الضحكة على شفتيك، وضممت بندقيتك إلى صدرك، وقلت بصوت واه، ولكنه عميق:

ـ شكراً...

لقد نزلنا، عند الظهر، في حقول المستعمرة.. كانت الخطة جريئة، ولكنها ممكنة.. احتلال البيوت المتطرفة من المستعمرة ثم نسفها، والعودة إلى بلدتنا من جديد.

ولكن الذي حدث كان غير ذلك.. لقد فاجأنا اليهود في حقولهم، ونشبت معركة ضارية، كنت إلى جانبك، وكنتُ أطلق نيران سلاحي كيفما أتفق، فلسنا نرى أحداً نصوب عليه.. وكنا خلال ذلك نستمر في الزحف بين الأشواك والزرع.

أكنت خائفاً يومها؟؟ لست أذكر الآن.. ولكن ذلك اليهودي الذي انتصب أمامنا واقفاً على حين فجأة، شل تفكيري.. كان يحمل قنبلة يدوية ألقاها فوقنا، وسمعت صوتك والدخان يكاد يعمينا:

ـ اقتله.. لقد علق رصاص مشطي...

وانجلى الدخان.. كان ما يزال واقفاً هناك يحمل قنبلة ثانية ويفتش بين الأعشاب عنا.. ورأيته من خلال علامة التصويب يقف هناك.. بعينين مذعورتين مدهوشتين.. ومرت لحظات دون أن يستطيع إصبعي شد الزناد.. كنت أرتجف.. وبقي الهدف واقفاً في منطقة تصويبي.. كنت أشاهده من خلال أداة التصويب.. ومن خلال هذه الأداة، شاهدته يكتشفك.. ويلقي فوقك بقنبلته الثانية، ويولي الأدبار..

وهكذا أرجعناك إلى بلدتنا حيث دفنوك بكامل ملابسك كما يجب أن يدفن الشهداء.. وكانت أمك تبكي خلف رفاقك.. بينما أخذت أنا«في غمرة عاري» أزرع فوق التراب الندي باقة حنّون جمعناها في طريق عودتنا.

لقد مر اثنا عشر عاماً على ذلك اليوم، وأنا ملاحق من عاري.. كل أيار يثقل صدري ككابوس لا يرحم..

والسؤال الذي يجأر في رأسي.. هو: لماذا أذكرك الآن وأكتب لك.؟ أما كان الأجدر بي أن أستمر في صمتي؟؟

كلا.. إني لا أستطيع، الأيام تمر، وأنت تغور في ذاكرتي كما تغور في الرمل، وأخشى أن أنساك.. إني لا أريد أن أنسى رغم كل العذاب الذي يحمله التذكر، فقد يستطيع هذا العذاب أن يجعلني أحس يوماً بمدى ما هو ضروري أن أعود إلى قبرك.. فأنثر فوقه بعض أزهار الحنون..

لست أعرف مبلغ تطوري الآن.. هل أستطيع أن أقتل يهودياً دون أن أرتجف؟ لقد كبرت.. وجعلتني الخيمة أشد خشونة.. ولكن كل هذا لا يعطيني يقيناً..

يقيني الوحيد، هو أنني أشعر بالعار ملتصقاً بي حتى عظمي.. هل يكفي هذا؟؟.

أعتقد أنه يكفي.. فالقط الذي قتلته أنه يكفي.. فالقط الذي قتلتهُ لم يفعل سوى أنه سرق زوج حمام كي يأكله، وكان السبب هو جوعه حتماً، أما الآن فأنا بإزاء جوع آلاف من الرجال والنساء.. أقف معهم أواجه لصاً سرق منا كل شيء..

أيكون هذا هو السبب الذي جعلني أنفك عن صمتي، كي أزيد التصاقي بك؟

لقد اكتشفت أنا، كما يجب أن تكون اكتشفت أنت منذ زمن بعيد، كم هو ضروري أن يموت بعض الناس، من أجل أن يعيش البعض الآخر.. إنها حكمة قديمة، أهم ما فيها الآن.. أنني أعيشها..

- - -

غسان كنفاني. الكويت. جريدة الرأي العدد 20 صفحة 10

ستة نسور . . . وطفل

«منشورة في الأعمال الكاملة»

كنت أعمل مدرس موسيقى في القرى.. ويومذاك لم يكن من الضروري أن يكون مدرس الموسيقى يفهم الموسيقى.. كل ما كان عليه أن يؤديه هو إنشاد بعض الأناشيد أمام الصبية، ثم العمل على ضبط الإيقاع حينما ينطلقون بالإنشاد كمجموعة..

لم يكن عملي مرهقاً البتة.. لولا أنني ـ بحكم المادة التي أدرسها ـ كان علي أن أتنقل بين ثلاث قرى لأؤدي دروسي فيها، ورغم أنني كنت أشعر في الأشهر الأولى بأنني شيء نادر، إلا أن هذا الشعور اختفى كلية حينما أصبح ركوب السيارة العتيقة، مع مجموعة من الفلاحين، وفوق أرض وعرة، شيئاً لا يطاق، وبالإضافة لذلك، كنت قد بدأت أشعر أن عملي هذا ليس إلا دفناً «بطيئاً» للطموح الذي كنت أحمله يوم تخرجت من المدرسة الثانوية.

كان ركوب السيارة أمراً مرهقاً حقاً! كنت أحاول أن أنام أحياناً خلال الطريق، ولكن اهتزاز السيارة العنيف كان يحول بيني وبين أن أفعل...

وفي المرات القليلة التي كنت أشعر فيها بأنني موشك على النوم رغم كل شيء، كان يردني إلى الواقع سلّة، أو بطيخة، أو أي شيء آخر يدفعه رجل يجلس في جواري إلى حضني، أو كنت أصحو فزعاً بعد لكزة عنيفة من جاري يرجوني فيها أن أدخل حَكَماً حول نزاع حدث بينه وبين زميله..

كل هذا، كنت احتمله على مضض، لسبب قد لا يعرفه سوى مدرس قام بعمله في القرى.. المدرس هناك شيء مقدس... وكان يعزّ علينا أن نحطم قدسيتنا الخاصة بتأفف عابر، أو بكلمة فظّة، لذلك كنا نهز رؤوسنا حيناً نشرك عنوة في موضوع، أو نبتسم بطيبة حينما يرجونا فلاح ما أن نمد له يد المساعدة.

كل هذا.. كنت أحتمله على مضض.. ولكن الأمر الذي كان يقدر على انتزاعي من وقاري.. هو أن يدفع بي فلاح ما، في سيارة عتيقة تهتز متأرجحة فوق طريق جبلي وعر، وفي لحظات من المفروض أن تكون لحظات راحتي بين درس وآخر، يدفع بي عنوة إلى مشاركته الحديث والاهتمام طوال الطريق:

ـ هل لاحظت هذه الصخرة يا أستاذ؟

قالها فلاح عجوز ذات يوم مشيراً عبر النافذة إلى صخرة صغيرة مدببة تنتصب فوق تل صغير..

ـ نعم.. إني أراها ثلاث مرات في الأسبوع..

بقيت إصبعه ممدودة تجاه الصخرة وهو يسأل من جديد:

ـ هل تعرف قصتها؟

ـ حتى هذه الصخرة لها قصة؟

سألت مستغرباً، مع علمي بأن لكل شيء في القرية قصة، ولكني لم أكن أعلم أن لهذه الصخرة الصغيرة، في ذلك الطريق المهمل البعيد، قصة أيضاً، ورغم ذلك فلقد حمل سؤالي تأففاً واضحاً، وفرشت الجريدة أمام عينيّ، وأخذت أتلهى بالقراءة..

ـ بدأت منذ زمان بعيد..

تجاهلته، ومضيت بالقراءة، وكنت على يقين أن الفلاح العجوز لا ينظر إليّ، ولكنه يحدق إلى الصخرة وهي تنحر رويداً رويداً في أفق النافذة.

ـ كنت أسافر كل يومين مرة، وكنت أمر بها دائماً فأشاهد فوقها نسراً رمادياً يقف كشيء محنط.

كان يأتي في الصباح، فيطير فوقها بجناحين كبيرين، ثم يحط بهدوء، ويبقى كذلك إلى أن يأتي المساء.. فيحلق عائداً إلى الجبل من جديد.

طويت الجريدة، ووضعتها في جيبي ونظرت إلى وجه العجوز.. كأنه كان يتكلم عن أحد أولاده:

ـ طوال ستة شهور لم ينقطع يوماً عن المجيء..

ـ هل عرفت السبب؟

نظر إلي فجأة كأنه يشاهدني لأول مرة.. وتريث هنيهة قبل أن يحول وجهه إلى النافذة من جديد ويجيب على سؤالي:

ـ إن أحداً لا يعرف لماذا يفعل الحيوان ما فعل.. ولكن هذا النسر بالذات، ولد على تلك الصخرة، كانت أمه طاعنة في السن فلم تستطع أن تضع البيض على الجبل، فتركته هنا.. وحينما فقس البيض عن الفراخ، ماتت الأم، وبقيت ملقاة تحت تلك الصخرة..

عاد، فحول وجهه عن النافذة، ونظر إلي:

ـ حينما كبر النسر، وشعر بدنو أجله، أصبح يأتي كل يوم، فيقف حيث ماتت أمه.. وينتظر.!

ـ وهل مات؟

ـ نعم.. مررت ذات يوم فلم أجده.

عدت، ففتحت الجريدة من جديد وأخذت أقرأ.. ولكن العجوز لم يكن قد أكمل قصته.

ـ النسر حيوان وفيّ..

هززت رأسي موافقاً، وكان العجوز ينظر إلي مؤكداً جملته بعينيه... وحينما طال تحديقه إلي لم أجد سبيلاً آخر غير أن أكرر:

ـ نعم.. النسر حيوان وفيّ.

في طريق عودتي.. جلس إلى جانبي فلاح شاب يحمل كيساً كبيراً من الذرة، في أول الأمر تبادلنا حديثاً موجزاً، ولكن حينما مررنا من أمام الصخرة لكزني في كتفي، وأشار عبر النافذة إليها.. كان على وشك أن يبدأ لولا أن قاطعته:

ـ رحم الله النسر!!.. أنت تعرف قصته بلا شك، لقد كان وفياً..

أسقط كفه فوق فخذه، وهز رأسه بأسى:

ـ الحب.. الحب يفعل ذلك كله..

ـ أي حب؟؟

ـ كانت تحبه بلا شك..

ـ من؟

نظر إلي باستغراب، ثم هتف:

ـ أنثى النسر التي ماتت!.. يبدو أنك لا تعرف القصة.!

أعتدل في جلسته حتى واجهني تماماً ملقياً بثقل كيس الذرة على ركبتي:

ـ كانت تأتي كل صباح، فتحوم فوق الصخرة، ثـم تهـبط، وتقـف إلى أن يـأتي الغـروب لتعود مع الشفق إلى الجبل..

تنهدت.. وسألت بفروغ صبر:

ـ ولكن لماذا؟؟

ـ القصة طويلة.. يقال أن نسرين فحلين تشاجرا مرة فوق هذه الصخرة من أجلها.. كان زعيقهما يسمع عن بعد، ولقد تناقرا حتى أدميا، وأخيراً قتل أحدها الآخر. إلا أن أنثى النـسر لم تكن تحب الفائز.. وهكذا، دخل المسكين في شجار آخر معها غُلب فيها شر غلبـة، وسـقط قتيلاً هو الآخر إلى جانب غريمه.

ـ ثم ماذا؟

أشار بإبهامه إلى الخلف حيث مرت الصخرة وهز رأسه بألم:

ـ ثم أخذت تبكيهما فوق الصخرة إلى أن ماتت..

ـ هل تعرف كيف ماتت؟

ـ أغلب الظن أنها كفت عن الأكل..

عاد، فاعتدل في جلسته وأخذ ينظر عبر النافذة إلى التلال الجرداء قائلاً كمن يهمس:

ـ أنثى النسر حيوان متوحش.

بعد أسبوع كدت أنسى القصتين، لولا أن ذكرتني امرأة كهلـة، جلـست إلى جـانبي في ثيابها الفضفاضة:

ـ لو كان زوجها مكانها.. هل كان فعل مثلها؟

أشارت إلى الصخرة، ونظرت إليّ كمن يريد أن يدفعني إلى أن أؤكد ظنها.. قلت:

ـ من يدري؟ قد يفعل مثلها.. ألم يمت من أجلها؟

ـ من أجلها؟

جأرت سائلة.. ثم هزت رأسها:

ـ كانا يأتيان هنا دائماً.. وكنت أراهما كل أسبوع حينما أسافر.

يتناقران بهدوء، ويهران كقطين صغيرين.. كنت ما زلت مخطوبة إلى أبي الحسن، ولذلك كنت أنظر إليهما بإمعان كلما مررت من هنا، ثم وجدتها بعد حين، تقف وحدها... أغلب الظن أنه طار وراء واحدة أخرى.

ضحكت، وسألت مداعباً:

ـ ما الذي أدراك أنه طار وراء واحدة أخرى؟

ـ كلكم كذلك.. والنسور أيضاً، ربما وجد واحدة صغيرة فتركها.

نظرت إلي بانفعال، وضربت كفها على فخذي:

ـ أرأيت؟ لقد بقيت بعد هروبه تأتي كل يوم.. تقف.. تنتظر... تزعق.. حتى ماتت

ـ كيف ماتت؟

ـ غمّاً، بلا شك.

حينما عدت تلك المرة كنت وحدي في السيارة، إلا أن السائق لم يتركني بهدوء، فقد أشار إلى الصخرة، وأخذ يزعق خلال هدير المحرك:

ـ يروون قصصاً كثيرة عن نسر كان يقف على هذه الصخرة، ولكنها كلها خيال بخيال. كان النسر يقف هنا، لأن عشه كان هنا، ثم غير مكانه..

انحنيت، حتى يسمعني جيداً، وصرخت سائلاً:

ـ لماذا؟

ـ أيام كان يقف هنا كنت أعمل على هذا الخط مع زميل واحد فقط كنا لا نزعج الطريق بمرورنا... ولكن مزيداً من السيارات وصلت للخط.. ومعظمها يعمل على المازوت دخان المازوت شيء مزعج والضجة مزعجة أكثر لم تعد الصخرة مناسبة، فهرب بعشه إلى الجبل.

مرت فترة، أسبوع على الأغلب، لم أسافر فيه بسبب مرض مفاجئ، وحينما أصبح باستطاعتي أن أعود إلى عملي شاركني السيارة زميل جديد أحسن ما فيه أنه لا يتكلم.. كان جديداً على العمل في القرى، فأمضى الطريق صامتاً، وأسعدني منه أن يفعل، ولكن حينما مررنا بالصخرة، لكزته.. كنت قد مللت من الصمت فلم أجد مانعاً من التحدث:

ـ انظر.. هذه الصخرة سوف تسمع قصصاً كثيرة عنها بالمستقبل، قصصاً تتعلق بنسر..

ـ نسر؟

ـ نعم..

ـ صمت، وخيل إلي أنه على وشك أن يعاود النوم.. فعدت إلى الحديث:

ـ إني أعتقد أن النسر كان صغيراً، فكان يأتي إلى هنا كل يوم، يقف حتى المساء، ذلك لأن جناحيه الصغيرين لم يكن باستطاعتهما أن يحملاه إلى صخرة أعلى، وحين كبر قليلاً، وجد مكاناً أعلى.

هز زميلي رأسه، وبدا لي أنه لا يرغب بالحديث فعاد إلى النوم...

في طريق العودة، شاركني زميل قديم السفر، وخلال كل ذلك الوقت أصبحت الصخرة علامة من علامات الطريق، وعلامات الحديث.. مررنا بها فملت على الزميل:

أتعرف شيئاً عن هذه الصخرة؟

ـ إني عاصرتها..

ـ كيف؟

ـ منذ طردت من عملي القديم بسبب نشاطي السياسي اشتغلت هنا، لذلك فإني أعرف كل قصص النسر..

ـ وأيها في رأيك أصح؟.

تمدد جيداً في مقعده.. نظر باسترخاء ناحية النافذة:

ـ النسر، كان يأتي إلى هنا لأنه يريد أن يأتي إلى هنا، ليس في الأمر أي لغز، لماذا تحط فراشة على زهرة دون أخرى؟ نفس القصة، كان يأتي فيقف، ثم يعود بهدوء إلى عشه.

ـ ولكنهم يقولون إنه مات..

ـ نعم، قتل..

مد إصبعه، فأشار إلى كوخ أبيض يبعد عن الصخرة بضع عشرات من الأمتار:

ـ قبل أن تبني الشرطة هذا المخفر، كان النسر يأتي كل يوم، وعندما بنوه واظب على الإتيان، إلا أن أحد أفراد الدورية قتله ذات يوم بمسدسه، لأنه، كما قال، أزعجه بصوته وزعيقه..

ـ وهل أصابته الرصاصة؟

هز رأسه ببط، وعاد ينظر إلى المخفر، ثم همس:

ـ أصابته، ولكنها لم تقتله، حاول أن يطير، إلا أنه لم يستطع أن يواصل طيرانه إلى فوق، فسقط في الوادي..

حلّ الشتاء، فغيرت السيارات الطريق متخذة طريقاً آخر لا تطاله الثلوج..

وطوال شهور الشتاء لم أسمع أبداً حديث الصخرة والنسر، حتى إذا ما حل الربيع عادت السيارات إلى سلوك الطريق نفسه..

لست أدري.. هل كان السبب في نسياني الصخرة عدم الحديث عنها، أم كون الطريق في الربيع تتخذ مظهراً خلاباً يجتذب الاهتمام كله.؟

مهما يكن.. فإن أياماً كثيرة مرت قبل أن أطل من نافذة السيارة، فأشاهد الصخرة مصادفة، وأشاهد فوقها نسراً كبيراً يضم جناحيه الرماديين ويقف كشيء محنط يحدق باتجاه الطريق..

ـ لقد عاد النسر..

قلت ذلك باللهجة الجديرة بالخبر الكبير دافعاً كتف زميلي رغم أنـه كـان طفـلاً مـشيراً برأسي إلى الصخرة..

ـ أي نسر؟

ـ سأل الطفل ببراءة، ناظراً إلى حيث أشرت.. فمددت إصبعي إلى خارج النافـذة لافتـاً نظره من جديد..

ـ هذا الذي يقف فوق تلك الصخرة.. ألا تعرف قصته؟

ـ تلك الصخرة؟

ـ نعم...

حدق إلي مبتسماً باستغباء، فهززت رأسي دون أن أكف عن الإشارة إلى الـصخرة، بيـنما كان الطفل يتملى وجهي بإمعان قبل أن يقول ببطء:

ـ هذه ليست نسراً، انظر جيداً.. شجيرة توت بـري تنبـت كـل ربيـع خلـف الـصخرة وتذبل في الصيف، أو تلتهمها الأرانب قبل أن تذبل..

حدقت جيداً.. وخيل إلي أن الطفل صادق، ورغـم ذلـك لم أشـأ أن أتراجـع، فـسألت متردداً:

ـ هل أنت متأكد؟

أبتسم من جديد، مستمتعاً أنه شاهد معلماً جاهلاً وأكد باسطاً كفيه الصغيرتين:

ـ حينما ينضج التوت آتي مع رفاقي لنسرقه.. طعمه لذيذ جداً..

جريدة الحرية/ غير معروف التاريخ

الرجل الذي لم يمت

«منشورة في الأعمال الكاملة»

ما كاد السيد علي يطمئن على مقعده في سيارة الركاب، حتى لمح وجه السيدة زينب تجلس في الجانب الآخر من السيارة، وراوده شعور بالقلق وبالخزي في آن واحد، حتى أنه اعتقد ـ لمدى لحظة واحدة ـ أنه لن يحرك ساكناً إذا ما التفتت السيدة زينب تجاهه، ورأته، ثم بصقت في وجهه... وحاول أن يرفع الجريدة أمام وجهه ستاراً، ولكنه فضل بعد قليل أن يستدير نحو النافذة.. ويحدق في الطريق.!

في يوم ما، مضى قبل عشر سنوات كان يشعر السيد علي إذ يرى السيدة زينب بسعادة طاغية.. سعادة من ذلك الطراز الذي يشعر به ابن المدينة عندما يعثر على كوب ماء نظيف في مقهى قرية مجهولة، ورغم أن شيئاً لم يكن يجبر السيد علي على احترامه السيدة زينب، إلا أنه كان يشعر باضطراره لكي يفعل، بل كان يأمل في يوم يستطيع أن يخطب ابنتها إلى ولده، رغم بعد الشقة بينه، هو صاحب الأرض، وهي، الفلاحة البسيطة التي تستأجر عشرة دونمات من أرضه..

السيدة زينب وزوجها، هكذا قال السيد علي يحدث نفسه، كانا من أنشط الفلاحين الذين رآهم في حياته، ولقد استطاعا بفضل هذا النشاط أن يرسلا ابنتهما إلى المدينة كي تتعلم، رغم أنها كانت قوية، وكان باستطاعتها أن تمد يد العون إلى الأرض، وكانت دار السيدة زينب نظيفة إلى حدود عجيبة كانت تحيره، ففي خارج الباب كان الذباب يتكاثر كأنه غيمة سوداء، وفي داخل الدار، كان اكتشاف ذبابة واحدة يستلزم جهداً مضنياً، ولطالما حيرته هذه الظاهرة.

كان للسيدة زينب ولد أيضاً، ولقد كان قوياً كثلاثة فلاحين، لم يكن يرفع رأسه عن الأرض، إذ يعمل فيها، حتى ولو مر السيد علي نفسه، وحاشيته من محاسبين ومحاسيب... ولقد شعر السيد علي مرة أن القوم لا يحترمونه كفاية.. ففي يوم قائظ من صيف **1948**، مر أمام بيت السيدة زينب فسمع صوتها من خلفه يدوي بلهجة غريبة:

ـ سمعنا أنك تريد بيع الأرض...

واستدار السيد علي فرآها تتكئ على سياج من الخشب العتيق، ورأى في عينيها نظرة لم يعتدها منها..

ـ قررت أن أعود إلى بلدي.. أنت تعرفين أنني لست من هنا، ولقد آن لي أن أعود.. ها... كيف حال العزيزة ليلى؟

ورغم ذلك، فإن النظرة الغريبة لم تبرح عيني السيدة زينب، وسمعها تقول بنفس تلك اللهجة، وكأنها لم تستمع قط لما قال:

ـ وسمعنا أيضاً أن عرضاً يهودياً قدم إليك.!

شعر السيد علي ساعتها بسبب تلك النظرة الغريبة، ورأى أن عليه أن يتقدم خطوة نحوها كي يكسب ودها:

ـ إذا استطعت أن أجّر ذلك اليهودي إلى أن يضيف نصف المبلغ المعروض الآن.. فسوف تكون صفقة موفقة!..

ولمحها تنتصب في وجهه، فعاجل يتابع:

ـ هذه الصفقة هائلة! اسمعي لو بعت الأرض بمبلغ صغير لكان عليكم جميعاً أن تغادروا الأرض.. وأن تفتشوا عن مكان آخر.. لأنني لست مستعداً أن أفقد نصف ثمن الأرض من أجل مساعدتكم... أليس هذا صحيحاً؟

وبقيت عينا السيدة زينب مفتوحتان دون أن ترد على التساؤل.. ورفعت ذراعيها وعقدتهما على صدرها.. ووجد أن عليه شرح فكرته بسرعة:

ـ أما إذا بعتها بمبلغ جيد.. فسوف يتيسر لي أن أعطي كل فلاح من المستأجرين مبلغاً من المال يستطيع أن يقيم أوده، هذا أفضل من أن يذهب للعمل حمالاً في الميناء، ألست على صواب.؟

وترقب الجواب، ولكن السيدة زينب قالت بهدوء وكأنها مرة أخرى لم تستمع إلى أي كلمة لفظها:

ـ يجب أن لا تبيع الأرض لليهودي يا سيد علي...

ـ ولكنني إذا لم أبعها فلن تحصلوا على أي قرش يساعدكم فيها بعد.. أليس كذلك؟

ـ يجب أن لا تبيع الأرض لليهودي يا سيد علي..

عرف لحظتها أن عليه أن يتخذ موقفاً مغايراً، واكتشف أن التساهل الذي كان يعامل به فلاحيه لم يكن في محله، وبذل جهداً كبيراً كي ينصب قامته في وجهها، وكي يصيح بصوته الراجف:

ـ على أي حال.. هذا عملي أنا!!

واستدار، ثم عاد أدراجه إلى داره مفكراً.. هذه السيدة زينب، شيء غريب فعلاً أن لا تفكر بعقلها، إنها لا تملك قرشاً، وعلى رأي المثل المشهور «من لا يملك قرشاً فهو لا يساوي قرشاً..» ورغم ذلك يبدو أنها سوف ترفض هذه الفرصة الكبيرة.! بأي عقل يفكر أولئك المجانين، إنه يعرف صدور الفلاحين، لو باع الأرض لما زوجت ابنتها لابنه مطلقاً، بل لما سمحت لنفسها أن تستقبله في دارها..

وساءه أن تصل علاقته بالسيدة زينب إلى هذا الحد، ولكنه عاد يفكر بالمبلغ المعروض.. من يدري، فقد يستطيع أن يكسب رضى السيدة زينب برزمة صغيرة منه!

آوى إلى فراشه ذلك المساء مبكراً ولكنه صحا بعد قليل على وقع خطوات ثقيلة تحت شرفة غرفته الخشبية، وكاد أن يحسب هذا الصوت وهماً من أوهام النائم.. ولكنه سمع، بوضوح هتاف رجل من تحت الشرفة:

ـ يا سيد علي..

وقبل أن يصل إلى باب الشرفة ويفتحه، كان الهاتف قد صاح بصوت ثابت:

ـ إذا بعت الأرض فسوف يقتلك الفلاحون!

ولم يستطع السيد علي أن يميّز عندما وصل لحافة الشرفة، غير شبح باهت يختفي في زرع الحقل.. فعاد إلى سريره مستشعراً خطورة غامضة...

عرف يومها السيد علي أن شقياً من أشقياء الفلاحين، يريـد أن يلعـب لعبـة تـدر عليـه مكسباً، أو ـ هكذا فكر السيد علي أيضاً ـ ربما كان عضواً في واحـدة مـن تلـك اللجـان التـي تشكلت لمراقبة باعة الأراضي لليهود.. على أي حال.. سوف يكون معه دفعة من المال تسكت أي لسان متحمس...

ثم باع الأرض، وباعها لليهودي بالذات الذي أضاف نصف المبلغ إلى المبلغ المعروض، وفاز بالصفقة، ولكن القلق ما لبث أن عاوده وهو في طريق عودته إلى الدار، إذ سمع صـوت السيدة زينب بلهجتة الغريبة، يهتف به إذ مر من جانب بيتها:

ـ سمعنا إنك بعت الأرض..!

أجاب السيد علي مرتجفاً بعض الشيء:

ـ نعم بعتها، أريد أن أعود لبلدي، أنت تعلمـين أننـي لـست مـن هنـا، لقـد أصـبحت عجوزاً... ها.. أليس كذلك؟

ولكن وجه السيدة زينب لم يتحرك، وسمعها تقول ببرود غريب:

ـ مبروك!

واستدارت السيدة زينب عائدة إلى بيتها، وبقي السيد علي واقفـاً يحـس برعـب شـديد، فلقد خاف أن يكون ضحية جديدة للمتحمسين الذين لا يسمحون للإنسان بأن يفـتش عـن طريقة للكسب، ولكنه سرعان ما طرد الفكرة، فلقد استطاع مـسبقاً أن يكـسب رضـا جميـع فلاحيه بالمبلغ الذي وعد أن يعطيه لكل واحد منهم، ثم إنه لن يبقـى طـويلاً في تلـك الأرض الملعونة، التي تخطف القرش من قبضة الرجل المطبق عليه بإحكام شديد.

في ذلك المساء، سمع السيد علي بوضوح صوت خطوات ثقيلة تحت الـشرفة، وقبـل أن يتحرك من سريره سمع الهاتف نفسه يصيح بهدوء:

ـ يا سيد علي...

وضحك السيد علي بينه وبين نفسه، وقال إن ذلك المتحمس يرغب في وضع اتفاقية صغيرة.. وفي اللحظة التي فتح فيها الباب دوت أربع طلقات نارية... وخيل إليه أنه يسمع ثرثرة تحت شرفته وجلبة مبهمة، وحاول أن يتمسك بالباب ولكنه أخطأه فسقط.

إلا أن السيد علي لم يمت.. بل استطاع بعد أسبوع واحد أن يزور السيدة زينب، كانت تجلس أمام بابها تحوك ثوباً، ورفعت بصرها إذ سلم بصوته الراجف وقالت هادئة:

ـ سمعنا عن الحادث...

ثم هزت رأسها كأنها تواسيه. ورآها تنظر إلى الجرح الطويل تشده الضمادات وتخفيه (الحطة) البيضاء، ويمتد من صدغه إلى عنقه وعادت تحوك ثوبها.

ـ أتيت كي أعطيكم مبلغاً بسيطاً تعيشون من ورائه إذا ما أخرجكم صاحب الأرض الجديد.

ولم يرتفع رأس السيدة زينب عن الثوب. وأحس السيد علي بأن وجوده غير مرغوب فيه، فترك رزمة النقود على الكرسي العتيق، وحاول أن يراقب وجه السيدة زينب، ولكنها لم تتحرك، وهبت نسمة ريح مفاجئة فتطايرت أوراق النقد.. وعدا الخادم يجمعها ووجه السيدة زينب لم يرتفع عن ثوبها.. كان وجهاً صامتاً قاسياً، خيل إليه يومها أنها توشك أن تنفجر ببكاء مرير.. ولكنه لم يقم من مكانه، واستغرب أن يكون للأرض تلك القيمة التي تجعل وجه الإنسان يتهيكل بالألم واللوعة إن هو أرغم على تركها.. ولكن على أي حال ساءه أن تصل علاقة التوتر بينه وبين السيدة زينب إلى ذلك الحد..

وفجأة.. أحس بالجرح الممتد من صدغه إلى عنقه يؤلمه بعنف غريب، ووقع بصره على أوراق النقد يلعب بها الريح ويجري وراءها الخادم، فأحس بخجل لا معنى له، ورفع يده يتحسس الضمادات فوق الجرح الطويل المحصور في صدغه وعنقه.

لم تطل إقامة السيد علي طويلاً بعد ذلك، إذ عاد إلى بلده بمجرد أنه شفي، ولم يعد يسمع شيئاً عن مستأجري أرضه، وهاهو ذا الآن يشاهد السيدة زالت تحوك ثوباً. أمام بابها في مرج

بن عامر، صحيح أن بيع الأراضي كان سبباً من أسباب نكبة هؤلاء، ولكنه لم يكن يتصور أن ذلك سوف يحدث لمجرد أنه عقد صفقة موفقة مع يهودي.. ولكن ذلك حدث على أي حال. ويبدو أن لعنة الأرض سوف تلاحقه إلى الأبد، أحس إحساساً واضحاً هذه المرة أن وجوده في السيارة أيضاً غير مرغوب فيه، وانتظر أن تقف السيارة.. فقام يسير نحو بابها، وعرف أن السيدة زينب لمحته فتعمد ألا يلتفت، ولكنه دون أن يشعر، رفع كفه الكبيرة كي يستر الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.

***

-2-

أحست السيدة زينب عندما شاهدت ظهر السيد علي، وطرف الجرح المحفور في صدغه وعنقه أن عليها أن تجري خلفه، وتدق بأصابعه على كتفه، حتى إذا ما التفت إليها بصقت في وجهه.

ولكنها هدأت من ثورتها. وذكرها مظهر السيد علي بأيام بعيدة..

لقد كان السيد علي إنساناً جيداً في مجمله، هكذا قالت السيدة زينب تحدث نفسها، لولا تعلقه الفظيع بالمال... لقد كان يقول الفلاحون عنه إنه على استعداد لأن يبيع أمه إذا عرض أحدهم مبلغاً جيداً من المال، ولقد طالما سمعوه يقول المثل الوحيد الذي يحفظه:«إذا كنت لا تملك قرشاً فأنت لا تساوي قرشاً..» ولقد كان الفلاحون يقتنعون بتلك الحكمة إلى اليوم الذي قال فيه فلاح يدعى«أبو أحمد» يرد على قول السيد علي«لقد وجدوا عشرات الأرطال من الذهب في قبر فرعون... فكم يساوي فرعون؟» وسرعان ما حفظ الفلاحون كلمة أبي أحمد، وصارت سلاحاً يشهرونه في وجه السيد علي كلما حاول أن يحاضرهم حكمته حول القرش... على أي حال فلقد كانت معاملة السيد علي للمستأجرين وللضمانين وللمشاركين جيدة في مجملها.. بل، لقد طمعت في يوم ما أن تزوج ابنتها ليلى من ابنه أحمد، وفي الحقيقة أنها ما أرسلتها للمدينة إلا لكي تتعلم وتصبح ملائمة لابن السيد علي.

ولكن الأمور تجري على نحو يغاير طموح الناس، فلقد وصلت رسالة من ابنتها ليلى من مدرستها في حيفا تقول فيها أن السيد علي يفاوض يهودياً على بيع الأرض.. وتطلب من أمهـا أن تستفسر لها عن الحقيقة.

لقد انزعجت السيدة زينب حتماً من الخبر، واعتبرته إهانة لأمانيهـا ولأفكارهـا عـن الـسيد علي، وعندما قابلته في اليوم التالي كانت خائفة بعض الشيء، فلم تكن تملك إلا أن تكرر قولها له:

ـ يجب أن لا تبيع الأرض يا سيد علي..

وعندما استدار السيد علي مغضباً، أحست بارتياح غريب، وتنفست الصعداء بعد ذلك الجهد الذي بذلته في سبيل أن تقف موقفها ذاك..

وفي نفس المساء وصلت ليلى من حيفا، وسرها أن تسمع من أمهـا كيـف اسـتطاعت أن تغضب السيد علي ولكنها أصرت يومها أن يقوم حمدان ـ أخوها ـ بتهديد السيد علي بالقتل إن هو حاول بيع الأرض، وقالت كلاماً كثيراً لم تفهمه السيدة زينب ولكنها صدقته عنـدما رأت رأس زوجها ورأس ولدها ينوسان موافقين على كلام ابنتها.

ولكن الذي حدث أيضاً كان شيئاً مغايراً لما رتبته السيدة زينب.. فلقد كان الـسيد عـلي عائداً إلى داره في اليوم التالي عندما تيقنت أنه باع الأرض.

ووافق على كلامها مرتجفاً.. وعندما قالت له ببرود شديد«مبروك!» إنما كانت تعرف أي رعب دوى في صدره.. ففي كل يوم كانت تقع حادثة من هذا القبيل.. رجل يبيع شيئاً لليهود فيؤدبه الوطنيون بالسوط أو بالرصاص، ورغم أن السيدة زينب كانت تعرف أن السيد علي لا يفهم الفلاحين جيداً، إلا أنه لا يمكن أن يكون غبياً إلى الحد الذي لا يفهم فيه الأرض!

وفي المساء.. حمل حمدان بندقيته العتيقة، وسار مع أبيه ومع أخته صوب دار السيد علي..

لم تكن تعتقد السيدة زينب أن حمدان سوف يقتل الـسيد عـلي، كانـت تعتقـد أنـه يريـد تهديده فقط، لذلك فلقد فوجئت عندما سمعت أصوات طلقات نارية، وكان عليها أن تصبر طويلاً قبل أن ترى زوجها يدفع الباب مرتجفاً، وهو يصيح بصوت مبحوح:

ـ لقد مات!.

وخفق قلبها بخوف رهيب.. ترى أي شيطان دفعها لكي تسأل:

ـ من؟ السيد علي؟

وأي إله جعل جواب زوجها المبحوح:

ـ لا.. حمدان!

وأحست بدوار.. وبصمت مطبق من حولها كأنها لم تسمع كلاماً في حياتها فقط.. كأن أذنيها ترفضان سماع شيء على الإطلاق.. وكمن يحلم سمعت صوت زوجها يأتي من خارج دنياها:

ـ انفجرت الرصاصة الأخيرة فمزقت صدره ووجهه.. لقد مات.. لقد مات..

ولكن السيدة زينب لم تتحرك.. ورأت زوجها كالذي به مس جنون يجمع أدوات الحفر.. حفر قبر ولدها.. ورغم ذلك فلقد بقيت خارج الدنيا.. كأنها مجرد لوحة معلقة على جدار كبير تنظر دون أن تفهم.. ثم رأت جثة حمدان مغطاة بطبقة جافة من الدم، وفوق رأسه ليلى تنوح بصمت راجف.. ولكنها لم تتحرك. ورأت الجثة تحمل على كتف زوجها إلى خارج الدار، وعندما عاد زوجها وفي عينيه دموع رجل لم يبك قط، فقط عندما عاد زوجها مغبراً من تراب القبر الجديد.. فقط عند هذا، وقعت على الأرض... كأن يداً جبارة قطعت خيط اللوحة المعلقة على الجدار الكبير.. فسقطت.

ولكن السيد علي لم يمت.. وقدر لها أن تراه، مرة أخرى، يعطيها مبلغاً كي تعيش به إذا ما غادرت الأرض.. وتصورت لحظتذاك إنه إنما يعطيها ثمن ابنها، وهمت أن تبكي ولكنها خافت أن يكشف أمرها، ولأول مرة عرفت كم هي قاسية مؤلمة اللحظة التي يستطيع أن يبكي فيها الإنسان، ورغم ذلك، فهو لا يريد.. أو يخاف أن يبكي.. وبطرف عينها شاهدت النقود تطير فعل الريح، ولكنها لم تتحرك.. وبدت لها بوضوح حقارة المثل الذي يقول«من لا يملك قرشاً لا يساوي قرشاً».

وودت لو ينهض السيد علي كي تنفجر ببكاء مر طويل، ولكن السيد علي لم يتحرك.. وتجلدت طويلاً.. إلى اللحظة التي غادر فيها السيد علي متكئاً على ذراع خادمه...

وهاهي ذي تراه من جديد يهبط السيارة بجرح طويل محفور في صدغه وعنقه... لا تدري لماذا لم تبرح ذهنها صورة السيد علي وهو يحاول أن يخفي الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.. واعتقدت، وهي جالسة تفكر، أن السيد علي يخجل من هذا الجرح، وإنه يراوده ثمة شعور بالخزي كلما وقف أمام المرآة كي يحلق ذقنه.. إلى حد يود فيه لو يبصق على صورة وجهه المطبوعة في المرآة.

ولأول مرة، مذ غادرت أرضها، أحست بشيء من الراحة لأن السيد علي لم يمت.. وأنه ما زال حياً، يحدق كل يوم بالجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.

ويتذكر الأرض التي باعها..

وقالت في ذات نفسها وهي تنظر إلى الطريق:

ـ سوف يتيسر للسيد علي أن يرانا نعود للأرض التي باعها.. سوف يشعر يومها ـ وهو يحدق بالجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه ـ إن هنالك شيئاً أقسى من الموت...

أقسى بكثير...

رابطة الأدب والحياة / الكويت، جريدة الرأي العدد 194 السنة الرابعة

قلعة العبيد

«منشورة في الأعمال الكاملة»

لو لم يكن رثّ الثياب بتلك الصورة المحزنة، لقلنا عنه أنه شاعر... فالمكان الذي اختاره ليبني فيه كوخه المتواضع من الخشب والصفيح مكان رائع.. وعلى بعد أقدام من العتبة يتمسّح جبروت البحر تحت أقدام الصخور الحادة بصوت رتيب عميق.. كان وجهه نحيلاً باشّاً، ولحيته البيضاء تتخللها شعيرات سوداء تزيد في بؤسه، وكانت عيناه غائرتان تحت حاجبين منفوشين، ووجنتاه بارزتان كصخرتين صدف أن وقعتا حول نتوء كبير، كان أنفه.

لماذا ذهبنا إلى المكان؟ لست أذكر الآن.. لقد قطعنا في سيارتنا الصغيرة طريقاً وعراً موحلاً لا ملامح له، واستغرقت رحلتنا أكثر من ثلاث ساعات.. ثم أشار ثابت من نافذة السيارة بذراعه وصاح بصوت ثاقب:

ـ هاهي «جليعة العبيد»...

و»قليعة العبيد» هذه كانت صخرة كبيرة، فأصبحت تشبه جناح طائر عملاق دفن رأسه في الرمل، ومد جناحه فوق صخب البحر..

ـ لماذا أسموها قليعة العبيد؟

ـ لست أدري.. ربما كان هذا الأمر حدث تاريخي ألصق بها هذا الاسم... هل ترون ذلك الكوخ؟ وأشار ثابت مرة أخرى إلى الكوخ الصغير الملقى في ظل الصخرة الجبارة، وأطفأ محرك سيارته، وهبطنا..

ـ يقولون أن عجوزاً نصف مجنون يسكنه..

ـ وماذا يفعل في هذا الخلاء لوحده؟..

ـ ما يفعله أي نصف مجنون يخطر على بالك...

وشاهدنا العجوز من بعيد، يجلس القرفصاء على عتبة كوخه محتوياً رأسه بين كفيه، محدقاً إلى البحر..

ـ ألا تعتقد أن هذا العجوز له قصته الخاصة؟. لماذا تصر على أنه نصف مجنون؟

ـ لست أدري... هكذا سمعت عنه.

كان ثابت قد وصل إلى المكان الذي اختاره، فمهد الرمل، وألقى بزجاجات الماء، وأخرج الطعام من الكيس، وجلس.

ـ يقولون أنه كان أباً لأربعة أولاد حالفهم الحظ، وهم الآن من أغنى أغنياء المنطقة...

ـ ثم ماذا؟

ـ لقد اختلف الأبناء حول إيواء أبيهم.. وتحكمت زوجاتهن في الأمر، فانتهى القرار بالعجوز إلى الهرب والاستقرار هنا..

ـ إنها قصة تجري كل يوم.. لا داعي لأن تخلق من العجوز نصف مجنون..

نظر ثابت إلي بلا معنى، ثم أشعل مجموعة الأخشاب التي شكل منها موقداً، وصبّ الماء في الإبريق وثبته فوق النار..

ـ المهم في القصة هو أن نتفق.. هل كان هروبه إلى هنا من وحي نصفه المجنون أم من وحي نصفه العاقل؟..

ـ هاهو ذا على بعد أمتار منك.. لماذا لا تتقدم إليه وتسأله؟

نفخ ثابت في النار، ثم أخذ يفرك عينيه وقد استوى راكعاً على ركبتيه..

ـ إنني لا أستطيع أن أتحمل الفكرة التي يوحيها إلى منظره..

ـ أيّ فكرة.

ـ أن يُمضي الرجل سبعين سنة من حياته بصورة قاسية، أن يعمل، أن يتعب، أن يكون موجوداً يوماً إثر يوم، وساعة وراء ساعة، أن يأكل طوال سبعين عاماً من عرق كفيه، أن

يعيش اليوم آملاً في غد أفضل، أن ينام كل ليلة طوال سبعين سنة.. لماذا.؟ ليمضي بقية عمره أخيراً مطروداً ككلب، وحيداً، جالساً هكذا... أنظر إليه.. كأنه حيوان قطبيّ فقد فراءه، هل تتصور أن يعيش الإنسان سبعين سنة.. ليصل إلى هنا؟.. إني لا أتحمل!

وحدق إلينا من جديد، ثم بسط كفيه وعاد يصيح:

ـ تصور! سبعون سنة بلا فائدة، بلا معنى، تصور أنك مشيت سبعين سنة على طريق واحد.. نفس الاتجاه، نفس الأطراف، نفس الأفق.. نفس كل شيء.. إنه شيء لا يحتمل!.

ـ ربما يخالفك العجوز في وجهة النظر، ربما يعتقد أنه وصل إلى نهاية مختلفة عن حياته.. ربما كان يحب نهايته هذه.. لماذا لا تسأله؟

وقمنا إليه.. وحينما وصلنا مكانة، رفع عينيه ورد سلامنا ببرود، ثم دعانا إلى الجلوس. ومن خلال الباب الموارب شاهدنا الكوخ من الداخل، كان فراشه الرث في الزاوية، وكانت هنالك صخرة مربعة في الزاوية المقابلة.

شاهدنا عليها كوماً من المحار غير المفتوح.. لقد خيم الصمت علينا هنيهة، قطعه العجوز بصوته الواهن:

ـ أتريدون شيئاً من المحار؟ إنني أبيع محاراً...

ولما لم يكن لدينا أي جواب، فلقد سأل ثابت:

ـ وهل تصطاده أنت؟

ـ أنتظر الجزر فالحق به إلى مسافة بعيدة في الداخل وأجمعه، ثم أبيعه للذين يريدون أن يجدوا فيه لؤلؤاً..

وحدقنا في وجوه بعضنا، ثم ما لبث ثابت أن طرح السؤال الذي اعتمل في رؤوسنا جميعاً:

ـ لماذا لا تحاول أنت أن تجد لؤلؤاً داخل هذا المحار؟

ـ أنا؟

قالها وكأنه يعي لأول مرة أنه موجود فعلاً.. لو كانت الفكرة لم تطرأ على باله إطلاقاً، ثم هزّ رأسه، وصمت..

ـ بكم تبيع الكوم؟

ـ بمبلغ زهيد.. برغيف أو برغيفين..

ـ إنه محار صغير، لا يوجد فيه لؤلؤ حتماً...

ونظر إلينا العجوز بعينيه المطفأتين تحت حاجبيه المنفوشين، وقال بحدة:

ـ هل تفهم أنت في المحار؟ ما يدريك أن يوجد لؤلؤة أو لا يوجد؟

وكأنما خشي أن يندفع أكثر ويضيّع الصفقة.. فصمت.

ـ وهل تستطيع أنت أن تعرف؟

ـ لا.. لا أحد يعرف...

وأخذ يتلهى بصدفة وجدها أمامه متجاهلاً وجودنا، وكأننا لسنا هناك.

ـ إذن بعنا كوما..

واستدار العجوز، وأشار إلى الكوم المرصوف فوق الصخرة المربعة وقال وفي صوته رنة فرح مكتومة:

ـ هات رغيفين وقم خذ هذا الكوم..

وحينما عدنا إلى مكاننا حاملين كوم المحار، عاد الشجار يأخذ مجراه، قال ثابت:

ـ أعتقد أنه ليس نصف مجنون، وليس له أولاد أغنياء.. كل ما هنالك أنه رجل فقير وجد أسلوبه في التسول الشريف...

ـ بل أعتقد أن هذه العيون ليست سوى عيون مجنون... وإلا لماذا لا يفتح المحار فربما وجد لؤلؤة ما؟...

ـ ربما ملّ من المحاولات ففضل أن يبقى متفرجاً ورابحاً معاً.

لقد شغلنا نصف نهارنا في فتح المحار حتى أتينا عليه.. وكومنا حولنا بطـون المحـارات الهلامية الفارغة... ثم أخذنا نضحك على جنوننا...

وعند العصر، أقترح علي ثابت أن أحمل إلى العجوز فنجاناً من الشاي الثقيل، عـلّ هـذا يدخل إلى صدره شيئاً من الفرح...

وحملت الشاي إليه.. لقد راودني إحساس صغير بالخوف، ولكنـه دعـاني إلى الجلـوس، وأخذ يرتشف شايه بشغف:

ـ هل وجدتم شيئاً في المحار؟

ـ كلا.. لم نجد أي شيء، لقد ضحكت علينا...

هز رأسه بألم، وارتشف رشفة أخرى.. وقال كأنما يحدث نفسه:

ـ ضحكت عليكم برغيفين!

وعاد يهز رأسه من جديد... ونظر إلي فجأة وصاح بحدة:

ـ لو كانت هذه المحارات حياتك.. أعني لو كانت كل محارة عبارة عن سنة من عمـرك، وفتحتها واحدة إثر الأخرى فوجدتها فارغة، أكنت تحزن حزنك لفقد رغيفين؟..

لقد أخذت ارتعش.. وتأكد لي في لحظات إنني أمـام مجنـون فعـلاً، كانـت عينـاه تحـت حاجبيه المنفوشين تلتمع ببريق حاد وغير طبيعي، وكأن ثوبه الرث ينتفض في ضوء العصر... ولم أجد أية كلمة أقولها، فحاولت أن أنهض، ولكنه أمسك زنـدي، وشـعرت بكفـه الدقيقـة قوية متشنجة.. ثم سمعت صوته:

ـ لا تخف.. أنا لست مجنوناً كما تعتقد... إجلـس أريـد أن أقـول لـك شـيئاً: إن أسـعد لحظات يومي أن أتفرج على خيبة أمل من هذا الطراز.

وعدت إلى الجلوس شاعراً بشيء من الطمأنينة هذه المرة، بينما أخذ هو ينظر مـن جديـد إلى الأفق متجاهلاً وجودي وكأنه لم يدعني قبل هنيهة إلى الجلوس... ثم ألتفت إلي:

ـ لقد كنت أعرف أنكم لن تجدوا شيئاً... إن هذا المحار ما زال طفلاً، ولذلك لا يمكن أن يحتوي على أي جنين لؤلؤيّ... ولكني أردت أن أعرف.!

وصمت من جديد... وعاد يحدق إلى البحر، وقال كأنه يحدث نفسه:

ـ سوف يبدأ الجزر مبكراً هذه الليلة، وعلي أن أجمع كوماً آخر من المحار، فسوف يأتي في الغد رجال آخرون..

❖ ❖ ❖

قمت أجر حيرتي... كانت قلعة العبيد مظلمة في ضوء المغيب، وكان الأصدقاء يشربون الشاي حول أكوام المحار الفارغة، بينما أخذ العجوز يعدو خلف الجزر، منحنياً بين الفينة والأخرى ليلتقط المحار المتخلف عن الماء...

الكويت. جريدة الحرية العدد23

القط

«منشورة في الأعمال الكاملة»

كان جالساً في المقهى، فخطر له فجأة أن يذهب إلى «سميرة» .. لقد اعتذر إلى رفاق الورق، ودفع مقعده وقام إلى الطريق. كان الطقس حاراً، والشمس تلهب رأسه... ولكن شيئاً لم يكن ليستطيع إيقاف عزمه، وحينما شاهد أول سيارة أشار إليها واندفع إلى المقعد الخلفي هاتفاً بالسائق:

ـ الشارع الفلاني.. وحينما استقر في المقعد هجمت فكرة خبيثة على رأسه...

ـ أيها الكذاب.. أنت تذهب لسميرة، لأنه ليس ثمة مكان آخر تذهب إليه، الفراغ هو الذي يجرّك إليها.

ابتسم بكبرياء.. وطرد الفكرة بصلف. أنا ذاهب إليها لأنني أريد أن أذهب إليها...

أحس، فيما كانت السيارة تندفع في الطريق، بغصة صغيرة في حلقه كان يشعر بها دائماً كلّما اعتزم أمراً كبيراً، وحينما نظر إلى ظاهر كفه كانت عروقه بارزة بصورة غير عادية، فأخذ يصفّر لحناً، قائلاً لنفسه:

ـ ليست هذه أول مرة أذهب فيها لسميرة، وإلى ذلك...! فأنا أشعر بحاجة إليها...

وأخذ يحدّق خلال النافذة إلى الناس. نمل يسير في منعرجات طرقات غريبة وخاصة من حيث لا يدري أحد، وإلى حيث لا يعرف أحد.. وفكر في أنه إنسان يعيش حياة كاملة، يفعل ما يريد، ويذهب إلى حيث يريد. إن حياته كلّها مرت دون هزات، بل إن أية هزة لم تكن لتقدر أن تزحزح ثقته بهذا التفوق... أي شيء في هذه الحياة لا يستحق أن يشوّه له هدوءه واطمئنانه... إنه يذكر، بوضوح شديد، إنه ذهب إلى سميرة هذه في نفس اليوم الذي مات فيه والده... لقد قال مرة لأحد أصدقائه إن سميرة هي كل شيء في هذه الدنيا... هي الشيء

الوحيد المحدد الذي يعرف المرء أين يبدأ وأين ينتهي.. متى يستطيع أن يفهم هؤلاء النمل بأن سميرة هي الحقيقة وإن كل شيء ليس إلا غلافاً يغلف غلافاً آخر وأنه ليس ثمة حقيقة على الإطلاق، سواها، متى... واكتشف أنه يتفوق على كل هؤلاء البشر النمل، بأنه...

ـ بأنني ماذا؟

هزّ رأسه، واقتنع بأنه يتفوق على كل هؤلاء، لسبب ما لابدّ أن يكون موجوداً في مكان ما، ولكنه ليس الآن في حاجة إلى التفتيش عنه، واكتفى من الاقتناع بالشعور الحقيقي الذي كان يتفجر داخل جسده، فيغسل عروقه، ويحس به في حلقه.

ـ أين تريد أن أقف يا سيدي..؟

حدّق في وجه السائق الأشيب وهو ينقده، وخطر لباله أن هذا السائق يعرف وجهته، ولكنه لم يشعر بالخجل بل ضحك في وجهه.. وقال لنفسه:

ـ لابدّ من وجود ثلاثة ليتم كل شيء... أنا، لأرغب، وسميرة لأذهب إليها، والسائق ليوصلني...

وأعطته هذه الفكرة يقيناً بأن شعوره بالتفوق لم يكن شعوراً فارغاً.. فالسائق يعرف ـ كما بدا له ـ أنه يوصله إلى حيث يريد أن يسعد نفسه. وسميرة تعرف أن عليها أن تسعده، وهكذا بدأ يسير في الأزقة الضيقة التي تنتهي إلى بيت سميرة، شاعراً بأنه محور صغير تدور عليه الحياة كلها...

إلى هنا، كل شيء كان يجري على ما يرام، وكان ما يزال يستشعر الاقتناع العميق يتفجر في جسده، ولكن الغصة التي كانت تتقلب في حلقه بدأت تكبر شيئاً وراء شيء...

ـ حسناً.. هذا يدل على أنني ما زلت أرغبها بكليتي.! وهذا أفضل..

ذلك أنه كان في الأيام الماضية يفقد رغبته بسميرة حينما يقرع بابها، ويحس تلك الغصة الصغيرة في حلقه تذوب، ثم تسقط إلى معدته، ثم يتم كل شيء دون أيما رغبة. وكان هذا يورثه نقمة لا حد لها، أما الآن.. فكل شيء على ما يرام:

ـ لو سكنت سميرة في بيت يقع على رصيف شارع كبير، لوفّرت علي المشي في هذا الزقاق الكئيب... لماذا لا تسكن في مكان تقف فيه سيارة.؟

كانت وجوه الناس ما زالت تمر في الزقاق أمامه، وكلما تعمق إلى الداخل قلّت هذه الوجوه.. وبدا له أنه من المضحك أن كل هؤلاء الناس يسكنون إلى جانب سميرة، ولا يعرفون أنه ذاهب إليها، بل ربما لا يعرفون سميرة نفسها. لقد كتم ابتسامة سخرية مرّة، وراودته رغبة في أن يوقف كل رجل يمر به، ويهزّه، ويصيح به:

ـ أنت مسكين!

ثم يكمل طريقه إليها، وقد ازداد اقتناعه بالتفوق، ولكن لماذا لا تسكن سميرة في مكان يتسع لدخول سيارة.؟

ـ ربما تخاف من الشرطة.. ربما كانت النقود هي السبب.! هذا لا يهم... المهم أن الغرفة واسعة، ومريحة، وأن سميرة.. الغضة ما زالت تكبر وتكبر.

وكان هذا يورثه سعادة لا تثمّن...

وفجأة شاهد القط..!

كان مقعياً على مؤخرته في ركن مبلول من الزقاق، باسطاً ذيله بصورة مستقيمة، رافعاً عنقه إلى فوق مستعرضاً المارّة بعينين مدوّرتين، جامداً على غير عادة القطط.!

لقد شاهده قبل أن يحاذيه ببضعة خطوات، وخطر لباله سؤال ساذج:

ـ لماذا لا يتحرك هذا القط إطلاقاً.؟... لابد من سبب.!

كان من الممكن أن يبقى السؤال بلا أي جواب، ولكنه حينما حاذى القط، اشتد ضغط السؤال فدار حوله مستطلعاً السبب، واجتاحته رجفة صغيرة، ولكنها سريعة وقاسية، حينما شاهد الساقين الخلفيتين للقط مهروستان.. وتكادان تستويان مع الأرض. كان الدم جامداً ومخلوطاً مع شعر القط، وكانت الساقان ملقاتين وكأنهما ليسا للقط هذا..

أكمل دورته.. ونظر إلى عيني القط، ثمّة استسلام غريب في عينيه.. وانتظار.!

وعاد يسير داخل الزقاق باتجاه بيت سميرة، وبدا له أنه نسي كل شيء وهو يقرع الباب... ثم وهو يقبّل سميرة كالعادة، ثم وهو يجلس قبالتها في الغرفة.

هذه هي الحقيقة الغريبة، حينما يحدق إليها الآن يشعر بشيء من الغرابة، كأنها شيء يشبه جبلاً مسحوراً يشدّه الإنسان عن بعد، ولكنه ـ عن كثب ـ ليس سوى أكوام صخور لا معنى لها ولا مبرر.. لابد أن يكون ثمة تفسيراً لهذا الشيء.! لماذا هذا الانجذاب المسعور للجبل الساحر إذا كان هذا الجبل.. إذا كان ماذا...؟

إنه ما زال يحس برغبة في أن يعانق هذا الجبل، علّه يستطيع أن يمتزج فيه بكيفية ما.. كانت الرغبة تأكله في صدره، والغصة ما زالت تجرح حلقه كسكين ذات نصلين حادين.

ـ وجهك شديد الاصفرار.. هل أنت مريض.؟

ـ أنا.؟

وهوى السؤال فجأة على جمجمته.. لابد أن سيارة سريعة هي التي هرست ساقي القط المسكين، ولكن كيف يتسنى لسيارة ما أن تدخل إلى الزقاق.؟

ـ أنت مريض.. لقد ازداد اصفرار وجهك، أتريد شاياً.؟

ـ شاي.؟.. كلا... ولكن قولي لي: هل يستطيع قط تكسرت ساقاه الخلفيتان أن يزحف من أول الزقاق إلى حيث صنبور المياه في وسطه.؟

ـ قط يزحف؟ ماذا دهاك.. أنت تشكو من الحمى.؟

نهضت سميرة لتأتي بالشاي، وشعر هو أنه محموم فعلاً.. لقد جسّ جبهته بظاهر كفّه، كانت مبلولة بالعرق..

ـ هذا من فعل الشمس.. أنا لست مصاباً بالحمى.

أرخى جسده فوق المقعد الوثير، وحاول أن ينسى نفسه قليلاً:

ـ إن لغرفة العاهرة رائحة خاصة، لابد أنها تنبعث من مكان ما... السرير؟ الستائر؟ أم من أنفي نفسه؟.. ولكنها رائحة خاصة، أستطيع شمّها ككلب صيد مدرّب...

كلب..؟ ما الذي أوصل القط إلى منتصف الزقاق.؟

اعتدل في جلسته... وعادت سميرة تحمل الشاي بمنامتها الوردية، حدّق إلى جسدها وشعر بأنه لا يرغبها كثيراً ثم سمعها:

ـ فكّرت في سؤالك... هل القط كان على وشك الموت.؟

ـ نعم.. كان ينتظر...

ـ إذن لقد زحف إلى هناك كي يموت هناك...

ـ ولماذا يريد أن يموت هناك؟

ـ اسأله.. أنا لست قطاً.

وضحكت بالمجون اللائق بها، ثم جلست إلى جانبه ووضعت ذراعها البض على كتفه، فيما أخذ يسائل نفسه:

ـ«ولكن أية قوة هذه التي جعلته يزحف من الشارع إلى منتصف الزقاق... أية قوة.؟».

وقام فجأة من مكانه نافضاً رأسه كي تسقط الفكرة التي استولت عليه، وأخذ يتجول في الغرفة باحثاً عن موضوع آخر.. أقل سواداً.

ـ لماذا تسكنين هنا.؟ لماذا لا تجدين بيتاً على الشارع يوفّر على زبائنك المسير داخل هذا الزقاق الكئيب.؟

ضحكت سميرة، وقامت فاستلقت على سريرها بإعياء، وقالت ناظرة إليه من طرفي عينيها:

ـ كي لا يصل إلى هنا إلا الزبون الذي يرغبني فعلاً، إن الزبون الذي لا يميل إليّ يصعب عليه المسير هذه المسافة الطويلة في الزقاق، ولذلك لا يأتي... أما الذين يحبونني، مثلك، فيمشون..

وضع كفيه في جيبيه، وعاد يتجول في الغرفة.. كانت رأسه فارغة تماماً إلا من دوامة غشيان بلا ألوان، كانت ثمة صورة على الحائط تمثل شلالاً من المياه المزبدة، وتحتها تمثال من الرخام الرخيص لامرأة عارية بلا رأس، والطاولة خلفه، والمقعد الوثير أمامه، والمرآة في الركن، والسرير إلى جانبه وهي مستلقية هناك بإهمال تدخن، وتحدّق إلى السقف.

وسمع صوتها، محاولة أن تسكب فيه كل أنوثتها كي تحرك جموده:

ـ أما الذين يحبونني، مثلك فيمشون...

ـ إذن هكذا.؟

ـ ماذا.؟

ـ لقد زحف القط.. زحف يجرجر خلفه قائمتيه الميتتين إلى هناك، كي يموت هناك.. ولكن لماذا.؟

اعتدلت سميرة في جلستها وصاحت بصوت مجروح:

ـ ماذا حدث لك اليوم، أنت مجنون.. لم تكن هكذا أبداً.. أتحسب أني مدرّسة تأتي إلي لتسأل.. وتسأل.. وتسأل..!

بقي صوتها يدوّي فيما وضع نقوده على الطاولة، وخرج إلى الزقاق الكئيب.

1955

إلى أن نعود

«منشورة في الأعمال الكاملة»

مع أشعة الشمس التي كانت تأكل رأسه وهو يضرب وحيداً في صحراء النقب، كان يسمع صخب أفكاره في رأسه كأنه مجموعة مسامير تدق.. ولا تنغرس.

إن أنفه يعمل الآن تماماً كما تعمل البوصلة، وهو يشعره أنه يقترب من هدفه، إنه يعجب لنفسه كيف لم ينقطع عن التفكير العنيف طوال هذه الساعات الممضة، لقد فكر في هذه الساعات كما لم يفكر أبداً طوال ثماني سنوات..

ويغرس قدميه في الرمال الناعمة، ويقتلعها كما تقتلع قطعة الخشب العتيقة عن غراء لم يجف بعد كما يجب، ثمة أحاسيس ضخمة تمتلك عنه ذكرياته، إن هذه الأحاسيس لتتداخل في بعضها وتتشابك حتى ليشعر إنها لازمته زمناً طويلاً، ويصعب عليه الآن أن يتصور نفسه كيف كان بدونها.. إنه عطشان إلى حد يشعر فيه بأن حلقه أضحى جافاً جامداً، فلم يعد ثمة ضرورة لبقائه، ويشعر بالتالي أنه تعب، مرهق، يكاد يتهاوى، كأنما انتهى لتوه من شد قارب كبير من البحر إلى رمل الشاطئ المبلول..

لكنه مع هذا كله، كان يسير مندفعاً كأنه يسابق نفسه، كان نصفه العلوي يتقدم منحنياً عن بقية جسده.. فالرمل الناعم يعيق سرعة قدميه، كان قصيراً، أسمر البشرة، محروقاً، لم يكن في وجهه أي شيء يستلفت النظر لأول وهلة، كل ما هنالك أن لفمه شفتان رقيقتان مطبقتان في تصميم، إن شكل وجهه يثير في الإنسان ـ لدى تدقيق النظر ـ شعوراً بأنه يشاهد حقلاً صغيراً، بل وأكثر من هذا، فإن الخطين الذين يشقان جبهته يحب الإنسان أن يشبهها بآثار «شفرات» محراث مر لتوه من ذلك المكان..

لقد بدأت رائحة أرضه تذيب أحاسيسه، شيء جميل أن يشم المرء جزءاً من ماضيه، إن رأسه الآن تنفتح كأنها صندوق عرس منقوش بالصدف، ويحوي كل شيء، ويرى فيه داره

الصغيرة الرطبة، وزوجه ترش التراب بالماء، ثم يرى نفسه آتياً من حقله بقدميه الموحلتين، إن الصورة يراها أمامه هكذا، بل وأكثر من ذلك، كأنه يستعيد منظراً عاشه قبل دقائق فحسب، إنه يرى الصورة بكل تقاطيعها الدقيقة، حتى ليرى نفسه كيف يسير، لم يتيسر له قبل الآن أن يراقب سيره بهذا الوضوح وهذا الإمكان.

وهو يقترب من أرضه، هكذا يشعر في أعماقه، وعندما بدت له أول (بيارة) من (بيارات) أهل قريته، ابتدأ الصوت الذي ودعه على فوهة النقب الجنوبية يدق رأسه، ويتجاوب صداه في جسده:

ـ«هي أرضك، ألم تعش هناك؟ حسناً، إنك تعرفها أكثر من سواك، في واحد من الحقول بنى اليهود خزاناً يسقي المستعمرات القريبة، أعتقد أنك فهمت، إن الديناميت الذي تحمله يكفيك...»

لم يتكلم بعدها، بل انطلق عبر النقب وحيداً، وحيداً إلا من هذه الزوبعة التي تثور في أعماقه.. وها هي أرضه، حيث درج يلهو، تستلقي في أحضان الجبل باستسلام.

وانزلق بين الحقول الخالية بحذر، مستمداً من رائحة ترابه شعوراً بقدرة لا تقهر، وأصابعه تطبق على سكينة في تهيؤ«وحشي» إن رأسه تشتط به وتختلط في تاريخ الحقول التي يعرفها جيداً، ويجد عنتاً شديداً في العودة إلى الحقيقة..

وعندما استدار حول حقل كان لأبي حسن«جاره» في يوم من الأيام، رأى إلى نفسه أن يشد رأسه عالياً وهو يرقب بشعور غامض خزان المياه، يرتفع كأنما ليصل الأرض بالسماء.. يؤمن الماء للأرض التي كان يجهد ليؤمن لها الماء.. لكنه ساءه أن يقف الخزان، هكذا، في الحقل المعطاء.. إنه بوقوفه هذا يشوه إحساساً جميلاً أحسه هو، وجميع جيرانه، طوال حياتهم.. إنهم، الفلاحين، يحسون الأرض إحساساً بينما ينظر سواهم إليها كمشهد عابر، إن أي حقل، يبعث بالفلاح شعوراً تلقائياً بأنه«ذلك الحقل» يحرس عادة كل شيء وجد فيه حراسة صميمية، إن الحقل، أي حقل، يلقي على موجوداته ظل الأبوة مهما عظمت، فيشعر الإنسان إنها في حماية قوة غامضة، هائلة، مخيفة، لكنها محببة..

ولكن الخزان يدمر هذا الإحساس، وهو واقف هناك كحقيقة مرة تعطيه نوعاً آخر من المشاعر، بل إنه يحس إحساساً عميقاً ساكناً بأن الأرض نفسها ترفض الخزان.. لا تريد أن تحمله، إنه يعني شيئاً دامياً كالمأساة.

وحبس أنفاسه وهو يرقب من خلال العواسج أرضه التي سكب عليها عرقه ليخلقها من العدم، هاهو ذا البيت الصغير الذي كان يأوي إليه مع زوجه أيام العمل المتواصل في موسم الحصاد، فلقد كان بيتاً جميلاً على ما فيه من تواضع، أما الآن، فلقد تهدمت ناحية منه، والناحية الثانية التي تتكئ على صخور الجبل قد علاها الغبار وصبغتها ذرات رصاصية من دخان (الموتور)، إن الخزان يقتحم حياته بشكل مزعج، لقد أقيم في الساحة التي كان يجلس فيها وزوجته قبل أن يناما، يتحدثان فيها عن الذرة والقمح، لقد كان في مكان قائمة الخزان الأقرب للدار شجرة أجاص فريدة في نوعها، كان يحبها ويعتني بها، هنا، قرب الباب المتداعي كانت تنام زوجه ليالي الصيف، كان في تلك الأيام يدعو جيرانه للجلوس، فتسرع زوجته وترش الساحة بالماء فتكسبها رطوبة محببة.

وفجأة، ودون أي سابق إعلام، سقطت من أعماقه اللاواعية إلى حياته الواعية صورة مدوية مروعة، اجتاحته كالطوفان، هوت إلى حواسه كلها دفعة واحدة فشغلتها كلها، قبل أن يرحل بيوم واحد.. بيوم واحد فقط، دخل اليهود إلى البيارات، ووجد أن عليه أن يترك، ولو إلى حين، ذلك العطاء.. وجر زوجه وترك أرضه، وسار..

إلا أنه قبل أن يجتاز باب حقله المقطع، رنى إلى زوجه، وألفى نفسه مشدوداً إلى دمعتين كبيرتين في عينيها الواسعتين.. كأنما هي ذوب حنين.. كان يريد أن يقاوم لكنه رأى نفسه محاطاً بالتساؤلات التي غرستها دمعة زوجه في عروقه الزرقاء:

ـ إلى أين؟ وأرضك؟ أليس من الأفضل أن تعيد إلى التراب عطاءه لحماً ودماً؟

ودون أن يتكلم، سحب زوجه من يدها إلى حقله، ولم يستطع أبداً أن يحرر نفسه من النداء الطيب في العينين الواسعتين..

في تلك الليلة.. شنق اليهود زوجه على الشجرة العجوز بين الساحة والجبل، إنه يراها مدلاة عارية تماماً.. كان شعرها محلوقاً ومربوطاً إلى عنقها وينزف من فمها دم أسود لماع..

لقد شدوا خصرها النحيل شداً مجنوناً، لم يكن في وجهها كله ما يشير إلى أنها كانت، قبل هنيهة، تملأ الساحة رصاصاً وناراً ودماً، في ذلك الوقت، كان هو مربوطاً إلى الشجرة المقابلة يشهد كل ما فعلوه عاجزاً، لقد شدوه إلى الشجرة بحبال الحراثة بعد أن سلخوا ظهره بالكرابيج الجلدية طوال بعد الظهر، وتركوه يشهد كل شيء، تركوه يحدق ويصيح كالمجنون..

لقد حشوا فمها بالتراب عندما قالت له: (مع السلامة). وماتت وتركوه يمضي كي يموت بالصحراء مع ذكرياته..

إنه لا ينظر الآن إلى هذه الصورة نظرة المشاهد، لا، أبداً، إنها تتفاعل بأعماق أعماقه ويحسها ويراها تنسكب على أعصابه كالرصاص المذاب، إن ذاته تتفاعل الآن مع الماضي بشكل عجيب، لم يستطع أن يخلع نفسه من الصورة الدموية، ولا أن يخلعها من نفسه، كان حاضره يمتزج بماضيه مزجاً معقداً، إن صوت استغاثات زوجه وأنينها المقطع المحروق، وصوت أسنانها تمضغ التراب، وصوت حنجرته وهي تطبق على وصياحه في بحات هستيرية، كل هذا كان يمتزج امتزاجاً متشابكاً بصوت الانفجار المريع، وصوت الخزان العملاق يقتلع من الوجود..

ويمتص الدخان الأسود بعض أحاسيسه الدامية، ويرنوا إلى الحطام بهدوء صاخب..

...

لقد عاد في المساء إلى خيمته، كان متعباً منهوكاً، يحس كأنما قد تباعدت مفاصله عن بعضها وعلى عضلاته أن تتوتر إلى الأبد كيما تنشد بينها، وأحس وهو يصافح الإنسان الذي ودعه قبل أن يذهب إلى مهمته أنه لازال في المعركة التي بدأت منذ زمن بعيد.. وسمع صوته:

ـ ماذا؟ هل انتهى كل شيء على ما يرام؟

وهز رأسه في إعياء.. وعاد يسمع صوت الرئيس:

ـ هل أنت تعب؟

وهز رأسه نفياً وهمس بصوته العميق المجروح:

ـ هل أعددت مهمة صباح الغد.؟

ووصله صوت رئيسه من بعيد:

ـ ولكنك لا تستطيع أن تتابع غداً.. يجب أن تستريح.. ودون أن يفكر أجاب:

ـ بل أستطيع..

ـ إلى متى تحسب إنك تستطيع إن تواصل على هذه الصورة؟

قال وهو يسند رأسه على كيس المتفجرات:

ـ إلى أن نعود..

دمشق. 1957/6/24 منشورة في جريدة الرأي.

البطل في الزنزانة

«منشورة في الأعمال الكاملة»

«لاجئة تبكي أيام الحب.. لمّا كانت يافا.. يافا. وأخيراً ما بعدك يا يافا.؟ كم سنة ونصير حكاية؟ ويقول العلماء: العرب انقرضوا.!»

قرأت لك أخيراً مجموعة لا بأس بها من الأقاصيص المنشورة هنا وهناك، وسرني بالفعل إنك قد تخلصت إلى حد بعيد من ذلك الافتعال اللزج الذي يثقل طبيعة القصة، ويعرقل انسياب حوادثها. إن أصعب ما في كتابة القصة، هو التخلص من ذلك الافتعال، لكنني، وأصدقك القول، لا أفهم تماماً ماهية هذا الذي يدعونه«افتعال»، فإن كان يقصد منه ضعف الأسلوب وتقصيره عن إظهار الحادثة بشكلها الطبيعي، فأنا موافق، أما إذا قصد منه إن الحادثة في القصة هي حادثة تعوزها الإمكانية والعفوية، أو إنها حادثة بسيطة إلى حد ليس لها فيه أية قيمة، فأنا لا أوافق، إذ أنني أعرف قصة حدثت حقيقة مع واحد من أصدقائي، وكلما فكرت في أن أكتبها، لمحت فيها، مقدماً، خطوطاً ثخينة من هذا«الافتعال» تحدد بعض جوانب حوادثها.. لماذا؟ إنني في الحقيقة لا أدري، أو، لا أعترف بذلك، إن حوادث القصة ذاتها ليس فيها أشياء كثيرة تحفظ عليها بنيانها القصصي.. وأخاف أن أزيد على أحداثها كي أخلص من الضعف والافتعال، فأقع في الكذب..

فأنا، على هذا، أحب أن أكتبها لك كما هي، احتراماً للبطل وللحادثة، وكما حدثت قبل عدة أشهر دون أن أزيد فيها أو أن أنقص.. وعليك أنت أن تجرب فيها القواعد التي قلتها عن كتابة القصة، ولكي تكتب من هذه الحادثة نفسها قصة ناجحة يقول عنها النقاد أنها«مكتملة البناء الفني»، فكيف ستتصرف يا ترى؟ وهل تجيز لنفسك أن تغير الحوادث التي وقعت، أو

تضيف عليها حوادث جديدة كي تنسجم مع ما يسمونه«البنيان الفني للقصة»؟ وإذا أجـزت لنفسك ذلك، فهل تعتقد أنك تكون في مستوى القضية التي تعذب البطل من أجلها؟

❖❖❖

إن صديقي ـ بطل القصة ـ ولنسمه رياض يعيش قضية تعكس نفسها على كافة جوانب حياته، أنه يعيش قضية الأمة العربية، ويبذل جهداً هائلاً كي يرتفع بنفسه إلى المستوى الإيجابي المنتج لهذه القضية.. إن ريـاض قـد حـاز إعجـاب الجميـع وتقـديرهم، رغـم أن قـسماً مـن هذا«الجميع» عندما تعرف إلى رياض قال عنه إنه إنسان يحب التظاهر، وإنه في باطنه يريـد أن ينطلق إلى أقرب ملهى.. كي يلعب مع العصافير ـ حسب تعبيرهم ـ ولكن رياض ما لبث أن فرض نفسه بتشامخ ارتباطه مع القضية الكبيرة..

لم يكن رياض إذاً مزيفاً بهذا الارتباط، بل ربما كان ارتباطه هذا أوضح مـا في نفـسه مـن أصالة.. كان يقف وقته كله على تغذية نفسه بفهم أوسـع، وأنـصع، لهـذه القـضية.. إننـي لا أبالغ، بل أعطيك إنساناً أعرفه كما يعرف الإنسان ألصق الأشياء به..

لقد سافر رياض إلى الأردن، بعد انتكاسة نيـسان الأخـيرة، فـإن هنالـك أشـياء كثـيرة يستطيع أن يؤديها بإتقان، واستطاع أن يجد غرفـة متواضـعة منعزلـة في دار تـسكنها امـرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، مع زوجها.. هناك سكن ريـاض، كـان يمـضي أوقاتـاً طويلـة في غرفته، يتم أعماله الخاصة، غير مهمل البتة، القيام بالواجبات الصغيرة التي تحتمها المجاملات مع أصحاب الدار.. لقد كان يستقبلهما بغرفته، ويسهر معهما، حتـى إذا مـا قامـا إلى غـرفتهما دأب هو على عمله حتى الصباح..

وكان في عمله ذاك، أوضح مثال عن الإنسان الـذي يتغـذى بالنـضال الـصامت. كـان قاسياً على نفسه، غير متهاون أبداً في مطالبتها بالواجبات.. كان رفاقه يحترمونه، لقد كان قوياً، ولقد فرض هذا الشعور على جميع من تعاون معه، فرضه إلى حد جعـل بعـضهم يتـساءل، إذ هل يمكن أن يكون لهذا الإنسان«رياض» جوانب أخرى غير قوته، في ذاته؟

وأتى الجواب في لحظة عابرة..

رأوه مرة يبكي، كان ذلك في ليلة نزل فيها بسيارة هزيلة مع بعض أصحابه، حاملاً رزماً من المناشير، وفي الطريق، لاحظ السائق أن ثمة سيارة تتبعهم فراوده خوف مشحون بالرغبة في التحدي، ولكنه اضطر إلى أن يبدل اتجاه الطريق.. لم يلحظ هذه الحركة إلا رياض.. بينما استمر واحد من زملائه يلقي شعراً، لشاعر من إقليم مصر، بصوت خفيض نصف مبحوح:

لاجئة، تبكي أيام الحب..

لما كانت يافا.. يافا.

وأخيراً.. ما بعدك يا يافا؟

كم سنة ونصير حكاية؟

ويقول العلماء..

العرب انقرضوا!

وفجأة نظر الجميع إلى رياض، كانت اللحظة تحتويهم بعنف وتجهم، إن ثمة لحظات تعطي الإنسان دفقات من المشاعر القاسية، البعيدة، العجيبة.. تلح على رأسه إلحاحاً ممضاً.. لقد كانت تلك اللحظة من هذا النوع، إن رياض قد خضع حتماً لتلك الدفقات العجيبة.. إن أشياء كثيرة، تلح عليه، لا شك، بحدة وصلابة.. فبكى! شيء مؤلم إن تجد إنساناً قوياً يبكي.. أليس كذلك؟

❖❖❖

قلنا إن رياض عاش في الأردن منذ وصلها، وهو يعمل ليلاً نهاراً، لقد توطدت صداقته مع أصحاب الدار، فصاروا يحبونه حباً جماً، ليس هذا فحسب بل كانوا يقدمون له عشاءه في بعض الأمسيات.

لقد كانت (أم...) صاحبة الدار تأتي إلى غرفته كل ليلة تقريباً مع زوجها، فتجلس على طرف السرير، وتتحدث عن الأخبار بينما كان رياض يجلس على كرسيه، خلف طاولة صغيرة.

وفي مرة، رفعت (أم...) جريدة موضوعة على السرير أمام عينيها، ولاحظ رياض أن الجريدة مقلوبة، وقبل أن يتكلم، رمت (أم..) الجريدة جانباً وهي تقول:

ـ الله يلعن أيام زمان.. على كل حال أنا تزوجت، وصار عندي أولاد.. ولم يبق في العمر قدر ما مضى..

وهز رياض رأسه وهو يقول:

ـ إنك يا (أم..) من الناس الذين قيل عنهم أنهم متعلمون رغم أنهم لا يعرفون القراءة.. وضحكت (أم..) ونهضت وهي تتمنى له ليلة طيبة.

❖❖❖

حتى إذا كان ذات مساء.. وقد عاد رياض إلى داره مرهقاً، استقبلته الشرطة على الباب، وشدوا الحديد على رسغيه وقادوه ـ دونما كلمة ـ إلى المخفر.. وذهب رياض إلى هناك هادئاً، وهناك قالوا له إنه يتآمر على العرش، ولكنه نفى ذلك بهدوء.. إنه كان على يقين كبير أن أحداً لن يجد ضده إثباتاً واحداً.. لقد كان حريصاً في إخفاء أوراقه، قديراً في التخلص منها في الوقت الملائم، إن الشتائم لم تجدِ، لا هي ولا السياط.. لقد بقي رياض صامداً في كل لحظة..

ولكن الأمور تجري بقسوة أشد، لقد سجن رياض في زنزانة منفردة، وسلكوا في سحب اعترافاته طريقاً وحشياً مريعاً.. كان يعرض لتيار كهربائي في كل يوم.. كان يجلد، ويعذب، ويرمى في زنزانته وحيداً مع جراحه، ولكنه صمد ببطولة صامتة، كان يقول إنه لا يعرف شيئاً أو أحداً وأنه لا يجيز لهم إهانة إنسانيته على هذه الشاكلة، ولكن مهما كانت رائعة هذه البطولة، فلقد ذوت ابتساماته تحت صفع السياط وصفع الشتائم، وبات لا يحس إلا التمزّق.

ثم حمل إلى غرفة الضابط المسؤول وأعيدت عليه مجموعة الأسئلة التقليدية، وأنكر رياض كما اعتاد أن يفعل، قدم له الضابط ـ دون أن يغير تعابير وجهه المبتسم بجذل وحبور ـ مصنفاً صغيراً وطلب منه أن يفتحه..

لقد رأى رياض في المصنف مجموعة من الأوراق، ما لبث أن عرف فيها أوراقاً كان قد كتبها في غرفته تلك، بعضها منشورات، وبعضها الآخر رسائل إلى هاربين، وأوراق أخرى،

لقد أحس رياض لا شك، قسوة المفاجأة ـ وعليك أنت أن تبرز هـذه المفاجـأة عنـدما تكتـب القصة ـ ولكنه تشبث بالنقطة الأخيرة التي بقيت لصموده، لقد قال إن هذا الخط ليس خطـه، وإنه، على هذا، لا يتعرف على الأوراق..

نعم يا رياض، إنه ليس خطك ولكن أيعدم الخائن وسيلة ليلوث نفـسه أكثـر بالوحـل والحمأ؟ إن عندهم مجموعة من الإثباتات الصغيرة لابد وأنهم سيبرزونها في الوقت الملائم..

وبدأت الخطوط تتجلى شيئاً فشيئاً، إن صاحبة الدار هي صـاحبة الوشـاية، وهـي التـي كانت تنسخ أوراقه أثناء خروجه في الصباح، وهي التي قدمت تقريراً عنه، إن المـرأة الـشريرة إذن تعرف القراءة والكتابة، لقد حطمت المفاجأة كل قلعة للأمـل في صـدر ريـاض، ولكنـه احتفظ لنفسه بمواساة أخيرة، إن المرأة الكاذبة لم تبدأ عملها منـذ زمـن بعيـد وأنهـا نـسخت جهود أيام قليلة فقط.

ويتذكر رياض المرأة، ويغص بالمرارة، لقد خدعته، ولكن ما مصلحتها مـن هـذا كلـه؟ يأتي الجواب من زميل في السجن، إنها زوجة منتسب لحزب معين، سأوافيك باسمه إن قررت أن تكتب القصة فعلاً، وهو حزب معروف بتعاونه مع الفئة الحاكمة هناك، وهي ـ أي المـرأة ـ أم لابن يعمل فيه.

ويقول له الضابط:

ـ ما رأيك؟

ويقول رياض:

ـ أنكم إذناب صغيرة في بالوعة القاذورات المنتنة، فليسقط العرش، ولتـسقط الـوزارة، ولتسقط أنت.

ويُصفع بالسوط.. ويلقى في السجن.

❖❖❖

هذه هي القصة وهي بسيطة في حوادثها، عادية إلى حد بعيـد، إننـي لا أريـد أن أكتبهـا كقصة خوف إن ألجأ إلى الحـواشي، فـأقع في الكـذب، أو في شيء آخـر لا أعرفـه، ولا أحبـه،

والحادثة كما كتبتها، هي الحادثة التي وقعت فعلاً، قد تبدو بعض أحداثها غريبة، أو مدسوسة وهذا سيزعج بعضهم، أو إنها ستبدو عادية جداً، وهذا سيزعجهم أكثر.

خذ مثلاً عندما يتكشف أن صاحبة الدار هي امرأة تعمل لحساب الفئة الحاكمة، وإنها منتسبة إلى ذلك الحزب، سيقول بعضهم:

ـ إنك دسست هذا المقطع لغاية في نفسك..

ولكن الحقيقة، الحقيقة التي وقعت ترفض هذا التكذيب، وإذا لم أذكر هذه الحقيقة، فماذا أقول؟ أليس في ذكرها فائدة لطائفة من الناس؟ إذاً.؟

أتريد مثالاً آخر؟ يقولون لك أن كذب المرأة، صاحبة الدار، وأن كلماته الأخيرة عندما صفعه الإثبات وحوادث تعذيبه، هي أمور غير واقعية ـ وفيها شعار ما ـ ولكن لماذا ننفي الحقيقة ونفتش في أذهاننا عن حادثة يقول عنها النقاد أنها ممكنة الوقوع، أليس في الذي وقع ممكن أوضح؟ أريد من كل الذي كتبت أن أسأل:

ـ أليس من حق هذا الإنسان الطيب النبيل، أن يحتفظ لنفسه بحوادثه الخاصة تلك التي بذل فيها جانباً من إنسانيته؟ أليس من حقه أن يقدم للناس كما هو، وأن يتصرف في القصة كما تصرف حقيقة.

إذن لماذا نحاول أن نحكي عنه قصة لم تحدث معه؟ لنخدم فن القصة؟ قل لي لماذا؟.

لكنني لابد لي، أن أوافقك أن مشاعر القارئ يجب أن تحترم أيضاً.. فأنت ـ ككاتب يهمك جداً، وربما أولاً، رضاء هذا القارئ ـ تطالب بنهاية ما لهذا المقطع من حياة البطل، نهاية تخدم فن القصة وترضي القارئ، الذي يجلس حيث لا أدري والذي يريد أن يدغدغ مشاعره قليلاً، إذن فلنجد نهاية ما، إن رياض، ملقى في زنزانته الآن، على حشية قش وبراغيث، محروم من التدخين، محروم من القراءة، محروم من التفكير، الخيوط الحمراء التي حفرتها في جسده الأسمر سياط المجانين محشوة بالملح، إن أصابعه ترتجف من التعب، لا من الخوف.. تعال

نفتش عن مخرج، تعال نخط له نهاية سعيدة على صفحة ورقة، كي يتمتع بها إنسان طليق حر.. تعال نعمل كل هذا لنتم القصة... كي نخدم فن الأقصوصة القصيرة.

لقد قرأت القصة على صاحبين من أصحابي، وطالبتهما بنهاية تسر القارئ، أو على الأقل، ترضيه.. فاقترح أحدهما: أن يهرب رياض من السجن بكيفية ما، ولكنه طالب بأن تكون عنيفة، وأن يذهب لتوه إلى الدار فيقابل (أم...) وليقول لها إن وشايتها قد عذبت إنساناً، وآلمته، وأرهقته.. ومن ثم، يتركها لتأنيب ضميرها، الذي لا بد له ـ كما أكد صاحبي ـ أن يستيقظ، دفعة واحدة.

واقترح الآخر ـ وهو من قراء دوماس ـ «بل يجب أن تجري الحوادث الآن على نحو مغاير» إن المرأة هذه، تشعر فجأة أنها تحب رياض حباً عنيفاً، ألم تقل أنها في الثلاثين؟ حسن جداً، إن سبب هذا الحب هو أن رجولة رياض، أبرزت تفاهة الزوج، هذه المرأة، تذهب إلى السجن لتقابل رياض، ولتقدم له الطعام والدخان، ولكنه يرفض، فتصر، ويصر هو على رفضه، وتشعر فجأة بجريمتها، فتقرر قراراً عنيفاً...»

إنني لا أوافق على هذه الثرثرة، وأدرك كم أنت مشمئز الآن لكن أرجو أن تسمع رأيي في الموضوع، إنني متأكد من نهاية هذه القصة، تأكدي من أن الشمس ستغرب اليوم على طرف الخليج، مثل كل يوم، إن الوضع الهزيل القائم سيتهاوى، لاشك، وسيخرج رياض من السجن مع زملائه الأحرار، وسينغمس مرة أخرى في مشاغل القضية التي آمن بها، وتعذب من أحبها.

أما عن (أم...)، فستضيع بين أكوام التجارب الصغيرة التي مرت به..

ماذا ترى أنت؟..

الكويت. جريدة الرأي 1958/6/9

ملحق الصور

الفهرس